



الفكر المعاصر
العدد ٨٠ - أكتوبر ١٩٧١

مجلة

الفكر المعاصر

العدد الثمانون - اكتوبر ١٩٧١

تصدر شهريا عن : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، تليفون ٩٠١٣٩٧ ، ٩٠١٢٩٩/٩٠١٢٩٩ ، ٩٠١٦٦٨

الدستور الدائم
من زاوية فلسفية

ما الذى يستطيع الفكر أن يسهم به فى مرحلة « ما بعد الدستور الدائم » ..
لقد تم وضع الدستور واقراره ، وكان للفكر دون شك دوره فى مرحلة مناقشة المبادىء الأساسية التى ينبغى أن يتضمنها دستورنا الدائم . أما اليوم ، بعد أن انتهت مرحلة البحث عن المبادىء ، وبدأت مرحلة التنفيذ العملى ، فيبدو أن زمام الأمر قد خرج من أيدى أصحاب الفكر ، وانتقل الى أيدى أهل الممارسة والعمل .

والحق أننا لو كنا من تلك الشعوب التى يتم فيها الانتقال من المبادىء النظرية الى تطبيقها العملى فى سهولة ويسر لما كان للفكر ـ بالفعل ـ دور مذكور يمكنه أن يؤديه فى المرحلة الراهنة ، ولما كان لهذا المقال ـ بالتالى ـ ما يبرره . ولكن المشكلة كلها تكمن فى تلك الهوة العميقة التى تفصل ، فى بلادنا بالذات ، بين المبدأ النظرى وبين انتقاله الى واقع ملموس . وهذه المشكلة هى التى تعطى الفكر حقا فى الادلاء بصوته فى هذه المرحلة بعينها ، بل انها تجعل من تدخل الفكر فى هذه المرحلة واجبا مقدسا مادام هو وحده القادر على تنبيه الأذهان الى أخطار لابد من تجنبها ، والى حقائق لا مفر من مواجهتها بشجاعة .

***

ان الدستور ـ أى دستور ـ انما هو مجموعة من النصوص ، ولكن ماتتميز به نصوص أى دستور ، أو أية وثيقة سياسية مماثلة ، عن غيرها من النصوص هو أنها تتضمن توجيها دائما الى العمل . انها ليست نصوص تفسر أو تشرح شيئا قائما بالفعل ، بقدر ما هى نصوص تدعو الى الفعل ، وتستمد معناها من السلوك المترتب عليها . وفى ذلك يفترق الدستور عن كل ما عداه من الكتابات التى تستهدف اكمال المعرفة أو ارضاء العقل : فهذا النوع الأخير من الكتابات يحمل معناه فى ذاته ، ويحقق أهدافه بمجرد استيعابه . أما الدستور فليس شيئا يكتب لكى يزيد من المعرفة أو يوسع أفق العقل ، وليس الموقف الصحيح الذى يتخذه المواطن ازاءه هو موقف الفهم والاستيعاب فحسب ، بل انه فى أساسه دليل للعمل ، ودعوة الى ممارسة المبادىء المتضمنة فيه . وفى ميدان الممارسة والعمل وحده يتحدد مصير الدستور ، بل يتحدد

معنى ما فيه من نصوص · ان نصوصه بطبيعتها « قصدية » (لو جاز لى أن أستخدم هذا التعبير الفلسفى مع شىء من التعديل) : فهى تتجه دائما الى ما بعدها ، وما يتجاوزها ، وتكتسب كل معناها من الفعل المترتب عليها · وهى تشير دائما الى شىء آخر غير ذاتها ، هو ميدان العمل والتطبيق ، وفى هذا الميدان وحده تظهر قيمتها الحقيقية ·

هذه الحقيقة الأساسية ، على بساطتها الشديدة ، تبدو وكأنها أمر يصعب الاعتراف به فى مجتمعنا ، ويصعب أن تستوعبه طريقتنا فى التفكير · ذلك لأن كل ما هو مكتوب هو ، فى نظرنا ، غاية فى ذاته : كلماته نهاية المطاف ، والمبادىء المتضمنة فيها غاية المنى ، أما الفعل والممارسة فآخر ما نفكر فيه · وهكذا وجدنا أنفسنا نبذل جهودا شاقة من أجل وضع أفضل النصوص ، ونستغرق أوقاتا طويلة فى مناقشة صياغة البنود ، دون أن نشغل أنفسنا بالمسألة التى هى بالفعل أم المسائل بالنسبة الى الحاكم والمحكوم ، وأعنى بها : كيف نضع هذه المبادىء والنصوص موضع التنفيذ الفعلى ، وكيف نثبت احترامنا للدستور عن طريق فهم طبيعته الحقة ، من حيث هو دعوة الى الفعل ، لا تتضح قيمتها الا فى ميدان الممارسة ؟

هذا هو التحدى الحقيقى الذى يواجه أى شعب يضع لنفسه دستورا جديدا · وهذا التحدى أعظم خطرا بكثير فى حالة شعبنا المصرى بالذات ، لأنه مسبوق بتجارب عديدة لم تكن النتائج التى أسفرت عنها تدعو الى التفاؤل الشديد · وكلما كانت التجارب السابقة سلبية ، كان التحدى الذى يواجه التجربة الجديدة أعظم ·

فلو اقتصرنا على تاريخنا القريب ، لتبين لنا بوضوح أننا لم نكن نفتقر فى وقت من الأوقات الى النصوص والمبادىء السليمة التى تضمن للمواطن حقوقه ، وتؤكد للوطن عزته وكرامته ، لقد عرفنا دساتير متعددة ، لم تكن سيئة الى حد بعيد ، أو على الأقل لم تكن من السوء بحيث تبرر الأخطاء العديدة التى ارتكبت فى حق الكرامة الانسانية · ومرت بنا من قبل مواثيق وبيانات تاريخية كانت فى ذاتها كافية لتحقيق حرية المواطن ، ولم تكن لهجتها تفتقر الى الاخلاص ، أو الى الرغبة فى الاصلاح والتقدم· هذه حقيقة لا يستطيع أحد أن يجادل فيها · ولكن الحقيقة المقابلة ــ التى لايستطيع أحد ، بالمثل ، أن يجادل فيها ــ هى أن كرامة الانسان كثيرا ما أهدرت برغم وجود المواثيق والعهود التى تؤكد ضرورة احترام الانسان · ولو لم يكن هذا الاهدار قد حدث ، لما وجدنا اليوم مسئولين كانوا كبارا حتى عهد قريب ، يقفون فى القفص متهمين بأمور منها اذلال الشعب واهدار كرامته والقضاء على أبسط حرياته ·

النتيجة الوحيدة التى تفرض نفسها على عقولنا من هذه الحقيقة البسيطة هى أن مشكلتنا الكبرى تنحصر فى نقل البنود والنصوص، التى تتضمنها مواثيقنا الدستورية الى أفعال حقيقية ، وفى تحويل المبادىء الرفيعة التى لم نكن نفتقر اليها ــ نظريا ــ فى وقت من الأوقات ، الى سلوك فعلى ، وجعلها جزءا من كياننا ومن أسلوبنا فى العمل ، والدفاع عنها بكل قوانا ضد أية محاولة للتعدى عليها ، بحيث نكون على ثقة من أننا حين نقوم بهذا الدفاع ، فنحن انما نمارس حقا مشروعا ، ولسنا معتدين ولا آثمين ·

تلك هى المشكلة الكبرى التى تواجهنا ازاء دستورنا الجديد · وأحسب أننا لو تعلمنا كيف نمارس المبادىء التى نضعها لأنفسنا ، وكيف نحميها من الاعتداء ، وكيف نتمسك بما تكفله لنا من حقوق ، وندافع عنها ضد أية محاولة للعدوان ، مهما صغرت أو كبرت ، فاننا سنصبح عندئذ ــ وعندئذ فقط ــ جديرين بأن يكون لنا دستور دائم ·

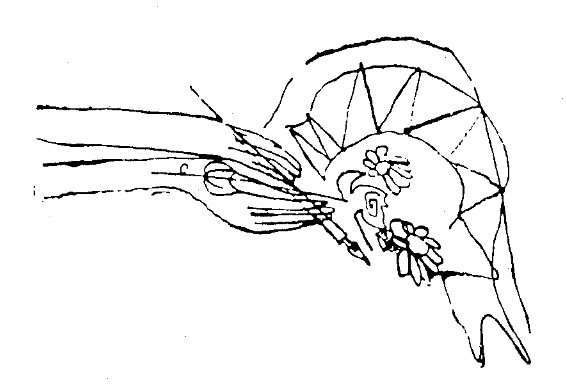
ذلك لأننا لوشئنا الدقة لقلنا ان الدستور لا « يكون » دائما منذ البداية ، بل « يصبح » دائما عندما يتمسك به المجتمع ويحرص عليه • وليس ما يجعل الدستور دائما هو بنوده ونصوصه ، بقدر ماهو اصرار المجتمع على ممارسته والتمسك ـ فى ميدان السلوك العملى ـ بما يتضمنه من حقوق وواجبات • وبعبارة أخرى فان ما وافقنا عليه هو دستور نريده أن يكون دائما ، ولكن طريقتنا فى الممارسة هى وحدها التى يمكنها أن تضفى عليه صفة الدوام ، وهى وحدها الكفيلة بأن تنقل ما هو حتى الآن فى نطاق النوايا الطيبة ، الى واقع متحقق •

***

والحق أننا لو تأملنا تجارب المجتمعات الأخرى فى هذا الميدان لتبين لنا بوضوح قاطع مدى صدق القضية التى عرضناها فى السطور السابقة • فمن المعلومات الأولية فى كل دراسة للتاريخ السياسى ولنشأة المبادىء الدستورية ، أن وثيقة « العهد الأعظم (الماجنا كارتا) » الانجليزية كانت أول وثيقة دستورية تكفل حقوقا أساسية للانسان • وعلى الرغم من أن هذه الوثيقة قد صدرت فى أوائل القرن الثالث عشر، فقد ظلت منذ ذلك الحين تعد أساسا للحريات الدستورية ، مع أن بعض نصوصها كانت تنصب على حماية حقوق النبلاء الاقطاعيين من استبداد الملك • فما الذى أضفى على هذه الوثيقة كل هذه الأهمية ، وجعلها نقطة تحول عالمية نحو اقرار حقوق أساسية للانسان ؟ لاجدال فى أن الفضل فى ذلك لايرجع الى نصوصها ، وانما الى طريقة الالتزام بها فى الأجيال التالية • فقد تمسكت بها هذه الأجيال بوصفها ضمانا شرعيا لحقوقها ، وأخذ المشرعون يقدمون تفسيرات مفصلة لها فى ضوء المواقف المتجددة ، وأصبحت الوثيقة ، بالممارسة ، أساسا قانونيا لحقوق الانسان فى أول بلد عرف مبدأ الدستور فى العالم •

هذا التاريخ المجيد الذى اكتسبته تلك الوثيقة ، يرجع أولا ، وقبل كل شىء ، الى أنها أصبحت تكون جزءا لا يتجزأ من تراث راسخ • فلم تكن نصوصها مصدر قوتها على الاطلاق ، ومن المؤكد أنه كانت هناك مواثيق أسبق منها ، وأفضل منها نصوصا ، ولكنها طويت فى زوايا النسيان ، لأنها لم تتوطد بالممارسة ، ولم تصبح جزءا من أسلوب حياة المجتمع الذى ظهرت فيه • هذه المواثيق التى لا تمارس لا تعدو ان تكون كتابات تعبر ـ على أحسن الفروض ـ عن نوايا حسنة ، أو آمال بعيدة عن التحقق ، أو مواعظ بليغة ، ولا وجه للمقارنة بينها وبين وثيقة أبسط منها ، وضعت لكى تمارس ، وزادتها الممارسة رسوخا بمضى الأيام •

وليس معنى ذلك ان الممارسة تؤدى ، تلقائيا ، الى تطبيق كل ما تنص عليه المواثيق الدستورية • فلم تكن « الماجناكارتا » نهاية لعهد استبداد الملوك ، بل ان تاريخ انجلترا شـهد مظـالم كثيرة بعدصدورها • ولكن قيمة الممارسة تتجلى فى أن هذه الوثيقة ، عندما كانت تخالف ، كانت تؤدى الى قيام ثورات أو سقوط حكومات ، أو على الأقل كانت تدفع أفرادا كثيرين الى مقاومة الاستبداد، مهتدين فى ذلك بمبادئها• ومثل هذا يقال عن وثيقة حقوق الانسان التى كانت من أعظم ثمار الثورة الفرنسية : فلن يستطيع أحد أن يزعم أن هذه الوثيقة ضمنت للانسان حقوقه على نحو لارجعة فيه ، بل ان فرنسا ذاتها شهدت عهود استبداد طويلة بعد ظهورها • ولكن أهم مافى الأمر أن الوثيقة أصبحت جزءا من حياة الشعب ، ومقياسا يحدد على أساسه موقف الحكومات المتعاقبة ، ومبدأ راسخا من مبادىء الضمير الذى تبنى عليه الأمة سلوكها • ومن هنا فان الوثيقة ، اذا لم تكن قد فرضت نفسها على مسلك الحكومات ، فقد كانت هى القوة الدافعة من وراء كل تحركات الشعب وثوراته ، ومازالت حتى اليوم مصدر الهام لكل نضال فى سبيل الحقوق المشروعة للانسان •



وهكذا تشهد تجربة الشعوب التى خاضت من قبلنا كفاحا فى سبيل حياة دستورية سليمة ، أن الوثائق الدستورية تتحدد قيمتها على مر الأزمان ، من خلال مراعاة الحاكمين لها ، وتمسك المحكومين بها ، ولا توجد وثيقة منها تحمل معها ، منذ مولدها ، دليل امتيازها ، لأنها لا تزيد فى بداية أمرها عن أن تكون اعلانا لنوايا طيبة فحسب ٠ ولقد بالغت بعض الشعوب ، ذات التقاليد الدستورية الراسخة ، فى التمسك بالمبادىء المنصوص عليها فى مواثيقها الى حد كان يجلب عليها فى بعض الاحيان سخرية الآخرين : كما هى الحال ، على سبيل المثال ، فى مراسيم حفلات افتتاح البرلمان الانجليزى ، حيث يسبق الجميع فى الدخول حارس يحمل بيده مصباحا زيتيا (وهو تقليد موروث من الأيام الغابرة التى كان الحراس يفتشون فيها القاعة بالمصابيح قبل دخول الملك ، خوفا من وجود أعداء له مختفين فيها) ٠ وقد يبدو للنظرة السطحية أن هذا التمسك من قبيل الجمود المفرط ، وربما كان فيه بالفعل شىء من ذلك ٠ ولكن من يسلكون على هذا النحو ليسوا بلهاء ، وليسوا غافلين عما يمثله سلوكهم هذا من مفارقة فى العصر الحاضر ، وكل مافى الأمر أنهم يفضلون التمسك المفرط بالتقاليد على التفريط فى أبسط مبدأ من مبادئها ، ويعلنون بذلك عن اصرارهم على صون دستورهم ، حتى فى أتفه تفاصيله ، ويؤكدون أهمية الممارسة المستمرة ، المتواصلة لمبادىء الدستور وروحه ٠

***

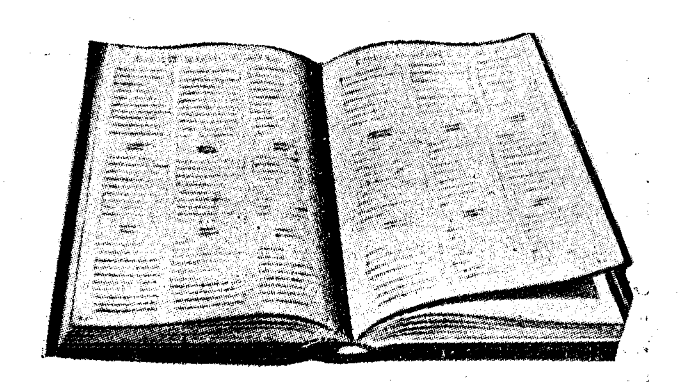
هذه التجربة التى مرت بها شعوب لها تجارب دستورية عريقة ــ مادلالتها بالنسبة الينا ؟ ان الدلالة الواضحة هى أن مرحلة وضع الدستور لا تمثل الا البداية والمنطق ، وأن أهم المراحل هى تلك التى ستبدأ ، لا تلك التى انتهت ٠ بل ان مرحلة الممارسة هى التى ستحدد ما اذا كنا قد وضعنا دستورا ، على الاطلاق ، أم لا ٠

والحق أن فى شخصيتنا القومية عناصر معينة تزيد من تعقيد هذه المشكلة فى بلادنا بالذات ٠ ولعل وجود هذه العناصر هو السبب الذى دفعنى الى خوض هذا الموضوع بأسره ، اذ كانت القضية التى أود أن أطرحها هى أنه اذا كانت مرحلة الممارسة بطبيعتها أصعب فى كل بلد يضع لنفسه دستورا ، فان الصعوبة فى حالتنا

نحن بالذات تتضاعف نتيجة لعوامل خاصة تعمل على زيادةتوسيع الهوة بين وضع النص وبين ممارسته ٠

ان للكلمة عندنا سحرا خاصا ، وقدرة عجيبة على التأثير تدفعنا الى الاكتفاء بها ، وتغنينا عن بذل الجهد من أجل اخراجها الى حيز الفعل ٠ فنحن لا نحب الكلمة فحسب ، وانما نستعيض بها عن الفعل الذى لم تظهر هذه الكلمة أصلا الا لكى تدعو الى ممارسته ٠ ففى أشد المواقف جدية ، وأحوجها الى العمل الصـــامت ، نتخذ من الخطبة البليغه أو القصـــيدة العصماء أو الأغنيه الحماسية بديلا عن الفعل ، ونشعر ازاء هذه الكلمات البديلة بنفس الرضا الذى يجلبه انجاز العمل الفعلى ٠ وهذه الصفة الأخيرة هى التى تدعو حقا الى العجب ٠ذلك لأن أسلوب التعويض أسلوب مألوف، يشيع اللجوء اليه فى اوقات العجز والشعوربقلة الحيلة ، ولكن الأمر النادر بحق ، والذى يثير أقصى قدر من الدهشة ، هو أن يترتب على هذا الهروب الى مجال الكلام بدلا من مجال الفعل رضاء حقيقى ، واحســـاس تام براحة البال ، وبأن كل ماهو مطلوب قد تم انجازه ٠ فحين تسلب الكلمة وظيفة الفعل الى هذا الحد ، يكون هنـــاك خطر حقيقى من أن نظل عاجزين عن تحويل نصوص مبادئنا الى سلوك عملى ملموس ، ويكون هناك خطر أفدح من أن نظل عاجزين عن ادراك عجزنا الأول ادراكا واعيا ، ومن ثم نظل راضين قانعين متوهمين أن كل شىء قد تم انجازه ، مادامت « الكلمة » فى متناول أيدينا ٠

ولعل فى موقفنا من التراث الدينى ما يلقى ضوءا واضحا على هذه الصفة الفريدة فينا ٠ فالتراث عندنا هو ، قبل كل شىء ، نص مقدس ، يتحدد مقدار ايمان الفرد بمدى رجوعه الى حرفيته ٠ فاذا ترتب على هذا النص سلوك ، فلابد أن يكون ذلك سلوكا « متراجعا » أو « ارتداديا » الى النص ، الذى هو فى كل الأحوال أصـــل أساسى ثابت ٠ ولقد كانت هناك حضارات أخرى كانت فيها النصوص المقدسة نقطة بداية ، لا نقطة نهاية ، بحيث كان السلوك المترتب عليها « متقدما » الى آفاق تزداد على الدوام اتساعا ، وابتعادا عن الأصل ٠ غير أن موقفنا من النص الدينى لا ينطوى على اعتراف بمبدأ التوسع المتزايد ، المتباعد عن الأصل ٠ فنحن نرى النص مقدســـا فى ذاته ، بغض النظر عن طريقة تأثيره فى سلوكنا ، وعن نوع الفعل الذى يدعونا الى القيام به ٠



ولو شئنا الدقة لقلنا ان ما يجعل النص مقدسا هو السلوك المترتب عليه • فالقداسة هي ، بمعنى معين ، كامنة في الانسان ، في سلوكه وأساليب ممارسته ، أما النص في ذاته فهو أصوات أو خطوط على الورق • ولكنا نتوهم دائما أن النص ينبغي أن يظل مقدسا في ذاته ، على نحو منفصل عن سلوكنا ، فنجعله بذلك أشبه بتميمه أو تعويذة ، ونحيله الى شيء جامد ، ونعتمد على بركته الذاتيه ، لا على قدرته على تغيير طريقة حياتنا • اننا ، بالاختصار ، نظن أن الهدف قد تحقق مادام النص « هناك » ، ونغض الطرف تماما عن ضرورة اتخاذنا هذا النص هاديا لنا في العمل • وقد يصل بنا الامر الى حد تعليق أجزاء منه بوصفها « حجابا » يحمي آلاتنا الصماء ، أو الاصرار على سماعه مرتلا بصوت عال في متجر لا يكف صاحبه عن سرقة زبائنه طوال يومه •

هذا الموقف الذي نتخذه من النص الديني ، ينعكس على موقفنا من كل نص سياسي يظهر في أية مرحلة حاسمه من مراحل تاريخنا • فكل ما نريده هو ان يكون النص ((هناك)) ، بغض النظر عن نوع السلوك الذي يمكننا أن نستخلصه منه • ولعلنا جميعا قد شهدنا مدى حرص فئات عديدة من الشعب ، خلال المناقشات التي سبقت صياغة الدستور نهائيا ، على أن يتضمن الدستور كل التفاصيل ، ويحل جميع مشاكلها الخاصة ، حتى كانت قاعات المناقشة تتحول أحيانا الى أن تكون ساحات لعرض مظالم محدودة المدى يريد أصحابها أن ينص دستور الدولة على ايجاد حلول حاسمة لها • تلك بطبيعة الحال ظاهرة مأساوية تنم عن مدى احساس فئات كثيرة بالظلم المتراكم ، ولكن الأهم من ذلك أن تلك الفئات تريد ورقة مكتوبة ، أو نصا مدونا يحتوي كل شيء ، ويضمن لها كل شيء • ذلك لأن الممارسة غير مضمونة العواقب ، ومن هنا فلابد أن تكون التفاصيل كلها مسجلة •

هذه الثقة المفقودة في قدرة الممارسة على أن تخرج النص الى حيز الوجود الفعلي لابد لها أن تستعاد اذا شئنا أن تكون لنا حياة دستورية بالمعنى الصحيح • فالنص الدستوري لا يعدو أن يكون مبدأ عاما تضفي عليه الممارسة مضمونة • وهو في ذاته مجرد ألفاظ تنطق أو حروف تسطر • ولو اعتقدنا أن وضع النص يعني نهاية المطاف ، ويؤدي الى حل كل المشكلات ، لكنا بذلك نتخذ منه تعويذة أو حجابا لا يجدينا في عالم الكفاح والنضال شيئا •

لقد كان شعار العالم القديم ، عالم السلطة التي تفرض ذاتها ، دون مناقشة ، على عقول الناس ، هو « في البدء كان الكلمة » • وكان شعار العالم الحديث ، عالم النضال الايجابي من أجل تغيير العالم هو : « في البدء كان الفعل » • واذا لم نكن نملك أن نتخذ من الفعل نقطة بدء لنا في سعينا الى تغيير حياتنا ، فلا اقل من أن نبدأ بالكلمة التي تدفع الى الفعل ، ونطرح جانبا كل كلمة جامدة ، نتوهم أنها مكتفية بذاتها ، وأنها في غنى عن أن تتحول الى ممارسه عمليه • فحين تتجسد كلمات مواثيقنا في أفعال ، يحق لنا عندئذ ـ وعندئذ فقط ـ أن نقول اننا جديرون بدستور يستحق صفة الدوام •

رئيس التحرير

جورج لوكاتش والتاريخ والوعى الطبقى

لطفى فطيم

كانت فيينا عند مطلع هذا القرن مسرحا للتضارب والصراع بين تيارات فكرية قوية وعميقة ، الأمر الذى جعل منها لفترة قصيرة العاصمة الفكرية لأوروبا الوسطى . ونحن اذ نتناول كتاب لوكاتش الرئيسى وأول أعماله الأساسية فى النظرية الماركسية ـ التاريخ والوعى الطبقى ـ انما ندخل قلب تلك المعمعة . لقد نشأ فىفيينا فى وقت واحد معاصر لظهور كتاب لوكاتش مدرستان فكريتان كبيرتان هما الوضعية المنطقية والتحليل النفسى ، والشىء الجدير بالذكر أن لوكاتش لم يتأثر بأى منهما ، وان كان قد وصف «التحليل النفسى» فيما بعد بأنه « لا عقلى » ، وهو رأى لم يكن يشاركه فيه كبار المفكرين الماركسيين فى ذلك الوقت خاصة مدرسة فرانكفورت التى ظهرت فى الثلاثينات . أما فيما يتعلق بالوضعية المنطقية فان لوكاتش العائد الى هيجل لم يكن يرى فيها الا نتيجة حتمية للجمود الذى انتاب المدرسة الكانطية الجديدة ، تلك المدرسة التى سبق أن نفر منها عام ١٩١٤ . ومن المفارقات التاريخية والثقافية الغريبة أن كتاب « التاريخ والوعى الطبقى » (١٩٢٣) يكاد يقارب تاريخ ظهوره نفس تاريخ نشر كتاب لودفيج فتجنشتين «تراكتاتوس» (١٩٢٢) ونبعت شهرة المؤلف فى كلتا الحالتين من خروجه على الأرثوذكسية فى مجاله ، كما أن كلا المؤلفين اضطرا فيما بعد الى استنكار كتابه الذى ألهب العقول فى وقته . الا أن المشابهة تقف عند هذا الحد . فمع أن الاثنين ـ فتجنشتين ولوكاتش ـ تربيا فى ظل امبراطورية هابسبورج المحتضرة وتأثرا بتيار الاندثار الكامن فى حضارة غاربة الا أنهما كانا على طرفى نقيض فى كل شىء حتى الشخصية ، فلا يمكن تصور شخصيتين مختلفتين بقدر اختلاف لوكاتش عن فتجنشتين .

ويستمد كتاب التاريخ والوعى الطبقى قيمته الباقية من الطريقة التى استعاد بها لوكاتش البعد الهيجلى فى فكر ماركس . أما الأثر المدوى الذى أحدثه فى صفوف الحركة الشيوعية فيرجع الى ظروف تاريخية معينة .

ذلك أن الحركة الشيوعية كانت قد بدأت فى ذلك الوقت تقريبا المهمة الصعبة التى أصبح عليها أن تقوم بها وهى « بلشفة » فروعها وأقسامها فى القارة الأوروبية ، أى تحويل ذلك الجيش المتنافر من دعاة السلام والنقابيين والفوضويين السابقين وزعماء الأحزاب الاشتراكية الديموقراطية ومختلف أنواع اليساريين ، تحويل كل أولئك الى«لينينيين» منظمين . ولذلك كان موقف « البلاشفة » من أى



فكر يحرف أو يعرقل مهمتهم موقفا حادا جدا ..
وذلك أمر مفهوم بالطبع ، فلكى تسود اللينينية اتهم البلاشفة « بالمراجعة » أى فكر أوروبى غربى فى الشيوعية خاصة اذا كان ذلك الفكر يحمله أساتذة لهم وزنهم مثل لوكاتش أو أستاذ الفلسفة الألمانى كارل كورش أو الماركسى الايطالى أنطونيو جرازيادى . ونحن اليوم نستطيع فهم دوافع أولئك الذين انهالوا بالنقد على لوكاتش . لقد كانت الماركسيه — اللينينية تقف على قدمها فى مواجهة هجوم عنيف من الأعداء ومن مختلف أنواع « الأصدقاء » من الاشتراكيين السابقين ، ولم يكن لدى البلشفية أى استعداد لتقديم أى تنازل ، وكانت الدولة السوفيتية الناشئة تريد تربية جيل جديد بآراء لينين ومفهوماته ولم يكن لديها وقت أو امكان للدخول فى مناقشات فلسفية .

ولكننا اليوم وبعد مرور مايقرب من نصف القرن نستطيع أن ننظر بشىء من اتساع الأفق فيما قدمه لوكاتش وغيره . فالماركسية التى لم تكن يوما عقيدة جامدة لدرجة أن ماركس قال عن نفسه « أننى لست ماركسيا » — يقصد أن باب الاجتهاد لم يقفل — نستطيع أن تنظر بفهم الى القضايا التى أثارها لوكاتش أو التى يثيرها اليوم جارودى أو ماركيوز أو غيرهم .

انبرى المدافعون عن تراث لينين للهجوم على لوكاتش مقدرين أنهم لو سمحوا لأى « انحراف » بالظهور فالله أعلم بما سيصير اليه أمر هؤلاء الملتفين حولهم ممن لم يتم « بلشفتهم » . وهكذا أصبح الهجوم على لوكاتش فى مجال الفلسفة الشغل الشاغل للفلاسفة السوفييت أمثال ديبورين ولوبول وباسل . بل ودخل المعمعة أيضا بعض القادة السياسيين . ففى المؤتمر الخامس للكومنترن الذى عقد فى موسكو فى يونيو ١٩٢٤ أشار بوخارين — الذى أصبح منذ وفاة لينين المتكلم باسم الحزب فى مسائل النظرية والفلسفة — اشارة قصيرة الى « النكوص المؤسف الى الهيجلية لدى البعض » ، بينما انبرى زينوفييف — ولم يكن فى رأى البعض له من المواهب ما يؤهله للمكانة الكبيرة التى يمثلها فى الحزب — ليصب جام غضبه على غلاة اليساريين الذين كانوا « مراجعين » أيضا بمعنى ما ، كما سخر من « الأساتذة » مثل كورش ولوكاتش وجرازيادى وأعلن أنه لم يعد فى الامكان « احتمالهم » أو الصبر على انحرافاتهم .

ومما زاد الطين بلة أن لوكاتش فى كتابه أقام نوعا من الصلة المفتعلة بين لينين وروزا لوكسمبورج
وكانت روزا ينظر اليها عندئذ كقديسة ثوريه اثر قتلها بيد الضباط الألمان فى يناير ١٩١٩ ، ولكنها كانت أيضا حليفة سابقة « للمنشفيك » وناقدة لبعض الأساليب النظرية والعملية لدى « البلشفيك » . وعلى أى حال فلم تكن « اللوكسمبورجية » فى عام ١٩٤٢ ينظر اليها بعد على أنها هرطقة وزندقة . كما لم تكن التروتسكية قد أطلت برأسها بعد . (ومما يذكر أن لوكاتش لم يبد تعاطفا مع التروتسكية قط) . الا أن اتجاها يساريا متطرفا كان يوجد بالفعل بين الشيوعيين فى الغرب لدى أولئك الذين ينتمون الى أصل نقابى والذين لم يكن يروقهم أن تكون مجالس العمال مجرد منفذة لتوجيهات الحزب .. ولقد كان تطور لوكاتش الذهنى والثقافى ابتداء من الفوضوية النقابية عند زابو (انظر مقالنا السابق — العدد ٧٨) الى الاشتراكية الثورية عند روزا لوكسمبورج ثم الى اللينينية بعد ذلك يجعله شخصية لها خطرها وتأثيرها ، لذلك لم ينظر المفكرون السوفييت الى كتابه بعين الرضا رغم كل النصوص اللينينية التى استند اليها .

يقع الكتاب « صاحب هذه الضجة » فى ٣٨٠ صفحة فى طبعته الفرنسية(١) التى تحمل نفس

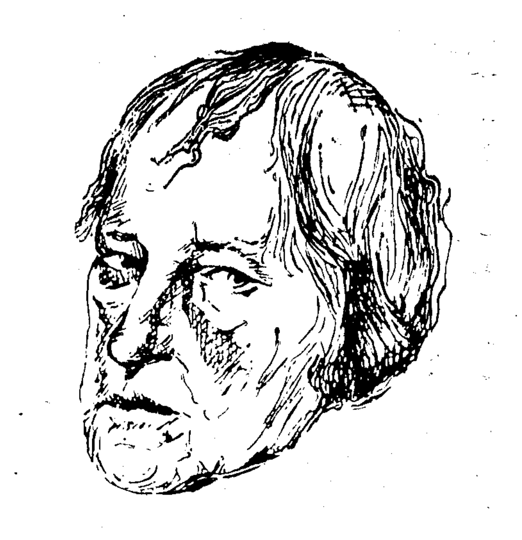
المقدمة التي كتبها لوكاتش عام ١٩٢٢ وبه ثمان مقالات منها دراسة رئيسية فى ١٤٠ صفحة بعنوان « التشيؤ(٢) والوعى لدى البروليتاريا » وتقع فى ثلاثة أجزاء ، عناوينها هى : ظاهرة التشيؤ ، تناقضات الفكر البورجوازى ، الوعى لدى البروليتاريا · أما بقية المقالات فتتراوح أحجامها بين عشر صفحات وأربعين صفحة ، وهى : ما هى الماركسية الأرثوذكسية ؟ ـ ماركسية روزا لوكسمبورج ـ الوعى الطبقى ـ تغير وظيفة المادية التاريخية ـ الشرعيه واللاشرعية ـ ملاحظات نقدية حول نقد روزا لوكسمبورج للثورة الروسية ـ ملاحظات منهجية حول مسألة التنظيم · ويقول لوكاتش فى مقدمته أن تجميع هذه المقالات يجعل للكتاب اهمية تفوق أهمية كل مقالة على حدة ··· وأنه يعتقد أنه من الأمور ذات الأهمية العملية اليوم أن نعود ـ فيما يتعلق بهيجل ـ الى تقاليد تفسير ماركس التى وضعها انجلز وبليخانوف ، وأنه يجب على كل الماركسيين الشرفاء « أن يكونوا نوعا من جمعية أصدقاء المادية والديالكتيك الهيجلى » كما قال لينين ·

على أن الكتاب اذا نظرنا اليه بعيدا عن « الانحرافات السياسية » **نجد أن المقالات النظرية تكاد تكون موجهة الى فئة قليلة من المثقفين ، كما أنها اليوم تكاد أن تعتبر ذات قيمة تاريخية فحسب · أما المساهمة الأصيلة فتنحصر فى دراسته الرئيسية « التشيؤ والوعى لدى البروليتاريا »** · ولا يستلفت نظرنا فى المقالات الأخرى الا النقد الذى وجهه الى تناول أنجلز لبعض التصورات المنطقية والمعرفية ، اذ أن تناول هذا الموضوع الشائك يتطرق مباشرة الى اللينينية كفلسفة وذلك الى الحد الذى اعتمدت فيه « المادية والنقد التجريبى » ـ كتاب لينين الأساسى فى الفلسفة ـ على المادية الجدلية التى قدمها أنجلز · وقد كاد اعتماد لينين على تصورات أنجلز راجعا الى تقدير بليخانوف ـ أبى الماركسيين الروس ـ لها ، وكان لينين يجل المقدرة النظرية لبليخانوف اجلالا كبيرا · فالماركسية السوفيتية ترجع جذورها فى الحقيقة الى بليخانوف ولينين ، وكان الاثنان يعتمدان على تقنين أنجلز لأفكار ماركس ·

لذلك فانه عندما ظهر تفسير لوكاتش الأصيل والجديد لماركس ملقيا بعض الشك حول فهم أنجلز لكانط وهيجل ، ثارت ثائرة الماركسيين الأرثوذكس فى وسط أوروبا والاتحاد السوفييتى · وكان الأمر كذلك بالنسبة لكتاب كورش « الماركسية والفلسفة » الذى وصف المادية عموما والمادية الجدلية خصوصا بأنها محاولة ساذجة للعودة الى موقف « قبل كانطى » · ولكن كورش قد ذهب فى « مراجعته » الى حد يفوق بكثير ما ذهب اليه لوكاتش · لقد كان لوكاتش وكورش ومن لف لفهما يعتبران الماركسية ـ كما قرر أنجلز فى كتابه الرائع عن فيورباخ فى ١٨٨٨ ـ وريثة الفلسفة الكلاسيكية الألمانية · ولذلك فان ليس من حق الماركسيين أن يتراجعوا الى موقف « قبل نقدى » أى قبل التفكير النقدى لدى كانط · وفى رأى لوكاتش أن انجلز قد تراجع فى بعض مواقف متفرقة الى مثل هذا الموقف ، بينما اعتبر أن من حقه ـ وهو الذى تربى فى هيدلبرج وهضم تعاليم كانط وهيجل ـ أن يصحح أنجلز · ويحمل كتابه « التاريخى والوعى الطبقى » عنوانا فرعيا هو « دراسه فى الديالكتيك الماركسى » وهى أشارة لها معناها فيما يتعلق بموقفه من المادية · ولم يكتف لوكاتش بالتساؤل عن فهم أنجلز لكانط وهيجل وانما وصف مادية عصر التنوير بأنها « الشكل الأيديولوجى للثورة البورجوازية » ·

ولكى نفهم مدى « هرطقة » تلك الفكرة يجب أن نستعيد العلاقة بين الثورة الفرنسية والثورة الروسية · لقد كانت رؤية لينين للعالم تعتمد أساسا على تمثل مادية القرن الثامن عشر الفرنسية التى كانت الماركسية فى رأيه صورتها المتطورة · ويتضح ذلك بجلاء فى اعتماد لينين على أفكار ديدرو · واشارته الى مادية القرن الثامن عشر الفرنسية فى كتابه المادية والنقد التجريبى ·· وعندما قام لينين بدراسة « المنطق » لهيجل دراسة متعمقة ـ انظر الجزء ٣٨ من المؤلفات الكاملة الطبعة الانجليزية موسكو ـ فيما يسمى بكراسات لينين الفلسفية الذى نشر لأول مرة عام ١٩٣٢ مدح منطق هيجل الا أنه تجاوز عن تعارض « منطق » هيجل مع المادية · أما كانط فقد كان « ملعونا » بالنسبة له اذ كان تعليق أنجلز السريع عنه فى « لودفيج فيورباخ » كافيا لأن يجعله لا يأخذ كانط أيضا مأخذ الجد ·

واذا كان لوكاتش عام ١٩٢٣ قد اهتم بأن يدرك الماركسيون النقاط الايجابية لدى كانط فان جارودى فى عام ١٩٦٦ اهتم هو الآخر بأن يدرك الماركسيون النقاط الايجابية لدى فيخته مستندا الى نفس المنطق الذى استند اليه لوكاتش · فقد رأى أن دعوة فيخته ظهرت فى لحظة من التاريخ كانت تشهد انهيار القيم التقليدية الاقطاعية ، لحظة طرحت فيها عدم معقولية النظام الكائن وافلاس الأيمان واشتداد الصراع بين الوعى وبين



الطاعة ، وهو وضع يفسر الاشادة بأهمية الفرد واستقلاله الجذرى ، وبالقيمة العليا التى أضفيت على الحرية بوصفها أماً لكل القيم . وكان فيختـه هـو الفيلسوف الوحيد الذى اعتبرته الثورة فيلسوفا واقعيا وكانت النقطة الأولى فى فلسفته هى التأكيد على « الأنـا » ، وكانت تلك أول مرة فى تاريخ الفلسفة تطرح فيهـا فكرة أولوية الماهية على الوجود فالانسان فيها ليس التعبير عن ماهية محددة سـلفا وانما هو الذى تخلقه فاعليته الحرة ، وكل انسان انما يصنع نفسه بنفسه . ولما كانت فلسـفة فيخته هى الينبوع الاول للوجودية فقد رأى جارودى أنه اذا تعلم الماركسيون كيف يستوعبون من جديد نظرية الذاتية فى الفكر الوجودى عند فيخته واذا ارتضى وجوديو اليوم ألا يبتروا من وجودية فيخته بعدين رئيسيين هما البعد العقلانى والبعد الاجتماعى فان حوارا من أخصب ما يمكن سوف يدور حول فهم جديد للأخلاق والعلاقة بين الذات والموضوع .

ولنعد الى لوكاتش . **لقد كان ذلك الفيلسوف الذى مر بالخبرة العميقة بفلسـفة الكانطية الجديدة قبل التحول الى هيجل يجد نفسه فى موقف أكثـر اسـتيعابا لكانط وفيخته . ولم يدرك وقتها — أو أدرك والله أعلم — أنه بذلك ينقد رؤية لينين للعالم . فقد كان كانط بالنسبة للينين وغيره من الماركسـيين خطرا داهمـا اذ كانت « لا أدريته » فيما يتعلق بوجود « عالم حقيقى » مسـتقل عن العقل تفتح بابا خلفيا للأيمانية وللدين . فاذا لم يكن العقل يصـور الواقع كما هو حقيقة ، واذا كان هناك شئ غير قابل للمعرفة — الشيىء فى ذاته — ألا يدعو هذا لتدعيم المثاليين الذين يقولون بأن العلم التجريبى هو « وهم لابد منه » ؟ وألا يفتح ذلك الباب أمام اللاهوت ؟ .**

الا أن نقد لوكاتش كان نقدا مغرضا . فهو قد ذهب فى مجال الالتقاء مع كانط الى حد جعله يغفل ما قاله لينين من أن دور الوعى ليس سلبيا وانما هو يضيف من عنده شيئا ، اذ يقول فى المادية والنقد التجريبى « ان وعى الانسـان لا يعكس العالم الموضـوعى فحسب وانما يخلقه أيضـا » ونقصـد هنا أن لينين لم يغفل الدور الفاعل « للذات » أو « العقل » أو « الانا » أو ما شئت من المسميات التى تغرم بها الفلسفة المثالية الألمانية غراما يفوق الوصف . ان الفلسفة المثالية لم تستطع قط أن تتغلب على ذلك الأكبار والتقديس لهذا الشيىء الذى لا يوجد مثيل له فى الكون والذى لابد وأن يكون آتيا من حيث لا يمكن لانسان أن يصل .. انه ذلك القبس الالهى المسـمى « بالعقل » . لذلك لم تقبـل المثالية أى تنازل أمام المادية التى تنكر « القبس الالهى» وتجعل « العقل » شأنه شأن أى شيىء آخر قابلا للمعرفة ونتاجا للانسان نفسه .. ولكنها قبلت الجدلية بدرجات متفاوتة .

وكانت هـذه هى مشكلة لوكاتش الذى لم يستطع قط قبول المادية حتى نهايتها . وكانت مساهمته الأصيلة فى الماركسية هى محاولة وضع العقل فى مكانه داخل الأطار الماركسى . الا أن المسـألة لم تقف عنـد هذا الحد ، فلقد كانت المادية الجدلية عنـد لينين هى فلسـفة للطبيعة أيضا ، اذ كانت تقدم تفسيرا شـاملا للكون .. وهذا أمر طبيعى اذ كيف يمكنها أن تحل محل الأديان والمتافيزيقا المثالية ؟ وهكذا فان لوكاتش عندما أنكر أن للماركسـيـة تأثيرا على العـلوم الطبيعية فقـد كان يهاجمها فى الصـميم ، أما وصـفه للمادية بأنهـا « بورجوازية » فقد كان معناه أن كل يسارى متطرف فى أوربا يستطيع استخراج نتائج غاية فى الخطورة بشأن الطبيعة البروليتارية للثورة الروسـية .

ولقد كانت تحفظات لوكاتش بشـأن فهم أنجلز لكانط وهيـوم تنبع أيضا من موقفه غير المتمسك بالمادية حتى النهاية . فقد وقف أنجلز موقفا حازما من كانط وهيوم بشأن امكان معرفة الواقع ، اذ كان يرى أن المعرفة الشاملة للعالم

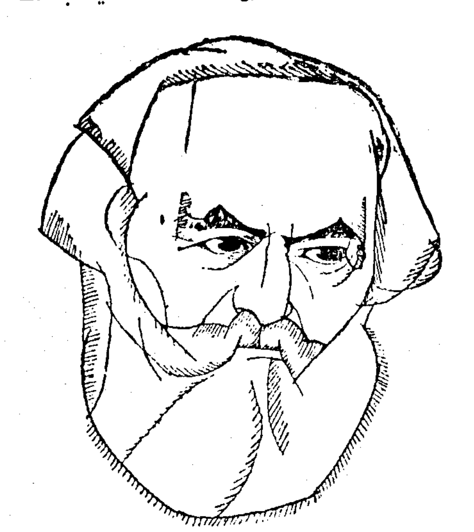
ممكنة ولجأ الى « التجربة » و « الصناعة » ليثبت صحة موقفه . الا أن لوكاتش لاحظ أن ظواهرية كانط لم تلق أى شك حول امكان تقدم المعرفة العلمية بشكل لانهائى ، انما ما أكده كانط هو أن المعرفة الشاملة الكاملة لكافة ظواهر الطبيعه المعروضة على العقل لا يمكن أن تتغلب على المأزق الفطرى فى تفكير الانسان وهو أنه يدرك العالم بمعونة جهاز عقلى يفرض أشكاله هو نفسه – وهى المقولات – على المادة الخام للتجربه . وقد تولى تقدم العلوم الرد على مقولات كانط «الخالدة» وهى الزمان والمكان . فقد أنهار تفسير العقل كما قال به كانط . لقد جعل كانط من منطق وهندسة وفيزياء زمانه أشياء مطلقة وجعل منها الأساس الأزلى غير المتغير للعقل . ولكن الثورة المعاصرة فى العلوم الطبيعية قد وضعت حدا لهذا الاطلاق فقد ارتفعت الهندسة والفيزياء والمنطق الى مراحل أعلى من التطور ، فأتت نظرية النسبية بتصورات جديدة للزمان والمكان والمادة والحركة وهى تصورات تكافؤ الكتله والطاقة ، ومتصل الزمان – المكان ، والتآنى النسبى ، وانكماش طول الجسم المتحرك فى اتجاه حركته . وقد بين اكتشاف هذه التصورات الجديدة أن المقولات الأكثر عمومية قصور مقالات كانط وعدم أزليتها مما دعى الى تغيير قوانين أو أشكال التفكير .

لقد رأى لوكاتش أن أنجلز لم يتبع هيجل فى طريقه المؤدى الى العقلانية المثاليه الاغريقيه . وهى العقلانيه التى تعطى العقل وحده القدره على فهم الطبيعة الحقيقيه للواقع أى منح العقل ذلك القبس الالهى (اياه) . ورأى أيضا أنه دون اتباع هذا الطريق لا يكون أمامنا سوى ظواهريه كانط أو وضعيه العلوم الطبيعية والاجتماعيه . ومن المعروف أن كافة الفلاسفة المثاليين المحدثين من الوجوديين والفنومنولوجيين اتهموا أنجلز بالوضعيه لنفس السبب الذى اتهمه لوكاتش من أجله بالوضعية ، ذلك أنه لم يعط «للعقل» حقه من التبجيل .

والوضعية من وجهة النظر الماركسية – هى اتجاه مثالى ذاتى شائع فى الفلسفه فيما بين منتصف القرن التاسع عشر والعشرين . وهى تنكر أن الفلسفة نظرة عالمية شامله وترفض المشاكل التقليدية للفلسفة كالعلاقة بين الوعى والوجود .. الخ باعتبارها ميتافيزيقا وغير قابلة للتثبت منها بواسطة التجربه . وتحاول الوضعية خلق منهج أو « منطق للعلوم » يتخطى التناقض بين المادية والمثاليه ، وأحد قواعدها الأساسية هى الظواهرية المتطرفة التى يكون العلم وفقا لها هو الوصف البحت للوقائع وليس تفسيرها .

ولقد أسس المذهب الوضعى أوجست كونت الذى قال بأن **الفكر الانسانى لا يدرك سوى الظواهر الواقعة المحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين ، وأن المثل الأعلى لليقين يتحقق فى العلوم التجريبية ، وأنه من ثم يجب العدول عن كل بحث فى العلل والغايات** . ويطلق اسم الوضعية على كل مذهب يقرر أن المعرفة الحقة هى معرفة الوقائع وأن اليقين قائم فى العلوم التجريبية وأن الخطأ ينشأ مما هو قبلى وأن الحق هو ثمرة التجربه .

وقد مرت الوضعية بثلاث مراحل ، الأولى هى المرحلة التى كان أبطالها كونت ولافيت فى فرنسا وجون ستيوارت ميل وسبنسر فى انجلترا، وكان مركز اهتمام تلك الوضعيه هو علم الاجتماع بقصد اثبات الطبيعة الأبدية للمجتمع الذى كانوا يعيشون فيه (الرأسمالية) . هذا من ناحيه ومن ناحيه أخرى عالجت نظرية المعرفة والمنطق على أساس من الظواهريه والتجريبية المتطرفه . أما المرحله الثانية فهى مرحلة النقدية التجريبية وأبطالها ماخ وأفيناريوس وقد رفضت حتى الاعتراف الشكلى بالأشياء الموجودة موضوعيا الأمر الذى سبق أن اعترفت به الوضعية الأولى . فالمعرفه عندها ذاتية بحتة .





أما الوضعية الثالثة فترتبط بما يعرف بحلقة فيينا وأبطالها نيوراث وكارناب وغيرهم وكذلك جمعيه برلين للفلسفة العلمية (ريشنباخ وكراوس وغيرهم) وتجمع بين عدة اتجاهات كالذريه المنطقية والسيمانطيقا • ومركز اهتمام هذه الوضعية هو المشاكل الفلسفية للغة والمنطق الرمزى • وقد رفضت النزعة السيكولوجية واتخذت سبيل التوفيق بين منطق العلوم والرياضيات •

وقد قصدت من هذه الاشارة الموجزة للوضعية أن أبين مدى خطأ الذين يتهمون أنجلز – وماركس أيضا أحيانا – بالوضعية أى باغفال الدور الخلاق للذات واعتبار الواقع الملموس العيانى هو الحد النهائى الأمثل للمعرفة • فلاشك أن الماركسية هى الفلسفة التى استطاعت وحدها الربط بين الدور الخلاق للذات والواقع التجريبى •• ولهذا حديث آخر • المهم أن لوكاتش لم يقف عند حد اتهام أنجلز بالوضعية بل تناول أيضا مفهوم المادية • فلكلمة المادية معنيان ، فهى عند أنجلز لا تعنى فقط واقعية العالم الخارجى وانما أسبقية المادة على الفكر أيضا ، المادة بوصفها جوهرا مطلقا متضمنا فى تكوين الكون • ولوكاتش بذلك يتناول قضية أساسية من قضايا الوجود ، بل هى القضية الأولى ، اذ أن هذه النقطة هى جوهر انقسام الفكر الفلسفى كله الى مثالية تعترف بأسبقية الفكر على المادة ومادية تعترف بالعكس • والمادية فى هذا شأنها شأن المثالية تكون عقيدةميتافيزيقية بشأن العالم • ولم يفعل الماديون شيئا الا أنهم اتخذوا هذه العقيدة نقطة انطلاقهم ومضوا فى اكتشاف الكون وتغييره بقصد الوصول فى النهايه الى اثبات زعمهم الأساسى ، وتؤيد نتائج العلوم شيئا فشيئا صحة ما ذهبوا اليه •

غير أن لوكاتش يقول بأن المادية بهذا الشكل ليست نظرية فى المعرفة وانما هى عقيدة تؤكد أن المادة أو الطبيعة سابقة على الروح أو أن الروح انبعاث من المادة مثل هذه القضايا لا يمكن اثباتها أو عدم اثباتها • وعندما أعلن أنجلز وماركس أنهما يتبنيان الماديه ضد مثالية هيجل لم يكن معنى هذا أن لديهما نظرية للمعرفة مختلفة عن هيجل وانما أنهما يعتبران «المادة» أكثر أساسية من « الروح » بمعنى ما •

وهنا يقدم لوكاتش محاولته الأصيلة ، نظرية جدلية أصيلة تقطع فى رأيه المجادلة العقيمة بين الماديين والروحانيين • ويمكن تلخيص موقفه فى الآتى : ان المادية والروحانية هما الموضوع ونقيض الموضوع فى مناظرة يرجع أصلها الى الفشل فى التغلب على الهوة بين الذات والموضوع • ولا يكمن حل الأشكال فى اتخاذ هذا الجانب أو ذاك وانما فى التعالى على منطقة الخلاف وهذا ممكن باتباع طريق ماركس فى تناول الممارسة بوصفها الوحدة العينية بين الفكر والواقع •

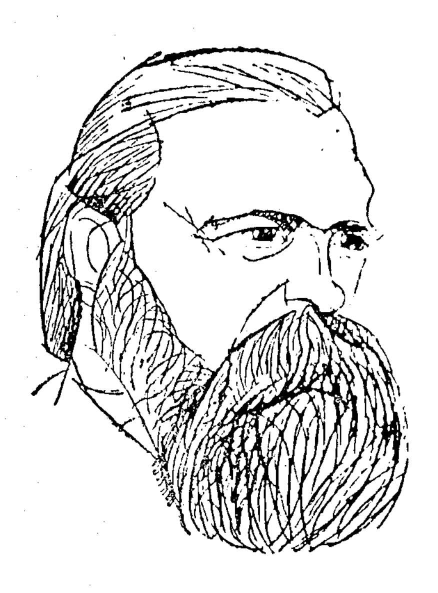
وكان لوكاتش بتقديمه لهذه الفكرة – التى لا تعتبر اليوم جديدة بأى حال من الأحوال – يخطو رائدا فى أرض مجهولة على الأقل بالنسبة لمعاصريه من الماركسيين • كما كان يحيى فى الوقت نفسه طريقة للمعالجة وأسلوبا هو من خصائص الفلسفه المثالية الكلاسيكية الألمانية • وعندما هاجمه النقاد لذلك كانوا يتناقضون مع أنفسهم اذ أن الهيجلية التى اتهموه بالعودة اليها كانت هى نفس المنهج الذى استخدمه أنجلز فى كتابه –جدل الطبيعة–وكان هؤلاء النقاد يعلمون حق العلم أن مفهوم ديالكتيك الطبيعة قد أستخرجه انجلز من«منطق» هيجل • وبالتالى فان انجلز بالعودة الى هيجل كان يحيى المشروع الرومانسى فى ايجاد « فلسفة للطبيعة » • الا أن مثل هذا المشروع – أى محاولة بناء أونطولوجيا شاملة – يتضمن عودة الى المفهوم الهيجلى القائل بأن « الوعى » « والوجود » هما فى النهاية متطابقان • فاذا كان الأمر كذلك فسيكون من المنطقى رؤيه عنصر من « الوعى بالذات » فى الطبيعة وعندئذ لا تكون المادية قد احتفظت بالمعنى الصارم لهذه الكلمة •

لذلك نجد أن كثيرا من الفلاسفة الماركسيين المعاصرين يبتعدون عن اتجاه اقامة أونطولوجيا ماركسية شاملة ٠

***

لقد كان جوهر النزاع بين لوكاتش وبين معاصريه من الفلاسفه الماركسيين السوفييت هو أنهم كانوا أميل الى الوضعية بينما كان هو أميل الى التراث الكلاسيكى للفلسفة الألمانية الموجود لدى ماركس ٠ وكان كلا الطرفين يستندان الى نصوص من ماركس وهيجل ، ولكن كان هناك فارق حاسم بينهما فى فهم مضمون التراث الذى يستندون اليه فبالنسبة للفلاسفة الماركسيين السوفييت كانت نظرية « علمية » للاشتراكية بالمعنى الذى كانت تعنيه كلمة علم فيما بين ١٨٨٠ ، ١٩٢٠ عند أنجلز وكاوتسكى وغيرهما من قادة الاشتراكية الديموقراطية الأرثوذكس ٠ وكان المنهج العلمى عندهم يقوم على التمييز بين العالم « الحقيقى » ذى الحقائق الموضوعية وبين المفهومات الذاتية التى توجد لدى الأفراد عن الحقيقة التى تواجههم ٠ وكل من تبع هذا المنهج يرى أن العلم يعترف بوجود هوة جذرية بين الوقائع الصلبة وبين التأمل وأحلام اليقظة ٠ ولم يكن هناك فارق أساسى فى هذه النقطة بين تلامذة أنجلز من الاشتراكيين الديموقراطيين والماركسيين السوفييت ٠ أما ما أتى به لينين من تأكيد للدور الذاتى وفاعلية الانسان فقد ظل قاصرا على السياسة ، ولم يغير اكتشافه لهيجل ولا فهمه الذاتى للتاريخ وحركته من هذه « النزعة العلمية » ٠ فقد كانت النظرية شيئا والتطبيق شيئا آخر ٠

لقد اقتصرت فكرة لينين على السياسة ودور الحزب ، فقد أدخل عنصرا جدليا جديدا فى نظرية وممارسة السياسة الثورية اذ أصبحت مهمة الحزب هى تطويع الظروف لا الانتظار فى سلبيه حتى يتشكل العالم من تلقاء نفسه وفقا لرغبات القلب ٠ ان دور الوعى كعامل حاسم فى تحديد نتائج الصراع السياسى لم تعد تطمسه فكرة التطور الداروينى التى وضعها كاوتسكى محل وحدة النظرية والتطبيق التى قال بها ماركس ٠ لقد أدى اصرار كاوتسكى على القوانين التاريخية الثابتة المماثلة لقوانين العلوم الطبيعية الى ثورة الراديكاليين فى الدولية الثانية مما دفع بهم الى البلشفيه ، ولكن لم يصل أحد بالدفعة التى بدأها لينين الى حد الرفض الكامل للوضعية ـ وكان لوكاتش هو الوحيد الذى أعلن ذلك ـ



فظلت مادية القرن الثامن عشر الفرنسية هى أساس النظرة الفلسفية الى العالم ولم يطرد اصرار لينين على الدور الحاسم للوعى الى أية نتائج فلسفية ٠ وكل ما انتهى اليه هو مفهوم الطليعة العالمة بكل شيىء ، المسلحة بفهم علمى للتاريخ وهى الحزب الشيوعى ، الذى بامتلاكه للاستبصار الحقيقى بالمسار الحتمى للتاريخ يكون واجبه دفع البروليتاريا الى العمل الثورى حيث تقتضى الظروف ذلك ٠ وكل ما يحتاجه الحزب لذلك هو تقدير صحيح لما يسمى « بالعامل الذاتى » أى مستوى الوعى السياسى، ويتكفل الجهاز التنظيمى للحزب بكل الباقى ٠ وهكذا لم يكن الحزب يرى علاقته بالطبقة مجرد لحظة فى الكلية الديالكتيكية ، أى أنه يظل دائما مساويا للطبقة الا فى لحظة العمل الثورى حيث يبرزدوره ، انما هو يظل دائما فى حالة « تفرد » ، فهو تجسيد الوعى الذاتى الحقيقى للعصر ٠ والنتيجة الحتمية لذلك أن يتنزه زعماؤه عن الخطأ ويصبحون أسرى لذلك الوهم ٠

ولقد عارض لوكاتش هذا الفهم الميكانيكى ، هذا العزل الميكانيكى بين ذات التاريخ (أى الحزب) وبين موضوعه (أى الجماهير) وقدم مفهومه القائل بأن البروليتاريا باعتبارها الطبقة الثورية الأولى قد قدر لها تخليص البشرية خلال عملية تخليص نفسها من الوجود فى ظل الرأسمالية ٠ فان مجرد شرارة من الوعى الذاتى النقدى كانت تكفى لأشعال وقود الثورة الذى تراكم خلال الظروف غير الانسانية للحياة التى

المقهورة من الوصول الى وعى تام بدورها الحقيقى تعيشها البروليتاريا • وفى تمكين البروليتاريا تترجم النظرية النقدية الى ممارسة ثورية وبالتالى تنزع عن نفسها رداء التأمل الفلسفى ، ويبدو الوعى فى دور يختلف تماما عن الدور الذى تنسبه اليه الوضعية العلمية فى أواخر القرن التاسع عشر ، اذ يكون أبعد ما يمكن عن أن يعكس عملية قائمة وانما هو يحول الموقف التاريخى بكليته •. ويستطيع الوعى أن يقوم بذلك لأنه فى لحظات ممتازة معينة تكتسب « الثورة فى الفكر » طبيعة القوى المادية • وفى مثل هذه المواقف الثورية يختفى التفريق المعتاد بين النظرية والتطبيق أو بالأحرى تصبح العلاقة بينهما ديالكتيكية فيصبحان عنصرين من كلية أشمل هى التاريخ الذى يصبح فجأة شفافا اذ يتم التغلب على الهوة بين « الوقائع الخارجية الموضوعية » وبين التفكير المنطقى فيها بظهور كلية ـ الموضوع ـ الذات حيث تتطابق الذات مع الموضوع فى التاريخ بأن يرتفع جزء ضئيل من البشر (الطبقة الثورية) الى مستوى الوعى بالذات •

ومن الواضح أن لوكاتش متأثر فى هذه الفكرة بفكرة هيجل عن وصول الروح الى الوعى بذاتها فى الطبيعة ، أى تطابق الذات والموضوع فى التاريخ حيث تكون الذات ـ الموضوع قوة تصيغ العالم Self activating متحركة بذاتها فى عملية التوحيد بين النظرية والتطبيق •

على أن كل ما يهمنا فى ذلك أن موقف لوكاتش هذا كانت فيه رجعة الى موقف ماركس الشاب فى ١٨٤٤ فيما عدا استخدامه لكلمة تشيؤ بدلا من اغتراب ، وهو اللفظ الذى ظهر بعد عشر سنوات عندما نشرت كتابات ماركس الأولى • وكانت العودة الى موقع ماركس الشاب تمثل ابتعادا عن الأرثوذكسية • بل وأضاف لوكاتش الى ذلك رفضه للنظرية المادية فى المعرفة التى ترى المعرفة صورة مرآوية للعالم الخارجى ، منفصلة بشكل جذرى عن العقل الانسانى • ولا شك أنه كان للوكاتش كل الحق فى رفض تلك النظرية التى كان ينادى بها بعض غلاة الماركسيين • فلم تكن تلك النظرة خاطئة فحسب بل ولم تكن تتفق مع فهم ماركس وانجلز ولينين كما سبق أن أشرنا • لقد كان لوكاتش يتمسك فى موقفه بالانتماء المخلص الى ماركس وهيجل فقد كانت مقولة الكلية Totality (أى الوحدة التى لا تنفصم بين الذات والموضوع) تحتل موقعا مركزيا من تفكيره وهى مستمدة من التراث المثالى الهيجلى الذى أدمجه ماركس فى نظريته • وقد كانت نظرية ماركس عندئذ تفتقر الى تأكيد انسانيتها الشيىء الذى لم يتأكد الا عند نشر ما لم يكن قد نشر قبل ذلك من مؤلفاته مثل مقدمة فى نقد الاقتصاد السياسى الذى لم ينشر الا عام ١٩٣٩ ، ولكن لوكاتش ـ فى غياب النصوص ـ وصل بحدسه الى ما لم يكن قد عرف حينئذ •

وكما أثار لوكاتش ضده الفلاسفة السوفييت أثار كذلك فلاسفة الاشتراكيين فى الغرب • فقد ظل هؤلاء لمدة جيلين كاملين يحاولون بكل ما أوتوا من جهد أن يحصلوا على اعتراف أكاديمى لماركس باعتبار أن أعماله موضوعية تخلو من أحكام القيمة وأنها بناء لا يربطه بالأصل الهيجلى لماركس الا أوهى رباط • وكانت دراسة الوقائع باعتبارها متميزة تماما عن أحكام القيمة مبدأ غاليا وعزيزا لا على قلوب علماء الطبيعة فحسب وانما على قلوب علماء السوسيولوجيا كذلك • فلقد جعلت الماركسية من صفة « البورجوازية » وصمة تصف بها كل ما هو رجعى فى مجال العلوم والفلسفة مما أثار حفيظة « الأساتذة » فى كافة أنحاء العالم • ولقد كانت تلك الوصمة أبرز ما تكون فى مجال علم الاجتماع ، لذلك فقد تمسك السوسيولوجيون على اختلاف ألوانهم السياسية بهذا المبدأ طمعا فى الاعتراف الأكاديمى بهم • وكان الأساس الفلسفى لهذا الفصل التعسفى بين « الوقائع » « والقيم » يرجع الى الكانطية الجديدة التى كان لها أتباعها الأقوياء بين الليبراليين والاشتراكيين على السواء • وكان ماكس فيبر قد رسم للسوسيولوجيا الطريق بأن رفض الانغماس فى أى تفسير أخلاقى أو دينى • وكان يرى أن المرء يفعل خيرا اذا لم يخاطر بأطلاق أحكام عامة بشأن العالم • وكان لمثل هذه الاتجاهات ما يقابلها عند العلماء التجريبيين وعلماء النفس الفرويديين كذلك • وجاءت الكانطية الجديدة لتقرر أن اتباع المنهج العلمى يفترض التزاما بأن يكف المرء عن تلوين العالم بالألوان التى كان يغرم بها الشعراء أو الفلاسفة المثاليون القدامى • وكان أسوأ ما يمكن فى نظرهم هو افتراض كتاب مثل لوكاتش يؤكدون أن التغلب على القصور الفطرى فى المعرفة الانسانية أو الحاجز القائم بين الدراسة العلمية للوقائع والالتزام العمل « بالقيم » ممكن بالعودة الى فلسفة هيجل المنبوذة • وعندما أكد لوكاتش أن ما يبدو من لا معقولية الوجود هو ببساطة

مرض حضارى ناشىء عن الاغتراب فى ظروف المجتمع البورجوازى عارضه الكثيرون ومنهم اشتراكيون مثل كارل مانهايم . (وهو من اللاجئين المجريين البارزين الذين نالوا شهرة واسعة فى هيدلبرج بتعاليمه الانتقائية المستمدة بقدر متساو من فيبر ولوكاتش) .

لقد كان هذا الموقف النظرى المتكامل للوكاتش هو لب مساهمته الخلاقة فى النظرية الماركسية ، وكان رفضه الحاسم للفصل بين « الوقائع » « والقيم » هو الذى جعل منه شخصية فائدة بالنسبة للمثقفين فى وسط أوروبا ، أولئك الذين تخطوا النظرة المتفائلة لفترة ما قبل ١٩١٤ ، وكرهوا اللاعقلانية الرومانسية لليمين ، وكفروا باليوتوبية الاشتراكية الغيبية عند أمثال ارنست بلوخ . وجد هؤلاء فى كتابات لوكاتش عام ١٩٢٣ ما لم يستطع منظر آخر أن يقدمه لهم : تحليلا ماركسيا يرتبط بالوقائع ولا يرفض الأرث الهيجلى باسم العلم ، ولقد ظل هؤلاءالمثقفون حتى ظهور كتابه يعتبرون الشيوعية مجرد امتداد للثورة الروسية التى كانت بلا شك حدثا هائلا ولكن لم يبد علمها أنها ستقدم حلولا لمشاكلهم . لقد كانت حركة سياسة خالصة تدور فى دولة متأخرة نسبيا . أما ما فعله لوكاتش فقد كان تقرير عالمية هذه الثورة وشمولها . ففى تفسيره للماركسية ظهرت الثورة البروليتارية بوصفها الحل للغز التاريخ ، وفى هجومه على النزعة العلمية (الزائفة) والكانطية الجديدة معا كان يضرب فى صميم الفلسفة المعاصرة ، واذا كان على صواب فان الايمان الوصفى بالعلم لم يكن سوى وهم بورجوازى اذا ما طبق على التاريخ . ولقد كانت الظروف التى أدت الى ظهور نظرة لوكاتش هى نفسها التى أدت الى ظهور نظرة اشبنجلر المتشائمة الداعية الى النازية ، لقد كانت تلك هى السنوات التى ظهر فيها كتابه «أفول الغرب» (١٩١٨ – ١٩٢٢) الذى كان له أثره القوى على الطبقة الوسطى الألمانية وهيأ أذهانها لقبول الرايخ الثالث . فلو لم يكن الشيوعيون النمساويون والألمان مجنونين بفكرة الولاء الكامل لموسكو لكانوا قد رأوا فى كتاب لوكاتش اجابة مقنعة على تساؤلات اشبنجلر وكذلك على هيدجر الذى كان كتابه « الوجود والزمان » (١٩٢٧) قد ألهب عقول جيل بكامله من طلاب الجامعة . ومن ناحية أخرى لو كان لوكاتش قد امتلك قوة الشخصية اللازمة للصمود فى موقفه بدلا من السكوت واستنكار ما كتبه فى النهاية لكان قد قدم مساهمة ضخمة فى اقامة حاجز منيع ضد طوفان اللاعقلانية .

ولكن رغم كل شىء فان تدخل لوكاتش لجعل الماركسية فى شكلها الهيجلى أمرا يضعه مفكرو وفلاسفة وسط أوروبا موضع الاعتبار ، فلقد وجدوا فيه تراثهم الحضارى مطهرا من مسودات المثالية ومطعما براديكالية تجعل منه منافسا خطيرا لأى عقيدة تجتذب هؤلاء المثقفين الذين ملوا تفسخ الليبرالية وانحطاط العقائد الدينية واعتقادهم – بعد رؤية النظريات المادية السوفيتية – بأن الروس متخلفون عنهم فى مجال الفلسفة بخمسين عاما على الأقل .

***

قد تبدو المسائل المثارة هنا ، قضايا فات أوانها ولكن الحقيقة – فى رأيى – أن القضية الأساسيه التى أثارها لوكاتش كانت مصيرية فى زمانه وستظل كذلك لمدة طويلة ، وهى – دون الانجراف فى التفاصيل – مشكلة العلاقه بين النظرية والتطبيق أو بتعبير آخر : الدولة العقائدية أى العلاقة بين نظام الحكم الذى يدين بعقيدة ما وبين ما يمارسه فعلا فى التطبيق . فالمشكلة الأساسية التى نتجت عن العلاقة بين « التاريخ» وبين « الوعى الطبقى » أى بين « العقيدة » وبين «ما تتطلبه الظروف التاريخية» تكتسب اليوم أهمية أكبر نظرا لتعدد أشكال وأنواع ما يسمى « بالدولة العقائدية » . ان الانفصال بين ما يؤمن وينادى به نظام ما وبين ما يمارسه بالفعل مما لا يتفق وتلك العقيدة يضعنا مباشرة أمام أخطر قضية فى القرن العشرين وهى « الأخلاق والسياسة » أى تبرير أخطر أنواع الجرائم وأبشعها « بلوى عنق النظرية » أو « التذرع بالظروف التاريخية » و « المهمة المقدسة » .. الخ

لقد كانت تلك المسألة فى أيام لوكاتش هامة لا بالنسبة له فحسب وانما بالنسبة للحضارة الانسانية كلها ، تلك الحضارة التى كانت عندئذ على وشك التردى فى موجة العدمية السياسية والحضارية . لذلك أجد نفسى مضطرا – راجيا العذر – الى الخوض فى مسألة هى من اختصاص فلسفة الأخلاق . فقد كتب لوكاتش فى مقدمة طبعة عام ١٩٦٧ لكتابه يقول « ربما يمثل هذا الكتاب أكثر المحاولات التى قامت فى عصره راديكالية ، لتجسم أو لتضع فى التطبيق الجانب الثورى من ماركس بتجديده بالاستعانة بديالكتيك

هيجل ومنهجه . ومما جعل هذا المشروع يأتى فى وقته ظهور تيارات فى الفلسفة البورجوازية تسعى الى احياء هيجل . ولكن هذه التيارات لم تبدأ فقط من نقطة انفصال هيجل عن كانط ، بل وحاولت - من ناحية أخرى - تحت تأثير دلتاى أن تقيم جسورا بين الديالكتيك الهيجلى واللاعقلانية المعاصرة » . ورفض لوكاتش المحاولات التى قام بها كتاب من أمثال كارل لوفيت والتى حاولت أن تجعل من ماركس وكيركجارد ظواهر متوازية نشأت عن تفكك الهيجلية . وهكذا تتضح لنا بالدقة نقطة الاصالة عند لوكاتش عام ١٩٢٣ ، فقد وقف موقفا ثوريا ضد حركة العبث واللاعقل التى كانت رد فعل لخيبة الأمل واليأس من كل الفلسفات ، محاولا وضع حل لمشكلة أخلاقية هى جذر كل هذه القضايا والاتجاهات : الانزعاج البالغ من أن الدولة السوفيتية الناشئة لم تحقق ما علق عليها من آمال ، وكانت تلك المشكلة كما قلنا هى علاقة النظرية بالتطبيق .

لقد كانت فلسفة كانط - كما فسرها الكانطيون الجدد - تفصل فصلا حاسما بين الحياة الأخلاقية وبين التعرف النظرى على عالم الظواهر ، فما هو واجب أخلاقيا لا يمكن استخلاصه من المحاجة العقلية ، لأنه بينما يمكن معرفة العالم المادى بمعونة المنطق العلمى ، فان العالم الأخلاقى الا يمكن معرفته بهذه الوسيلة . فالطبيعة تتبع قوانين علية غير قابلة للتغير ، بينما الحياة الأخلاقية الفردية حرة وتتحدد ذاتيا ، فالقرارات الأخلاقية (أى ما يجب على المرء أن يفعله) يصل اليها الانسان باستشارة ضميره ، ذلك الضمير الذى يلهم قراراته من مملكة أرقى ، فوق الظواهر ، غير مسموح للفهم بدخولها . وينتج عن ذلك أنه لا يمكن أن يوجد شيىء اسمه نظرية الأخلاق بمعنى وجود ادراك صحيح لمقياس موضوعى للقيم الموجودة بالفطرة فى طبيعة الواقع الفعلى . أما القرارات العملية وبالتالى الأخلاقية والسياسية فلا يمكن استخلاصها من أى نظرية (صحيحة أو زائفة) عن العالم . لأن الحرية لا تنتمى الى عالم الظواهر وبالتالى فهى ليست محكومة بالسببية ، فنظرية الأخلاق اذن لا يمكن أن تدلنا على ما يجب أن نفعله .

ولقد رفض هيجل هذا الموقف ، بعد أن ذهب به فيخته الى منتهاه وجعل منه متناقضا ، مدمرا بذلك قيمته العملية ، وعاد الى موقف أرسطى فى جوهره . فقد أشار مرة أخرى الى وجود التطبيق أى الموقف العملى فى السلوك فى أساس الادراك للحقائق المطلقة الخاصة بالانسان والعالم . اذ انبثقت أخلاق هيجل وبالتالى سياسته من فلسفته فى الروح وهى الفلسفة التى لم تقم حاجزا لا يمكن تخطيه بين ما هو كائن وما يجب أن يكون . وعندما أقام ماركس هيجل على أقدامه ظل محتفظا بهذه المعالجة مع التخلى عن الميتافيزيقا الروحية الهيجلية . لذلك فان لوكاتش عندما عاد عام ١٩٢٣ الى هيجل لم يكن ليهتم بالتفرقة الكانطية الجامدة بين « الوقائع » و « القيم » ، بين « العلم » و « الأخلاق » بين « النظرية » « والتطبيق » . فالتاريخ يأخذ كل شيىء فى اعتباره ، وفهم التاريخ بوصفه من خلق الانسان يعرى أدق دخائل بناء « وجود - الانسان - فى - العالم » حسب الاصطلاح الوجودى الشهير .

ولقد وجدت كل هذه الأفكار ضمنا أو صراحة فى « التاريخ والوعى الطبقى » ، اذ كان تحديا للأخلاق الكانطية واللاأخلاق النيتشوية على حد سواء ، وهذا هو السبب فى أنه يجب أن يؤخذ مأخذ الجد ، الأمر الذى لم يتم الا بعد حقبة من الزمن على يد مدرسة فرانكفورت (ماكس هوركيمر ، تيودور أدورنو ، ووالت بنجامين ، هربرت ماركوز) . وعلى أى حال فان الأثر المباشر لأفكار لوكاتش تجلى فى الانقسام الذى حدث بين صفوف المثقفين الماركسيين فى أوروبا الشرقية والوسطى . لأنه اذا كان لوكاتش على صواب فانه يتبع ذلك أن يعالج تراث المثالية الألمانية بطريقة مختلفة عن الطريقة التى تناوله بها انجلز فى كتابه عن فويرباخ . ولقد كان من السهل على الماركسيين أن يرفضوا الكانطيه الجديدة التى أصبحت فلسفة المراجع الشهير ادوارد برنشتين وتلامذته من الاشتراكيين الديموقراطيين ، ولكنه لم يكن سهلا - ان لم يكن مستحيلا - أن ترفض نظرة أنجلز وما ترتب عليها لدى بليخانوف ولينين . كما كان من المستحيل على لينين أن يجارى لوكاتش فيما ذهب اليه من أخذ تراث هيجل فى مجموعه .

لذلك ظل لوكاتش « وحيدا » . صحيح أنه استنكر فيما بعد ما جاء فى كتابه ولكن الأثر الذى أحدثه مازال حيا حتى الآن . ولازالت الأفكار التى أتى بها تستحق المناقشة بل لازالت ملهمة لكثير من أفكار التجديد فى الماركسية اللينينية .

الصراع والتوازن فى النظرية الاجتماعية

السيد يسين

يمكن القول ان الدراسة العلمية الاجتماعية للمجتمعات الانسانية بدأت فى القرن التاسع عشر ، حيث أتيح لها أن تستقل بمبحث خاص من مباحث المعرفة هو علم الاجتماع(١) .

وقد صاحبت نشأة علم الاجتماع فى أوروبا على يدى أوجست كونت معركة فكرية كبرى بين الوضعية باعتبارها ايديولوجية الطبقات البورجوازية المحتكرة للسلطة فى المجتمعات الاوربيه ، وبين الاشتراكية باعتبارها ايديولوجية الطبقة العاملة التى كانت قد أخذت تتزايد فى حجمها ، ويثقل وزنها مع اتساع نطاق الثورة الصناعية ، وتحويل المجتمعات الزراعية الى مجتمعات صناعية . فقد أخذت هذه الطبقة تعى بنفسها شيئا فشيئا ، الى أن تبلور وعيها الطبقى نتيجة ازدياد علمية الفكر الاشتراكي وابتكاره أدوات تحليل متقنة ، وخصوصا نتيجة لاسهامات كارل ماركس الذى استطاع أن يكشف بعمق وجلاء عن الميكانزم الذىيقدم عليه جماع الاقتصاد الرأسمالى متمثلا فى فائض القيمة . ولم يقف جهد ماركس عند حد التحليل العلمى للاقتصاد الرأسمالى السائد ، وانما قدم للطبقة العاملة النظرية الثورية التى تستطيع بتبنيها واعتمادها كسلاح طبقى أن تفك أغلالها ، وأن تثور على النظام الرأسمالى الذى يقوم على استغلال الانسان للانسان .

نشأ علم الاجتماع اذن وسط معركة ضارية . وقد تركت هذه المعركة بصماتها عليه وعلى التطورات اللاحقة في ميدانه ، حتي يمكن القول

والمشكلات الاجتماعية تنجم اساسا عن ضروب التطبيق الاغترابية للجماعات المسيطرة . وعلى ذلك فالمشكلات الاجتماعية ـ فى نظرية الصراع ـ لا تعكس المشكلات الادارية للنظام الاجتماعى القائم ، ولا فشل الأفراد فى القيام بالأدوار التى اعدوا ونشئوا اجتماعيا للقيام بها ؛ ولكنها تعكس فشل المجتمع فى التكيف مع مطالب الافراد واحتياجاتهم المشروعة .

أنه لا يمكن فهم التيارات الحديثة والمعاصرة فى علم الاجتماع ، بغير الاستعانة بالمنهج التاريخى لاعادة تكوين صورة المجتمع الاوربى طوال القرن التاسع عشر بكل مكوناتها من صراع القوى السياسية ، واحتدام الصراع الطبقى بين الطبقة البورجوازية والطبقة العاملة(٢) • كما أنه لا بد من الاستعانه بمناهج علم اجتماع المعروفة لكى تربط الأفكار والنظريات الاجتماعية لأقطاب الفكر الاجتماعى فى هذا العصر باتجاهاتهم السياسية وأوضاعهم الطبقية من ناحية ، وببنية المجتمع من ناحية أخرى(٣) •

وبغير أن نخوض فى غمار هذه الدراسة التى تحتاج الى بحث مستقل ، يمكننا أن نجمل الاتجاهات الرئيسية فى نظرية المجتمع فى القرن التاسع عشر فى اتجاهين رئيسيين :

اتجاه التوازن ، واتجاه الصراع •

ويمكن القول أن البذور الاولى لاتجاه التوازن نجدها أساسا لدى أقطاب الثورة المضادة فى الفكر الاوربى التى نشأت نتيجة للثورة الفرنسية، وعلى وجه الخصوص عند «لويس دى بونالد» (١٧٥٤ـ ١٨٥٠) «وجوزيف دى ميستر» (١٧٥٤ـ١٨٢١) • ولم يقنع دى بونالد ودى ميستر بمجرد شجب الثورة الفرنسية وما ترتب عليها من تصدع فى المجتمع الفرنسى ، ولكنهما ذهبا أبعد من ذلك ، فناديا بضرورة العودة الى الأوضاع السابقة على الثورة ، أى بعبارة مختصرة احياء النظام القديم ancient regime الذى قضت عليه الثورة • لقد كان كل منهما مثلا بارزا على الرجعية الفكرية فى أبشع صوها • فقد كان المثل الأعلى عندهما هو النظام الاقطاعى الذى اندثر ، فهو فى نظرهما ـ النظام الاجتماعى الأمثل الذى يحقق الانسجام والتوافق للانسان • والعقل الانسانى الذى مجده فلاسفة عصر التنوير وأرادوا الاعتماد عليه أساسا فى تحليل وفهم مشكلات الانسان والمجتمع ، لم يشأ بونالد وميستير الاعتماد عليه ، وانما ركزا على كون الانسان ينشأ فى مجتمع ، وتحت وطأة تقاليد معينة ، ولذلك كان عليه أن يطيع هذه التقاليد ، وأن يعتمد عليها فى حل مشكلاته(٤)•

وجاء بعد بونالد وميستير سان سيمون (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥) الذى ركز على الصناعة والصناعيين باعتبار هذه الفئة هى التى ستقود المجتمع الاوربى ، ثم أوجست كونت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) الذى ينسب اليه فضل اعطاء علم الاجتماع شهادة ميلاده • وأوجست كونت هو صاحب الفلسفة الوضعية التى كانت تدعو ـ بين مادعت اليه ـ الى الاهتمام بكيفية حدوث الظاهرة وعدم الاهتمام بأسباب حدوثها • أى أن مهمة الباحث هى أن يسأل نفسه كيف حدثت الظاهرة ، لا لماذا حدثت ؟ والهدف هنا ببساطة هو عدم التوصل الى دراسة أسباب مظاهر الخلل الاجتماعى فى المجتمع • وكان من بين مبادئها أيضا الفصل بين عالم القيم وعالم الوقائع ، بمعنى أنه لا ينبغى على الباحث الاجتماعى اصدار حكم تقييمى على الظواهر الاجتماعية (ومن هنا نشأت خرافة « الموضوعية » و « الحياد » فى البحث العلمى الاجتماعى) ، ودعت الوضعية أخيرا الى نقد التفكير الميتافيزيقى وتقديس المنهج العلمى (٥) •

غير أن هذه الدعوة كانت فى حقيقتها تغطية للمصالح الطبقية الرأسمالية التىجهدت الوضعية لحمايتها • ولعل ما يكشف عن ذلك بوضوح أن كونت نفسه حول مذهبه الاجتماعى العلمى فى نهاية أيامه الى دين أطلق عليه « دين الانسانية » وحدد له طقوسا خاصة لممارسته • ومن ناحية أخرى امتنع دعاة الوضعية ـ باسم المنهج العلمى ـ من الحكم على النظام القائم ، دفاعا عنه •

وورث عالم الاجتماع الفرنسى الشهير اميل دوركايم (١٨٥٨ ـ ١٩١٧) تراث نظريات التوازن المحملة بفكر بونالد وميستير وأوجست كونت ، غير أنه حاول أن يتقدم خطوات نحو صبغها بالسمة العلمية « الموضوعية » • كان دوركايم تلميذا لكونت ، وبالرغم من موقفه غير المحدد من الاشتراكية العلمية الذى تعمد أن يحيطه بقدر من الغموض ، فيمكن القول «انه كان معاديا لهذا الفكر ، ويبدو ذلك من نظريته الاجتماعية ، التى يمكن اعتبارها مشروعا ايديولوجيا متكاملا الغرض منه تفنيد الفكر الاشتراكى العلمى(٦) • وتقوم نظرية دوركايم على ثلاثة أفكار أساسية :

● الوعى الجمعى

وهذه الفكرة الجوهرية عند دوركايم تلتف بستائر كثيفة من الغموض ، وقد ظل دوركايم يغير ويطور فيها حتى تحولت الى فكرة ميتافيزيقية خالصة • حتى لقد ذهب جورج جيريفتش ، وهو أحد المتحمسين لدوركايم ، الى القول بأنه يريد أن يدافع عن فكرة الوعى الجمعى ضد دوركايم نفسه الذى أفسدها ! والوعى الجمعى كما يعرفه دوركايم «هو مجموع المعتقدات والمشاعر المشتركة بين معظم الاعضاء الذين ينتمون الى مجتمع معين، وتكون هذه المعتقدات والمشاعر نسقا محددا من

ضروب التشابه ، بحيث تصبح لهذا النسق حياته الخاصة »(٧) ٠

ويريد دوركايم بفـكرة الوعى الجمعى فى الواقع الايحاء بأن ما يجمع أعضاء المجتمع أكثر كثيرا مما يفرقهم ، وأنه ليس هناك سوى نمط واحد فيما نسى من المعتقدات والمشاعر يسود فى المجتمع ٠ والغـاية من كل هذا هى ضرب فكرة «الوعى الطبقى» فى الفكر الماركسى باعتبارها احدى أدوات التحليل الاجتماعى الاساسية ٠ ذلك أن فكرة « الوعى الطبقى » تقدم على أساس التحليل الطبقى للمجتمع ، بمـا يتضـمنه من تصنيف للطبقات الاجتماعية المتصـارعة ، ورصد لعلاقات الصراع بينها، وتحديد لنوعية الوعى الطبقى لدى كل منها والذى يرتكز على الايديولوجية الخـاصة بكل طبقة ٠

● **التضامن**

والفكرة الجوهرية الثانية لدى دوركايم هى فكرة التضامن ٠ ولدوركايم نظرية شـهيرة فى التضامن ، حيث يفرق بين ما يسـميه التضامن الآلى الذى يسود فى المجتمعات القـديمة والذى يقوم على أساس التماثل بين أعضـاء المجتمع ، والتضـامن العضوى الذى يسود فى المجتمعات المتطورة والذى هو يقـوم على أساس التباين ٠ وهـدف دوركايم من التركيز على فكرة التضامن هو ضرب فـكرة الصراع ، وهى من بين الأنظار الاساسية فى التحليل الاشتراكى العلمى ٠

● **الجماعات المهنية**

وتصل أخيرا للفـكرة الجوهرية الثالثة فى نظرية دوركايم وهى فكرة الجمـاعات المهنية ، ويقصد بها ضرورة أن تقدم الحكومة بمجهود لجمع العمال وأرباب الأعمال فى تنظيم واحد للقضاء على مايسميه بالأنانية والشرور ٠ **وواضح أن المقصود بهذه الفكرة ضرب فكرة وتطبيق الاحزاب العمالية التى تمثل الطبقة العاملة والتى تقود نضالها ضد القـوى الرأسـمالية ، كما يؤكد ذلك الفـكر الاشتراكى العلمى** ٠

هذه لمحة سريعة عن نشـأة وتطور الفـكر الرجعى فى نظرية المجتمـع ، الذى خاض معركته ضد الفـكر التقدمى تحت ألوية متعددة ، كانت تتعدد ألوانهـا فى كل مرحلة تاريخية ، غير أنه مهـما بلغ هذا التعدد ، فان الخيط الجوهرى المجدول من أفكار الفلسفات المثالية يحتفظ بطابعه بالرغم من تعاقب العصور ٠ ويشهد على ذلك تطور مراحل نظريات التـوازن من الرجعية الفـكرية لبونالد وميستير الى وضـعية أوجست كونت ودوركايم ، وأخـيرا الى الصيغة المعـاصرة من الوضعية ، ونعنى بها المدرسة الوظيفية التى يعد تالكوت بارسـونز وروبرت ميرتون من أعلامها البارزين فى علم الاجتماع الامريكى ٠

ومن ناحية أخرى نجـد القطب المضاد لاتجاه التوازن وهو اتجاه الصراع ٠ وهذا الاتجاه مثله أساسا فكر الاشتراكية العالمية كما ظهر على وجه الخصوص فى مؤلفات ماركس وانجلز ومن بعدهما الطابور الطويل من المفكرين الاشتراكيين العالميين ٠

ومن أبرز ممثلى هذا الاتجاه فى عالم الاجتماع الامريكى س٠رايت ميلز ، ومن بعده ممثلو حركة اليسار الجديد أمثال **بول جودمان ، وهو رفيتز، وتيـودور روزاك ، وروبرت انجلر ، وكريستيان باى وغيرهم (٨)** ٠

ويمكن القول أن كلا من هذين الاتجاهين له اطاره النظرى الخاص به ، والذى يتكون من نسق مترابط من المفاهيم المحـددة ، بالاضافة الى نهج خاص متميز فى دراسـة الظواهر الاجتـماعية وتفسيرها ٠

اتجاه التوازن

تصدر نظريات التوازن order theories ــ بوجه عام ــ عن فكرة محددة تصـور المجتمع باعتباره نسـقا من الأفعال يوجد بينها ثقـافة مشتركة تتسم بالاتفاق حول القيم الأساسيه التى تقوم عليها ٠ وتقـوم هـذه النظريات على أساس تحليـل خاص للأنساق الاجتماعية يطلق عليه «التحليل البنائى الوظيفى» ٠ وهذا التحليل يتم على مسـتويين : استاتيكى وديناميكى ٠ على المستوى الاستاتيكى يتم تصنيف السمات البنائية المنتظمة فى العـلاقات الاجتـماعية مثل الأدوار roles السائدة فى المجتمع وضروب المكانات الشائعة status والنظم الاجتماعية الموجودة٠ أما المسـتوى الدينـاميكى من التحليل فيعنى بدراسة عمليات التداخل والتشابك بين الانساق الموجودة فعلا ، واستراتيجيات تحـديد الاهداف الاجتماعية المختلفة ، وعملية التنشئة الاجتماعية socialization ، وكذلك الوظائف functions الأخرى التى تحافظ على توازن الانسـاق والنظم الاجتماعية ٠

والمفهوم الأساسى الذى يرتكز عليه تحليل المشكلات الخاصة بالانساق الاجتماعية - مثل المشكلات الاجتماعية ، والانحراف ، والصراع الاجتماعى - هو «تصدع القيم» anomey ، وهو مصطلح ابتدعه عالم الاجتماع الفرنسى اميل دوركايم ثم نقل عنه بعد ذلك وذاع استخدامه ، وهو يعنى - بين ما يعنى الافتقار الى قيم خلقية لتوجيه السلوك فى لحظة معينة من حياة المجتمع، أو فى قطاع محدد من قطاعاته (١١) •

و « تصدع القيم » - فى نظر أصحاب هذه النظريات - يعنى عدم التوازن الذى يصيب أحيانا الانساق الاجتماعية ، أو ما يطلق عليه بحسب مصطلحاتهم « التفكك الاجتماعى » Social disorganization الذى يعنى ثغرة فى التنظيم الاجتماعى يكشف عنها ضعف أجهزة الضبط الاجتماعى Social control (ويعنون بها القانون والدين والأسرة) ، ويبرزها أيضا القصور فى بلورة الاهداف ، واصطناع وسائل غير مشروعة لتحقيق الاهداف التى تقوم عليها الانساق الاجتماعية ، وأخيرا وضوح السلبيات التى تحيط بعملية التنشئة الاجتماعية •

وينجم عن « تصدع القيم » فشل الأفراد فى تحقيق الاهداف التى يقوم عليها النظام الاجتماعى •

ونظريات التوازن تتضمن عدة تعريفات أساسية خاصة بالصحة والمرض من وجهة النظر الاجتماعيه ، وكذلك تتعلق بالمسايرة conformity والانحراف • فالسلوك الذى يكشف عن الصحة من وجهة النظر الاجتماعية لا بد أن يتطابق مع القيم المشروعة التى يقوم عليها النظام الاجتماعى ومتطلباتها فيما يتعلق بتحقيق الاهداف التى يقوم عليها •

أما الانحراف فهو عكس المسايرة الاجتماعية، ومعناه فشل الأفراد فى القيام بأدوارهم الاجتماعية المشروعة التى حددها النظام الاجتماعى ، والمنحرفون يكشفون بذلك عن فشلهم فى التكيف مع الاهداف والقيم السائدة •

فالزنوج فى الولايات المتحدة الامريكية يعدون - على سبيل المثال - منحرفين ، لأنهم عجزوا عن مسايرة القيم السائدة فى المجتمع الامريكى • وكذلك الطلبة والشباب بوجه عام الذين ثاروا على التدخل الاجرامى لبلادهم فى فيتنام ، وتظاهروا لاسقاط أصحاب المصالح الرأسمالية الاحتكارية الذين يلقون بالآلاف من الشباب الأمريكى فى أتون الحرب ، لكى يكسبوا من وراء دوران عجلة المصانع الحربية وتجارة الأسلحة الملايين من الدولارات ، يعدون أيضا - فى ضوء نظريات التوازن - منحرفين خرجوا على القيم السائدة فى مجتمعهم •

ويكشف عن اتجاه التوازن فى نظرته للمجتمع ، ومايتضمنه من تعريفات خاصة للصحة والمرض والمسايرة والانحراف ، والتعريف الذى وضعه عالم الاجتماع الامريكى البارز تالكوت بارسوتز للصحة العقلية وللمرض حيث ذهب الى آن : « **الصحة يمكن تعريفها بأنها حالة القدرة القصوى** capacity **لفرد ما فى القيام الفعال بالأدوار والمهام التى نشىء اجتماعيا لكى يقوم بها• وهى بذلك تعرف على أساس اسهام الفرد فى النظام الاجتماعى • وهى تعرف أيضا باعتبارها أمرا نسبيا يتعلق بمكانته** status **فى المجتمع، التى يحددها جنسه وسنه ومستوى تعليمه الى غير ذلك** » •

وهذا التعريف يؤدى تطبيقه الى القاء مسئولية المسايرة والانحراف على عاتق الافراد ، والى الاخفاء المتعمد لمسئولية المجتمع • اذ يزعم أن المجتمع ينشىء الافراد تنشئة اجتماعية سلمية لكى يقوموا بالأدوار المقدر لهم - حسب مواضعات النظام الاجتماعى السائد - أن يقوموا بها • فاذا فشلوا أو انحرفوا أو حادوا عن الطريق أو خاب مسعاهم لسبب أو لآخر فهم المسئولون أولا وأخيرا •

فالمجرمون- والمنحرفون بوجه عام- ينحرفون لكونهم فشلوا فى تمثل القيم السائدة من خلال عملية التنشئة الاجتماعية ، أو لكونهم لم ينجحوا فى اختبار القدرات القصوى التى يتحدث عنها بارسونز ! ويصل المنطق الذى يقوم عليه هذا التعريف الى حد وهم جماعة سلالية كاملة كالزنوج بأنهم جنس منحط يتسمون بانخفاض مستوى الذكاء اذا ما قورنوا بالبيض ، ويشهد على هذا فى زعمهم اختبارات الذكاء الموضوعية التى يطبقها علماء النفس الامريكيون ، ويقارنون نتائجها بمجموعات «ضابطة» من البيض ، حيث يظهر الفرق الشاسع بين مستويات ذكاء هؤلاء وأولئك•

والحقيقة أن هذه التعريفات وما تؤدى اليه من نتائج مضللة ، ليست مجموعة متناثرة من المبادىء ، بل ان خطورتها تكمن فى أنها تعكس «نظرة اجمالية للحياة» vision du monde تتسم

بالتماسك والتنـــاسق الداخلى لمجموعة مترابطة ومتشابكة من الافكار ٠

وهذه « النظرة الاجمالية للحياة » أو « رؤية العالم » ـ بحسب تعريف جورج لوكاتش ـ لها وجهات نظر محددة فى المنظور الاجتماعى ، وفى طريقتهـا فى التحليـــل «العلمى» ، وفى نظرتها للمشكلات الاجتماعية وللانحراف وفىحكمها أخيرا على الجماعات الاجتــماعية المختلفة فى المجتمع ٠ وقد يكون من المناسب عرض مكونات « النظرة الاجماليه للحيـاة » الكامنة فى نظريات التوازن حتى يتاح لنا بعد ذلك مقارنتها بمكونات «النظرة الاجمالية للحياة» الكامنة فى نظريات الصراع ٠

النظرة الاجمالية للحياة فى نظريات التوازن

● **منظورها الاجتماعى الكامن واتجاهها ازاء القيم:**

تبدو هــذه النظرة أولا فيما يتعلق بالمنظور الاجتماعى الكامن فيهـــا واتجاهها ازاء القيم ٠ ففيما يتعلق بصورة الانسان والمجتمع لديها نجد أنها تصور المجتمع باعتباره وحدة متفردة مستقلة بذاتها sui generis ، وهو بهذا الوصف أكبر من مجموع أجزائه ويختلف عنها فى نفس الوقت ٠ وقصـور الضبط الاجتماعى فى المجتمع عن أداء وظائفه يعنى حدوث تصدع فى القيم

ولهذه النظرة أيضا اتجاه أيجابى فيما يتعلق بضرورة الحفـــاظ على النظم الاجتماعية القائمة وحمايتها ٠

أما فيما يتعلق بنظرتها الى الطبيعة الانسانية فهى نظرة مختلطة فالانســان خليط من عنصرين أنانى وايثارى Homoplex ، وهو لذلك يحتـــاج الى الضوابط والقيود حتى يحقق الخير الجماعى ٠ وأحيانا تنظر للبشر على أساس قسمتهم من وجهــة النظر الاخلاقية ـ الى فريق من البشر سام خلقيا وفريق آخر منحط خلقيا

واذا نظرنا الى عالم القيم نجـدها تعتبر أن ما يحقق الصالح الاجتماعى العام هو : التوازن، والاستقرار ، واحترام السلطة القـــائمة ، وعدم المساس بالنظام القائم ، والنظر الى النمو والتطور باعتبـــار أنه من الأفضل أن يتم نتيجة تراكمات كمية فى صـورة «التوازن المتحرك» ، باعتبار أن التوازن هو الهـــدف النهـائى الذى تحرص على تحقيقه ٠

● **طريقتها فى التحليل العلمى :**

النمـــوذج الأمثل لهذه النظرة الاجمالية فى الحيـــاة هو نموذج العلم الطبيعى ، وهى لذلك تحرص على نقله بمسلماته ومفاهيمه ومصطلحاته الى المجال الاجتماعى ٠ وهى تسعى نحـو صياغة قوانين عامة شـاملة من خلال ممارسة البـــحث الامبيريقى ، ويغلب عليهـــا اللجـوء الى التحليل البنائى ـ الوظيفى ٠

وفيما يتعلق بالسببية فهى تميل الى التركيز على تعدد الاسباب ، هروبا من تحديد عامل وحيد يعد مسئولا عن التغير الذى يلحق ببنية المجتمع٠ وتنزع نحو صياغة نظريات تتسم بأنها مغرقة فى التجريد ، فى حين أن البـــحوث الامبيريقية التى تجرى فىظلها تتسم بانخفاض مستوى التعميمات فيها ، بالاضافة الى الانفصال الواضح بين النظرية والتطبيق ٠

وهى تضع شروطا للموضوعية العلمية أهمها: التطابق الدقيق بين المفاهيم والحقائق ، الفصل التعسفى الجامد بين الباحث ومايلاحظه من ظواهر وحقـــائق ، وتبنى نظـرية فى المعـــرفة تتسم بالسلبية ٠

وتحليــــلاتها تركز على الثقافة Culture باعتبارها المحدد الأساسى للنظام وللبناء الاجماعى ثم تنتقل منها الى الشخصية والتنظيم الاجتماعى٠

وفيما يتعلق بمفاهيمها السـائدة فهى تتسم بكونها مفاهيم لا تاريخية ، بمعنى أنهـا تستبعد البعد التاريخى اللازم لفهم الظواهر الاجتماعية ، وتتصـف بمســـتوى عال من العمومية ، وتركز تركيزاً شديداً على الجوانب الفردية ٠

والهدف النهائى لكل مجموعة المفـاهيم التى تستخدمها هو تثبيت عدد من الاحكام الاساسية اما بطريقة تتسم بالتعميم كالحكم الخاص بأن «**لكل نظام اجتماعى وظائفه التى يقوم بها** » (بما فى ذلك الجريمة والانحراف الاجتماعى بوجه عام) ، أو بطريقة نسبية كتأكيد ضرورة الحفاظ على نظام أجتماعى محدد فى مرحلة تاريخية محددة ٠

● **نظرتها للمشكلات الاجتماعية وللانحراف :**

تنطلق هذه النظرة أولا من معـــايير محددة تحدد تعريف الصحة والمرض ٠ فالصحة تتساوى مع القيم الموجودة فى مجتمع معين ، أو مع تلك التى تعتنقها جمـــاعة مســـيطرة فى المجتمع ٠ **ولذلك يمكن القول أنه تعريف ايديولوجى، بمعنى**



أنه يعمد الى تزييف الواقع الاجتماعى خدمة لمصالح طبقة اجتماعية معينة .

وهى تنظر الى السلوك المنحرف باعتباره مرضيا ويؤثر على قيام النظام الاجتماعى بوظائفه. أما تفسيرها للانحراف وللمشكلات الاجتماعية فهو يعتمد على مفهوم «تصدع القيم» Anomy ، وترده الى الافتقار الى الضبط control الفعال لسلوك الجماعات المتصارعة فى النظام الاجتماعى ، وهى لذلك تعتبر كل هذه الظواهر ضربا من ضروب عدم الاتزان أو الاهتزاز المؤقت للمجتمع الموجود.

ولكن ما هى الاجراءات الكفيلة بالحد من هذه الظواهر وتحسين الاوضاع ؟

الاجراء الأساسى لدى هذه النظرة هو بسط نطاق الضبط الاجتماعى ، بمعنى محاولة صياغة القيم الأساسية التى يقوم عليها النظام الاجتماعى بصورة أكثر تحديدا وضمان قيام المؤسسات المختلفة فى المجتمع بحمايتها ، ومن **ناحية أخرى بذل الجهود نحو تكييف الافراد مع احتياجات النظام الاجتماعى** ، بما يتضمنه ذلك من ضرورة العمل والسلوك داخل اطار النظام الاجتماعى بمواضعاته السائدة ، وبمفترضاته التى يقوم عليها وعدم الخروج عن حدوده ، **وتلجأ أخيرا الى اتباع وسائل ادارية** لمحاولة حل المشكلات الاجتماعية ويتسم أنصار نظريات التوازن بكونهم محافظين من وجهة النظر السياسية ، ويتركز جهدهم فى الحفاظ على المراكز التى تحتلها الجماعات المسيطرة ، والتى يرمز اليها أحيانا «بالمؤسسة» the establishment وهم لذلك غالبا ما يعملون فى تنسيق واضح مع المسئولين عن هذه المؤسسة .

اتجاه الصراع

تتفق نظريات الصراع على رفضها لنموذج التوازن باعتباره أساسا لفهم المجتمع المعاصر . وهى تكيف التحليل الذى تقدمه نظريات التوازن باعتباره يمثل استراتيجية جماعة حاكمة ما ، ويقوم بدور التأييد لقيمها ودوافعها ، ويلعب دور التبرير لكل الاجراءات التابعة التى تلجأ اليها هذه الجماعة الحاكمة فى اطار ماتطلق عليه زيادة فاعلية وسائل الضبط الاجتماعى .

والمجتمع ـ بالنسبة لنظريات التوازن ـ عبارة عن نسق طبيعى ، غير أنه بالنسبة لمنظرى الصراع عبارة عن صراع سياسى محتدم بين جماعات متصارعة فيما يتعلق بأهدافها أو بنظراتها الاجمالية للحياة . ومنظر الصراع ـ اذا ما كان

فوضـــويا ـ قــد يعارض أى فكرة تتعلق بثبات السلطة أو باستقرار النظام ·

أما اذا كان ماركسيا ملتزما ، فانه لا يعارض فكرة النظام فى ذاتها ، ولكنه يتطلع لتطبيقها فى المستقبل بعد تحطيم المجتمع الطبقى ، واقامة المجتمع الاشتراكى على أنقاضه· وعلى ذلك فالنظام يمكن تحقيقه ، ولـــكن ليس باصطناع وسائل الضــبط الاجتماعى كمـــا تدعو لذلك نظريات التوازن ، ولكن عن طريق اعادة التنظيم الاجتماعى بصورة جذرية للحياة الاجتماعية كلها · وعلى ذلك فالنظام ينــجم عن شروط التنظيم الاجتماعى ، وليس مجرد ناتج من نواتج التكامل الثقافى فى المجتمع ·

والتحليل الصراعى conflict analysis **مرادف للتحليل التاريخى ، فتفسير العمليـات المتداخلة بين الانساق الاجتماعية يعتمد على رصد التحولات التى تصيب العلاقات الاجتماعية ·**

ويعتمد هـــذا التحليل على مفهـــوم أساسى لوصف التغير التاريخى والاجتماعى الذى يتضمن نشأة ضروب « جديدة » من السلوك ، لا ضروب «منحرفة» كما تذهب الى ذلك نظريات التوازن ، وهو مفهوم «الاغتراب» · والتغير هو الاستجابة التقدمية لحالة الاغتراب ·

ولاتولى نظريات الصراع أهمية لمصطلحـــات التفكك الاجتماعى والانحراف ، فهى مصطلحات تركز عليها نظريات التوازن ، وتبدى اهتماما بما تعتبره اتجـــاهات سلبية بالنـــظر الى النظام والاستقرار الذى تدعو للحفاظ عليه ·

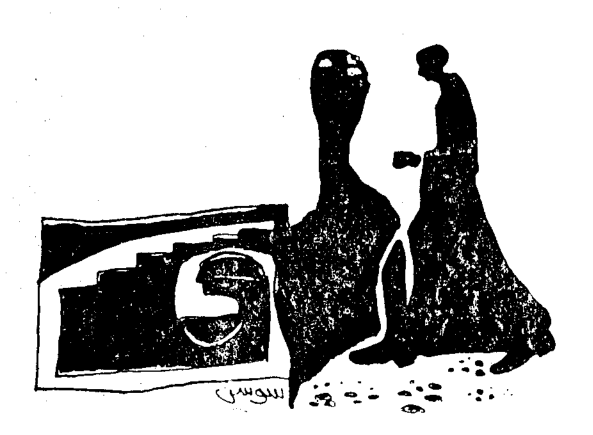
وفى نطاق اطار الصراع ، نجـد أن مشكلة السواء والانحراف همـــا أساسا مشكلة عملية يتـــوقف حلهـــا على نتيجة المعركة التى ستشن للقضاء على الاغتراب ·

ومع ذلك يمـكن القـــول ان نظرية الصراع تتضمن تعريفا خاصا للصحة أو السواء ، غير أن القيم الكامنة وراءه تشير الىمتطلبات النمو والتغير أكثر من اشارتها الى التكيف مع ضروب التطبيق السائدة ، أو مع الاحتياجات المفترضة للحفاظ على النظام الاجتماعى القائم · فالصحة والمرض تعرف على ضـــوء الاحتيـاجات المفترضة للنمو الفردى والاجتماعى ·

والمشكلات الاجتماعية تنجم أساسا عن ضروب التطبيق الاغترابية للجماعات المسيطرة · **وعلى ذلك فالمشكلات الاجتماعية ـ فى نظرية الصراع ـ لا تعـــكس المشـــكلات الادارية للنظام الاجتماعى القائم ، ولا فشل الافراد فى القيام بالأدوار التى أعدوا ونشئوا اجتماعيا للقيام بها ، ولكنها تعكس فشل المجتمع فى التــكيف مع مطـــالب الافراد واحتياجاتهم المشروعة ·**

ويكشف عن هذا النهج فى تفسير المشكلات الاجتماعية تعريف السواء المتضمن فىتحليل عالم الاجتـــماع الأمريكى بول جودمان ـ الذى ينتمى لحركة اليسار الجديد ـ لمشكلة الجناح فى المجتمع الامريكى · فهـــو على عكس تالكوت بارسونز ، لا يعرف الانحراف باعتبـــاره ذلك السلوك الذى لا يتطابق مع قيم النظام الاجتماعى ، وذلك لأنه يذهب الى أن الجناح ليس رد الفعل على استبعاد بعض الأفراد من اطـار هذه القيم ، وليس مجرد مشكلة تتعلق بعملية تنشـئة اجتماعية خاطئة · فالقيم والتطبيقات السائدة فى المجتمع محطاتمن العبث الاعتماد عليها ، لأنهـــا لا تقـدم للشباب ما يحتـــاجونه لكى ينموا وينضجوا ويتطوروا · ولعل عبارات جودمان نفسها تكشف عن نهجه فى التحليل بصورة أعمق ·

يقـــرر جودمان أنه « **كما كان متوقعا ، فان غالبية السلطـات وجميع المتحـــدثين الرسميين يفسرون الجناح بقولهم انه نتيجه عملية تنشئة اجتماعية خاطئة · وهم يقولونان العوامل المتعلقة بالخلفية الاجتماعية قــد أحدثت الاضطراب فى عملية التنشئة (الاجتــماعية ، ولذلك لا بد من تحسينها · ولكن قد لا يكون قد حدث خطأ ما فى عملية التواصل · لعل الرســالة الاجتماعية قد سرت بوضوح من خلال قنوات الاتصــال للشباب غير أنها رفضت ·**





ولذلك سأتخذ .. الموقف المضاد لأسأل : تنشئة اجتماعية لأى شىء ؟ لأى مجتمع مسيطر ولأى ثقافة متاحة ؟(١٢) »

وعلى ضوء العرض السابق نستطيع أن نخلص الى أن أنصار نظرية الصراع يتساءلون بلا انقطاع عن شرعية التطبيقات القائمة ، وعن نوعية القيم السائدة ، هذه التطبيقات وتلك القيم التى يقبلها أنصار نظرية التوازن باعتبارها هى ذاتها معايير الصحة والسواء ·

غير أن عرضنا لاتجاه الصراع لا بد له لكى يكتمل من استعراض المكونات الاساسية للنظرة الاجمالية للحياة التى يصدر عنها ، وسنرى أن هذه النظرة هى القطب المضاد تماما لكل مكونات النظرة الاجمالية للحياة لنظريات التوازن التى عرضنا لها فيما سبق ·

- **النظرة الاجمالية للحياة فى نظريات الصراع**
- **منظورها الاجتماعى الكامن واتجاهها ازاء القيم:**

تبدو هذه النظرة أولا فيما يتعلق بصورة المجتمع لديها بين الجماعات الاجتماعية المتصارعة فى أهدافها وفى نظرتها للحياة · والناس بالنسبة لها هم المجتمع ، فليس عندها هذا الفصل المصطنع الذى رأيناه عند نظريات التوازن بين أعضاء المجتمع والمجتمع ذاته · فالمجتمع لديها هو امتداد للانسان ·

أما فيما يتعلق بنظرتها الى الطبيعة الانسانية فهى تركز على عنصر العمل وتنظر للانسان باعتباره الخالق الايجابى لنفسه وللمجتمع من خلال الفعل الاجتماعى العملى والمستقبل ·

واذا نظرنا الى عالم القيم نجدها تركز على الحرية والتغير والعمل ، وتهدف الى تحقيق النمو والتطور بصورة كيفية عن طريق التغيير الاجتماعى الجذرى·

- **طريقتها فى التحليل العلمى :**

النموذج الأمثل لهذه النظرة الاجمالية للحياة هو النموذج التاريخى ، وهى تهدف أساسا الى تحقيق الفهم من خلال التحليل التاريخى للحوادث المتفردة والمتغيرة · وقد تلجأ الى صياغة قوالب نموذجية ideal types للتعميمات المقامة على أساس أنماط تاريخية محددة ·

وفيما يتعلق بالسببية فهى تميل الى التركيز على العامل الواحد ، وقد تصوغ تعميمات نظرية واسعة أو محدودة حسب الأحوال ، غير أن أهم ما يميزها هو الوحدة الكاملة بين النظرية والتطبيق فى مجالات البحث الاجتماعى والعمل الاجتماعى ·

ونظرتها للموضوعية العالمية نظرة واقعية ، فهى تنظر لها على ضوء المصالح التى يهدف الباحث الى تحقيقها ، ولذلك فهى تناقش الموضوعية فى اطار الذاتية ، وتتبنى نظرية فى معرفة تتسم بالايجابية ·

وتبدأ تحليلاتها بالتركيز على تنظم الأنشطة الاجتماعية أو بحاجات الانسان المتنامية أو بضرورة الحفاظ عليها ، ثم تنتقل منها لبحث الثقافة ·

أما مفاهيمها السائدة فهى تتسم بكونها تاريخية ودينامية ، ولا تميل الى التعميم الواسع المدى بقدر ما تركز على التحدد التاريخى · والهدف النهائى لكل مجموعة المفاهيم التى يستخدمها هو

وترى أن الاجراءات الكفيلة بالتغيير تتمثل فى التقاء على وسائل الضبط الاجتماعى التقليدية ، والتعديل الجذرى لأنماط التفاعل الموجودة ، والتغيير الثورى للنظام الاجتماعى .

ويتميز أنصار نظريات الصراع باتجاهاتهم السياسية التقدمية وهم لذلك لصيقون باليسار سواء منه القديم أو الجديد .

٦ ـ محاولة التوفيق الفاشلة بين الاتجاهين :

يتبين مما سبق بجلاء ووضوح أن اتجاهى التوازن والصراع اتجاهين يقفان على طرف نقيض سواء فى منطلقاتهما النظرية أو فى النتائج العملية التى يمكن أن تترتب على تبنى أيهما كنظرةاجمالية للحياة تحدد سلوك أعضاء المجتمع فى حقبةتاريخية معينة .

وقد وجهت انتقادات عديدة الى نظريات التوازن ولذلك حاول عدد من أنصارها أن يثبتوا أن نظريات التوازن ـ على عكس مايرميها خصومها ـ قديرة على تفسير التغير الاجتماعى (١٣) ، وعلى فهم الجوانب المتعددة فى الصراع الاجتماعى .

ولعله من بين أهم هذه المحاولات مقال فاندنبرج P. Vanden Berghe « **الجدل والوظيفية : نحو تركيب نظرى** » التى ظهرت فى المجلة السوسيولوجية فى اكتوبر عام ١٩٦٣ .

وقد زعم فاندنبرج أنه وجد أربعة جوانب التقاء بين الجدلية (أو نظريات الصراع) وبين الوظيفية (أو نظريات التوازن) وهى كما يلى :

- أن كلا النهجين approaches يتسمان بأنهما ينزعان نحو الشمول فى الوصف وفى التفسير .

- انهما يتفقان فى الدور الذىينسبانه للصراع وللرضا أو الاتفاق الاجتماعى وللتكامل وللتفكك .

- أنهما يصدران عن مفهوم تطورى للتغير الاجتماعى .

- أن كلتا النظريتين تنهضان أساسا على نموذج واحد للتوازن الاجتماعى .



ولا يتسع المقام امامنا لكى نناقش محاولة فاندنبرج بالتفصيل ، ونعتقد أن عرضنا المفصل للفروض النظرية لكل من نظريات التوازن والصراع يكفى للرد على محاولات التقريب الفاشلة بينهما (١٤)

ونستطيع على ضوء العرض السابق أن نربط بين النظرية والتطبيق ، ونعنى بين اتجاهات التوازن والصراع فى النظرية الاجتماعية المعاصرة على المستوى النظرى ، وبين التطبيق السياسى والاجتماعى والاقتصادى على المستوى العملى فى البلاد النامية ، التى تخوض معركة التغييرالاجتماعى فى ظروف بالغة الصعوبة . فأغلبها لم يضع نفسه بعد على بداية طريق الثورة الصناعية(١٥) ، فى حين أن بعض الدول المتقدمة ودعت عهد الثورة الصناعيه ، ودخلت فعلا عهد الثورة العلميه والتكنولوجية كالاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الامريكية ، وتحاول باقى الدول الصناعية اللحاق بهذين العملاقين من خلال التكتل السياسى والاقتصادى كما هو الحال بالنسبة للسوق الأوربية المشتركة .

وكان على البلاد النامية أن تختار بين اتجاه التوازن واتجاه الصراع وذلك لفهم مجتمعاتها أولا وللانطلاق ثانيا نحو التنمية الاجتماعية والانسانية الشاملة .

Foucault, M., Les mots et les choses, une archéologie des sciences humaines, Paris : Gallimard, 1966.

Baumont, M., L'essor industriel et l'impérialisme colonial, Paris : P.U.F., 1949.

(٣) أنظر : السيد يس ، علم اجتماع المعرفة : تعريفه ومنهجه ومجالات بحثه ' المجلة الاجتماعية القومية (تحت الطبع) .

Zeitlin, I., Ideology and the development of Sociological theory, New Delhi : Prentice-Hall of India, 1969.

Aron, R., Les étapes de la pensée sociologique, Paris : Gallimard, 1967.

Durtheim, E., De la division du travail social, Paris : F. Alcan, 5ème éd., 1926.

Durkheim, E., Socialism, edited by Gouldner, A.W., N.Y. : Collier Books, 1962.

Gurvitch, G., Le problème de la conscience collective dans la Sociologie de Durkheim, ch. VIII, in : La vocation actuelle de la socialogie T. 2, Paris : P.U.F., 1963.

(٨) انظر المرجع الثانى الذى يضم مجموعة من دراساتهم :

Rosak, T., The dissenting academy, U.S.A. : Vintage Books, 1968.

(٩) انظر في هذا الصدد الدراسة الموسوعية لعالم الاقتصاد واالسويدى الشهير جونار ميردال :

Myrdal, G., Asian Drama, An inquiry into the poverty of nations, 3 vol., Pinguin Books, 1968.

(١٠) سنعتمد فى هذا العرض أساسا على الدراسة التالية :

Horton, J., Order and conflict theories of social problems as competing ideologies, in : Amer. J. of Soc.

Lemert, E., Social Pathology, N.Y., 1951.

Goodman, P., Growing up Absurd, N.Y. : Randon House, 1960, p. 11, cited in : Harton, op. cit.

(١٣) أنظر على سبيل المثال :

Cancian, F., Functional analysis of change, Amer. Soc. Rev., Vol. 25, No. 6, 1960, 818-827.

(١٤) أنظر مناقشة نقدية عميقة لآراء فاندنبرج فى :

Frank, A.G., Fonctionalisme et dialectique, in : L'Homme et la Société, No. 12, 1969, 139-150.

Stavenhagen, R., Les classes sociales dans les sociétés agraires, Paris : Anthropos, 1969.







د. سمير نعيم أحمد

رأينا من عرضنا لنتائج البحوث والدراسات التى أجريت عن انتشار وتوزيع تعاطى المخدرات بين الفئات الاجتماعية المختلفة أن تعاطى المخدرات ينتشر بين الشباب بصفة خاصة وأنه يتجه الى الانتشار بين الأصغر سنا عنه بين الأكبر سنا (من المراهقة حتى سن الأربعين تقريبا) كما رأينا أنه ينتشر أكثر بين فئات العمال والفلاحين ثم الموظفين والطلاب ، كما ينتشر بين الذكور أكثر منه بين الاناث(١) ٠

ويدلنا التأمل فى هذه النتائج أن تعاطى المخدرات ينتشر بين القوة الانتاجية العاملة فى المجتمع (شباب العمال والفلاحين والموظفين من الذكور) ويدعونا ذلك الى تساؤل هام جدا : ما هو تأثير تعاطى المخدرات على الانتاج الاجتماعى ؟ وترجع أهمية هذا التساؤل الى حقيقة أن مجال الانتاج لمستلزمات الحياة هو أهم نشاط للانسان فى المجتمع يؤثر على كافة أوجه النشاط الأخرى وعلى تقدم المجتمع ورفاهيته ٠ واذا عرفنا وفهمنا حالة الانتاج وتطوره فى مجتمع ما فاننا نستطيع أن نفهم حالة الحياة الروحية والثقافية والصحية والاجتماعية والتعليمية ٠٠ الخ فيه ، وأسلوب تطورها وتقدمها أو أسباب تخلفها ٠ ولذلك فاننا سنبدأ بالحديث عن آثار تعاطى المخدرات على الانتاج ثم نتناول بعد ذلك بالتفصيل آثاره المباشرة وغير المباشرة على مختلف جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية ٠

أولا : تأثير المخدرات على الانتاج الاجتماعى :

أ ـ تأثير تعاطى المخدرات على الفرد وانعكاسه على انتاجيته :

تدل نتائج البحوث التى اجريت على مختلف أنواع المخدرات أن تعاطى وادمان المخدرات يؤثران على انتاجية الفرد فى العمل وذلك من خلال ما يطرأ عليه من تغيرات كنتيجة مباشرة

للتعاطي وأن هذا التأثر يتناول الانتاج كما وكيفا ٠

فقد تبين من بحث تعاطي الحشيش الذي أجراه المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية (٢) **أن انتاج المتعاطين يقل تحت تأثير التعاطي وفي اليوم التالي للتعاطي عن حالته العادية لديهم ٠ أما في حالة « الخرمان » فان الانتاج ينخفض بدرجة بالغة ٠** هذا من حيث الكم أما من حيث الكيف فانه يهبط كذلك ويبدو أن تأثير التخدير على جودة الانتاج يمتد الى اليوم التالي للتعاطي ولكن بصورة مخفضة قليلا ٠ أما حالة الخرمان فيصحبها انخفاض شديد للجودة، وتعلق هيئة بحث تعاطي الحشيش بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية (والتي كان المؤلف عضوا بها) على ذلك بقولها:

« هنا في هذا النوع من البيانات يبدو أثر بالغ السوء لتعاطي الحشيش ، ولو أننا تصورنا عملية الانتاج في مجموعها ، أي على نطاق المجتمع وأخذنا بما توحي به تقارير المضبوطات الصادرة من مكتب مكافحة المخدرات ، وهي توحي باتساع نطاق انتشار الحشيش بين مختلف فئات المجتمع ، واذا أضفنا الى ذلك ما تدل عليه البيانات الخاصة بأسئلة الانتشار في هذا البحث الراهن من أن الحشيش منتشر بين معظم الفئات العاملة وأن العمال بوجه خاص يأتون على رأس القائمة في ضخامة الانتشار ، اذا جمعنا هذه الخيوط كلها في بؤرة ضيقة أمكن لنا أن نتبين جسامة الضرر الذي ينزل بالانتاج في المجتمع نتيجة مباشرة للتعاطي » ٠

وقد توصل هذا البحث الى التعرف على بعض العوامل المرتبطة بهبوط الانتاج تحت تأثير المخدر (الحشيش) ٠ فقد اتضح ان أهم الاضطرابات التي تحدث لدى المتعاطي أثناء التخدير وترتبط بهبوط هذا الجانب الكمي من الانتاج اضطراب ادراك الزمن ويليه في الأهمية اضطراب ادراك الاصوات ثم اضطراب ادراك الالوان ثم قلة وضوح الرؤية للأشخاص والاشياء واضطراب ادراك المسافات واختلال ادراك الحجوم ٠ كما أن اضطراب الذاكرة وانخفاض كفاءة التفكير يرتبطان بانخفاض الجانب الكيفي من الانتاج أي جودته ٠

وفي البحث المتعمق الذي أجراه « سعد المغربي » عن تعاطي الحشيش أورد نتائج كثير



من البحوث التى أجريت فى مناطق مختلفة من العالم على تأثير تعاطى هذا المخدر على انتاجية الافراد نذكر منها البحوث التالية . (٣)

أشار « وولف » Wolf (٢) الى التجربة التى قام بها ثلاثة من الأطباء العقليين على أربعة أطباء بالعيادة السيكوباتية بمدينة Recife بالبرازيل ، تعاطوا الحشيش بكميات مختلفة ولوحظت عليهم الاعراض حتى اليوم التالى ووصفوا تأثير المخدر على العمل بقولهم « بعد انتهاء الآثار الأساسية للحشيش ـ والتى استمرت أكثر من ساعتين ـ ظل جميع الأطباء موضع التجربة يعانون من صداع واسترخاء عميق وعدم القدرة على أى عمل ذهنى مهما كان بسيطا تافها ، ثم إتجاه واضح للنوم العميق ... كما لوحظ أن حالة الاسترخاء وعدم القدرة على العمل قد امتدت خلال صباح اليوم التالى» (٤) .

ويقول بوكيه J. Bouquet أنه ببحث حالات الكثير من مدمنى الحشيش فى تونس ، وجد أنهم متدهورون فى عملهم ، تقل صلاحيتهم للعمل تدريجيا . كما وجد ارتباطا بين حالات التدهور فى القدرات العقلية وبين ادمان الحشيش فى الحالات الخطيرة . وكذلك وجد أن التدهور الصحى يسير جنبا الى جنب مع ادمان الحشيش . (٥)

ويقرر « وولف » فى كتابه السابق الاشارة اليه أن تعاطى المخدر يعود بأسوأ النتائج على الفرد . **فالموظفون ورجال الاعمال الذين عرف عنهم النشاط وكانوا موضع الثقة،** تأثروا فى أخلاقهم وكفاءتهم الانتاجية وتحولوا بفعل المخدر الى اشخاص يفتقرون الى الطاقة المهنية والحماس والارادة اللازمة لتحقيق واجباتهم العادية والمألوفة . والحشيش يجعل من الذين يتعاطونه أشخاصا كسالى سطحيين غير موثوق بهم ، ذوى اتجاهات خشنة وكلها لم تكن معروفة لديهم قبل التعاطى . وبالاضافة الى ذلك يظهر الاهمال واضحا فى سلوكهم كما تنحرف مشاعرهم العادية ومداركهم الاخلاقية .

وفى الدراسة التى قام بها « فردمان وركمور » Freedman and Rockmore على متعاطى الحشيش من جنود الجيش الامريكى فى الحرب العالمية الأخيرة وجد أن هؤلاء الجنود كانوا يتركون معسكراتهم بغير اكتراث ويذهبون لتعاطى الحشيش بالرغم من علمهم بأن ذلك يعرضهم للمحاكمة العسكرية . مما يدل على الاهمال وعدم الاكتراث .

ويذكر سعد المغربى أيضا نتائج بحث « كوبرا وكوبرا » فى الهند والتى اتضح منها بصفة عامة أن الأغلب فى متعاطى الحشيش بالهند انهم يتصفون بالكسل والتراخى والتغافل ـ ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن الحشيش يرتبط بضعف الانتاج ونقص الكفاية الفردية . كما أن التدهور الجسمى والعقلى العام الذى قد يحيق بالتعاطى من شأنه بالضرورة أن يؤدى الى تدهور آخر فى كفاءته الانتاجية ومستوى أدائه لعمله .

وتتفق نتائج البحث الذى أجراه سعد المغربى فى مصر على عينة من متعاطى المخدرات مع هذه النتائج من حيث أن الآثار المباشرة للتخدير تعمل على تخفيض مستوى الانتاج وأن التدهور يزداد بزيادة كمية المخدر المتعاطاه . وهذه النتائج تؤيدها المظاهر النفسية التى لوحظت على الأشخاص موضع التجربة والتى تدل على التعويق الذى يمر به الفرد أثناء العمل وهو تحت تأثير المخدر . ويورد « سعد المغربى » تقديرات بعض المتعاطين عن تأثير الحشيش على الانتاج نذكر منها التقرير التالى لشخص متعلم تعليما عاليا ، ويشغل وظيفة محترمة وله تجربة طويلة فى تعاطى المخدرات :

« ان الحشيش يصيب الجسم بحالة كسل وتراخ ... والمتعاطى يقدم على العمل ولكن سرعان ما تتلاشى الآمال التى صمم الفرد على تحقيقها وهو يدخن الحشيش ، ويحلم بعالم ينزل فيه وعليه المن والسلوى ... يعنى أنه يصمم على العمل ولكنه لا يستطيع الاستمرار فيه وسرعان ما يتخلص ويؤجل ... وفى اليوم التالى يذهب الى عمله بالعافية ويتمنى أن يكون يوم اجازة » .

وتدل نتائج البحوث التى أجريت على المخدرات الأكثر خطرا مثل الأفيون ومشتقاته أن آثار هذه المخدرات الصحية والنفسية تصيب الوظيفة الانتاجية للأفراد باضطراب شديد .

وهكذا يتضح لنا من نتائج الدراسات التى عرضناها وجود ارتباط موجب بين تعاطى الحشيش وتدهور مستوى الانتاج كما ونوعا . ولكننا على الرغم من وجود هذه العلاقة الثابتة نود أن نوجه النظر الى بعض الأسئلة فيما يتعلق بتفسيرها مثل : **هل كان مستوى انتاج الأفراد**

سيرتفع لو لم يتعاطوا المخدرات ؟ أم أن مستوى انتاجهم كان سيظل منخفضا لأنهم كانوا سيتجهون الى سلوك آخر غير التعاطى يحدث نفس التأثير على الانتاج ؟ وهل يمكن اعتبار المخدر السبب المباشر فى انخفاض الانتاج أم يجب أن نبحث عن السبب الأصلى وغير المباشر الذى أدى الى تعاطى المخدرات أصلا ثم أدى بعد ذلك الى انخفاض الانتاج ؟

ب ـ تأثير تعاطى المخدرات على انتاجية المجتمع بصفة عامة :

ان الظروف الاجتماعية الاقتصادية التى تؤدى الى تعاطى المخدرات وبالتالى تؤدى الى انخفاض انتاجية قطاع من الشعب العامل تؤدى أيضا الى ضروب أخرى من السلوك تؤثر أيضا على انتاجية المجتمع مثل تشرد الاحداث واجرامهم وادمان الخمور والبغاء والجريمة وادمان القمار والرشوة والاختلاس والفساد والمرض العقلى والمرض النفسى والاهمال واللامبالاة ... الخ فكل هذه الانواع من السلوك يأتيها أناس فى المجتمع . والانسان كما تثبت لنا كل الدراسات الانسانية الحديثة نتاج الظروف الاجتماعية التى يعيش فيها ، فهو يختلف أساسا عن الحيوان فى أنه كائن اجتماعى وليس مجرد كائن بيولوجى . ولذلك فان التى تحكم تطوره ونموه وسواءه أو اضطرابه هى القوانين الاجتماعية وليست القوانين البيولوجية . وحين يصاب قسم من المجتمع بالاضطراب نتيجة للظروف التى يحيا وينشأ فيها فان اضطرابه لا يقتصر أثره عليه وحده ولكنه يمتد ليشمل المجتمع بأسره ... **وتعاطى المخدرات لا يؤثر على المتعاطين فقط أو حتى لا يؤثر على المجتمع من خلال تأثيره على المتعاطين فقط ولكنه يؤثر على كل أوجه نشاطه تقريبا** . أى أن متعاطى المخدرات لا يتأثر وحده بانخفاض انتاجيته فى العمل (فيطرد من عمله أو يقل ايراده) ولا يؤثر على انتاجية المجتمع لانه يقلل من انتاجية المتعاطى فقط ، ولكنه يخفض انتاجية المجتمع بصفة عامة للاسباب الآتية :

أولا : يؤدى انتشار تعاطى المخدرات الى انشغال عدد كبير من أفراد المجتمع الذين لايتعاطون المخدرات عن الوظائف الانتاجية المباشرة التى تسهم فى تطور المجتمع ونموه بوظائف غير انتاجية مثل رعاية المدمنين فى المستشفيات وحراستهم فى السجون هم وتجار المخدرات المحكوم عليهم ومطاردة مهربى المخدرات وتجارها ومحاكمتهم .. الخ فحين تنتشر ظاهرة تعاطى المخدرات لا بد أن يؤدى ذلك الى تضخم فى عدد أفراد الشرطة وموظفى السجون والمستشفيات والمحاكم فمن أين تأتى هذه الاعداد من الناس ؟ ألا تستمد من المجتمع ومن قوته الانتاجية البشرية ؟ فاذا لم تكن ظاهرة تعاطى المخدرات بهذه الحدة فى مجتمع ما لأمكن أن يتجه هؤلاء الأفراد الى أعمال انتاجية أو صحية أو تعليمية أو ثقافية أو ترفيهية ... الخ ومعنى ذلك ان تعاطى المخدرات لا يشل القدرة الانتاجية للمتعاطين فقط ولكنه يشل القدرة الانتاجية لهذا القطاع الاكبر من الجمهور الذى يتعامل معهم .

ثانيا : وبالاضافة الى هذه الخسارة التى تلحق بالقوى الانتاجية البشرية فى المجتمع نتيجة لانتشار تعاطى المخدرات توجد الخسارة المادية الاقتصادية التى تتمثل فى المرتبات التى يحصل عليها المشتغلون بعلاج ومكافحة المشكلة وفى النفقات الباهظة التى تستهلكها عمليات العلاج والمكافحة والمؤسسات التى تنشأ من أجل ذلك وفى عملية الانفاق على المتعاطين أنفسهم داخل السجون أو المستشفيات أو حتى خارجها . وهذه المبالغ التى تنفق فى هذه النواحى غير الانتاجية كان من الممكن أن توجه الى الاستثمار فى عمليات الانتاج لتعود على المجتمع بالفائدة بدلا من أن تضيع بهذه الكيفية لو لم تكن هناك مشكلة تعاطى المخدرات . فتعاطى المخدرات اذا يمثل عبئا كبيرا على الدخل القومى من هذه الناحية .

ثالثا : هناك خسارة مادية أخرى كبيرة تلحق بالمجتمع ككل وتؤثر عليه تتمثل فى المبالغ التى تنفق على المخدرات ذاتها . فاذا كانت هذه المخدرات تزرع فى المجتمع الذى تستهلك فيه فان معنى ذلك اضاعة جزء من الثروة القومية يتمثل فى الأرض التى كان من الممكن استغلالها فى زراعة ما هو أنفع للمجتمع من المخدرات وفى الجهد البشرى الذى يستهلك فى زراعتها ثم فى اعدادها للاستخدام بدلا من استغلاله فى انتاج مواد أكثر ضرورة وفائدة للمجتمع . واذا كانت المخدرات تهرب الى المجتمع من

مصادر خارجية فان مبالغ كبيرة تخرج من المجتمع (عادة فى صورة عملة صعبة مهربة أو عن طريق تهريب السلع أو عمليات المقاصة) وكان من الممكن استغلال هذه المبالغ فى استيراد آلات للانتاج أو للتعليم أو للصحة أو فى استيراد سلع استهلاكية ضرورية للجمهور ٠

ولما كنا لا ننظر الى تعاطى المخدرات باعتبارها مشكلة أو ظاهرة منفصلة عن غيرها من المشكلات أو الظاهرات فى المجتمع **فاننا يجب أن نضيف دائما تكاليف وأعباء هذه المشكلة وتأثيرها السيء على انتاجية ورفاهية المجتمع الى تكاليف وآثار غيرها من المشكلات (مثل البغاء والجريمة وتعاطى الخمور ٠٠ الخ)** والتى أثبتت البحوث العلمية الحديثة أن جذورها جميعا تكاد تكون واحدة ، بل انها كثيرا ما تحدث سويا مع بعض الاختلافات فى التفاصيل ، لكى يتضح لنا مدى ما يلحق بالمجتمع ونشاطه الانتاجى من ضرر بليغ ، ومدى الحاجة الملحة الى حلول جذرية تقضى على الظروف المشتركة التى تنتج هذه الامراض الاجتماعية وتساعد على انتشارها ٠

ح : تأثير تعاطى المخدرات على الحياة الأسرية :

أن الاسرة هى أول بيئة اجتماعية انسانية تستقبل الوليد الانسانى كما أنها المجموعة التى يقضى فى ظلها الفرد فترة طويلة وحاسمة من حياته ولذلك فان البيئة الاجتماعية الاسرية تلعب الدور الأول فى تشكيل شخصية ونمو الفرد ٠ وهذه البيئة الاسرية هى الوسيط الأول الذى تمر من خلاله تأثيرات البيئة الاجتماعية الواسعة فى المجتمع الى الفرد ٠ فكل فرد يولد فى أسرة وكل أسرة توجد (فى المجتمع الطبقى) بوصفها عضوا فى طبقة اجتماعية اقتصادية ، وكل طبقة توجد داخل تكوين اجتماعى اقتصادى معين فى فترة ما من فترات التطور التاريخى الاجتماعى ٠ وعلى ذلك فان الشخصية الانسانية تكون فى نهاية الامر محصلة لكافة ضروب العلاقات الاجتماعية فى المجتمع ٠ وحين يقول البعض بأن الاضطراب الاسرى هو الذى يؤدى الى انتشار ظاهرة مرضية ما مثل تعاطى المخدرات فانهم يغفلون هذه الحقائق البسيطة ، ويتجاهلون التفكير فى سؤال هام وحاسم هو . وما الذى أدى الى انتشار هذا الاضطراب الأسرى فى مجتمع ما وفى فئة معينة منه وفى فترة تاريخية محددة ؟

وهكذا يتضح أننا بازاء دائرة متصلة من العلاقات بين العوامل : خلل فى العلاقات الاجتماعية السائدة فى المجتمع وفى تنظيمها يؤدى الى اضطراب فى الاحوال الأسرية يظهر فى صور مرضية مختلفة ، من بينها تعاطى المخدرات ، تؤدى بدورها الى اضطراب فى العلاقات الأسرية وهكذا تستمر الحلقة التى لا يمكن أن تقطع الا اذا طرأ تغيير جوهرى وجذرى على العلاقات الاجتماعية ونظامها فى المجتمع ٠

واذا كنا نعتبر تعاطى المخدرات مثل غيره من الامراض الاجتماعية نتاج لخلل فى العلاقات الاجتماعية ونظامها فى المجتمع فاننا حين نناقش آثاره المباشرة على الحياة الأسرية يجب أن يكون ماثلا أمام أذهاننا السبب الرئيسى وراء تعاطى المخدرات بحيث نعتبره المسئول عن كل من التعاطى وما يترتب عليه من اضرار بالحياة الأسرية ٠

ان تعاطى المخدرات (شأنه شأن البطالة والمرض العقلى والجريمة والبغاء وادمان الميسر ٠٠ الخ) يصيب الأسرة والحياة الأسرية اصابات بالغة سواء فى تكوينها أو بنائها أو فى وظيفتها الاساسية فهو :

أولا : يمثل عبئا اقتصاديا شديدا على ميزانية الأسرة حيث ينفق الوالد المتعاطى جزءا كبيرا من دخله (وأحيانا ما يكون الجزء الاعظم فى حالة المخدرات التى تؤدى للادمان مثل الافيون) للحصول على المخدر ومستلزماته ويؤثر ذلك بالطبع تأثيرا خطيرا على الحالة المعيشية العامة للأسرة من الناحية السكنية والغذائية والصحية والتعليمية والترفيهية والاخلاقية ٠ ولا يستطع أفراد الاسرة الحصول على احتياجاتهم الاساسية واللازمة للمعيشة الكريمة مما يضطر الأم وصغار الابناء فى أحوال كثيرة الى الاتجاه للعمل الذى لا يكونون على استعداد له وما يدفعهم بدوره الى أعمال غير مشروعة أو غير اخلاقية وقد يستطيع أفراد الاسر الغنية تجنب هذا المصير ، ولكن أفراد الأسر الفقيرة ذات الدخل المحدود لا يستطيعون مواجهة الحياة حين يبتلع تعاطى المخدرات الجزء الأعظم من ميزانية الأسرة ٠ واذا عرفنا أن تعاطى المخدرات أكثر انتشارا بين الأسر الفقيرة عنه بين الاسر الغنية

أدركنا مدى وحجم الخسارة فى أفراد المجتمع نتيجة مباشرة للتعاطى ونتيجة غير مباشره للظروف التى أحدثت لتعاطى ·

ثانيا : لما كان انفاق جزء كبير من ميزانية الاسرة على المخدر بدلا من اشباع الحاجات الضرورية لأفراد الأسرة فى حد ذاته يعنى عدم تقدير للمسئولية من جانب المتعاطى واهمال لواجب أساسى له فانه بذلك يقدم نموذجا سلوكيا لأفراد الاسرة وخاصة للاطفال فلا ينشأ ولا ينمو لديهم مثل هذا الشعور بالمسئوليه وتقدير الواجب لاجيال أسرهم فى المستقبل فحسب ولكن حيال أى واجبات اجتماعية أخرى وخاصة اذا لم يكن بالاسرة (النووية أو الممتدة) من يستطيع أن يقدم نموذجا مخالفا للأطفال ·

ثالثا : بالاضافة الى الآثار الاقتصادية لتعاطى المخدرات على الاسرة **نجد أن جو الاسرة العام للمتعاطى يسوده التوتر والشقاق والخلافات بين أفرادها** · فلا شك فى أن انفاق الوالد المتعاطى للمخدرات لجزء كبير من دخل الاسرة على المخدر يثير مشاعر الحنق والغضب لدى باقى أفراد الاسرة ، علاوة على ما يرتبط بالتعاطى من عادات لا تكون مقبولة غالبا من جانب باقى أفراد الاسرة مثل تجمع عدد من المتعاطين فى المنزل وسهرهم الى ساعات متأخرة· ولما كان تعاطى المخدرات محرما فان أفراد الاسرة يعيشون دائما فى حالة خوف وقلق شديدين لوجود المخدرات فى المنزل وتعرضهم لمهاجمة الشرطة ·

وقد دلت البحوث على أن أسوأ الحالات التى يمر بها المتعاطى (وخاصة مدمن الافيون ومشتقاته) هى حالات عدم توفر المخدر له لأى سبب كان · ففى هذه الحالات يعانى المتعاطى من أعراض نفسية وجسمية حادة تنعكس آثارها على كل افراد الاسرة · وقد اتضح من بحث الحشيش الذى أجراه المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، أن الخلافات التى تحدث بين المتعاطى وبين زوجته واولاده تزداد بدرجة كبيرة فى حالة « الخرمان » حيث يكون أكثر ميلا اذا استثاره أحد الى الضرب والسب والمقاطعة عنه فى حالته العادية (حين لا يكون مخدرا) وعنه فى حالة التخدير · ويمتد تأثير هذه الحالة خارج نطاق الأسرة الى الرؤساء فى العمل والمرؤوسين والى الاصدقاء والزملاء بل وحتى الجيران والاغراب · ومما لا شك فيه أن ما قد يحدث من مشكلات مع الجيران والاغراب ينعكس أثره على الأسرة بصفة عامة · وقد ذكرت الغالبية العظمى لافراد بحث تعاطى الحشيش أنهم ليسوا على وفاق مع زوجاتهم · ونظرا لأن تعاطى المخدرات يرتبط بصفة عامة ببعض الاضطرابات النفسية (سواء كسبب للتعاطى أو كنتيجة له) فان **متعاطى المخدرات لا تكون لديه عادة القدرة التامة على رعاية ابنائه وتنشئتهم التنشئة السوية مما يترتب عليه حدوث الانحرافات السلوكية والامراض النفسية للابناء ونموهم نموا غير سوى ·**

ولا تخفى علينا بالطبع خطورة اتجاه أفراد الاسرة الى تعاطى المخدرات ــ فقد اتضح أن نسبة كبيرة من متعاطى المخدرات نشأوا فى أسر كان الآباء الاخوة الكبار فيها يتعاطون المخدرات ــ على الجو الاسرى كله وعلى جميع أفراد الاسرة ومستقبلهم · ومن الواضح ان أكثر الأسر تأثرا باضرار التعاطى هى الاسر الفقيرة (وهى تمثل القطاع الاكبر من أسر المتعاطين) · ومن الواضح أيضا أن اضطراب الجو الاسرى بهذه الكيفية وما يحدثه من خلل فى بناء شخصية أفرادها ينعكس على المجتمع الكبير بصورة خطيرة · فانتاجية أفراد الاسرة فى عملهم تتأثر بالضرورة بحالتهم النفسية وبمشكلات حياتهم اليومية · كما أن كل ابن فى الاسرة سوف يقوم بتكوين اسرة خاصة به فى وقت ما فاذا كان قد أصيب بالاضطراب أو بالادمان فان أسرته الجديدة سوف تكون هى الاخرى فى الغالب عرضة للاضطراب ·

د ــ تعاطى المخدرات والجريمة :

يثير موضوع العلاقة بين تعاطى المخدرات والسلوك الاجرامى مناقشات وخلافات كثيرة بين دارسى هذا الموضوع لعدة أسباب من بينها أن الارتباط بين تعاطى المخدرات وارتكاب السلوك الاجرامى يختلف من منطقة لاخرى · ففى الوقت الذى تبين فيه بعض الدراسات الامريكية وجود علاقة بين تعاطى المخدرات والجريمة وانتشارها فى منطقة معينة، تدل بعض الدراسات والملاحظات العربية أن تعاطى المخدرات ينتشر بدرجة كبيرة

فى مناطق تقل فيها الجريمة كثيرا عن غيرها (مثل الريف) • والسبب الثانى هو كيفية تفسير هذا الارتباط بين السلوك الاجرامى وبين الجريمة (ان وجد) • أيهما السبب وأيهما النتيجة أم انهما نتاج شيء مشترك • ويمكننا بصفة عامة القول بأن ما نعرفه عن الآثار النفسية والجسمية والسلوكية للمخدرات (وخاصة الحشيش والافيون) لا يبرر لنا استنتاج أن متعاطى هذه المخدرات يميلون الى ارتكاب الجرائم، وخاصة جرائم العنف كسبب مباشر للتعاطى ولكن متعاطى المخدرات قد يرتكب الجريمة لاحد الأسباب الآتية :

أولا : أن تعاطى المخدرات وحيازتها تمثل فى حد ذاتها جريمة يعاقب عليها القانون **وهكذا فان متعاطى المخدرات يدرك دائما انه يخالف القانون ، ويمكن ان يشجع الاعتياد على مخالفة أحد القوانين على مخالفة غيره من القوانين •**

ثانيا : نظرا لاعتبار متعاطى المخدرات مجرما وايداعه السجن مع غيره من مرتكبى غير ذلك من الجرائم فانه يكون عرضة للتأثر بهم ولاستمالتهم له لارتكاب جرائم أخرى • وكثيرا ما يحدث ان تلجأ العصابات الاجرامية الى جذب أعضاء جدد لها من بين المسجونين فاذا أضفنا الى ذلك المعاملة التى يلقاها متعاطى المخدرات بعد خروجه من السجن وخاصة فقدانه لفرص العمل أدركنا مدى تعرضه للسلوك الاجرامى •

ثالثا : لما كان تعاطى المخدرات (وخاصة التى تحدث الادمان) يتطلب نفقات باهظة وخاصة لعدم مشروعية الحصول عليها ولما كان دخل المتعاطى لا يكفى الانفاق على المخدر فانه قد يلجأ الى سلوك مثل السرقة للحصول على النقود اللازمة لشراء المخدر •

رابعا : كثيرا ما تكون عصابات المخدرات التى تقوم بالتهريب والاتجار والتوزيع تمارس أنواعا أخرى من النشاط الاجرامى • وفى هذه الحالة فانها تستغل الحاجة الشديدة للمتعاطى للمخدر وعدم قدرته على شرائه فى اجبار المتعاطى على الاشتراك فى أعمال اجرامية وتدربه عليها ، كأن تجبر النساء مثلا على ممارسة البغاء والرجال على التهريب أو السرقة أو اخفاء المسروقات •

خامسا : فى حالات كثيرة يلجأ المجرمون الى تعاطى المخدرات وفى هذه الحالة لا يكون السبب فى اجرامهم التعاطى ولكنه يكون مرضا آخر مصاحبا للاجرام •

ومن الادلة التى تساق على أن العلاقة بين تعاطى المخدرات والجريمة ليست علاقة سببية ما لوحظ من أن افراد بعض الفئات ذات الدخول العالية مثل الأطباء والصيادلة الذين يدمنون المخدرات وتكون هذه المخدرات فى متناول أيديهم وفى حدود امكانياتهم المادية لا يرتكبون فى الغالب أى جرائم ، اللهم الا الحصول على المخدر بطرق غير مشروعة تماما •

خلاصة

اتضح لنا من هذا العرض للآثار الاجتماعية والاقتصادية لتعاطى المخدرات ، أن الظروف الاجتماعية الاقتصادية التى تؤدى الى انتشار تعاطى المخدرات بين فئات المجتمع تقع عليها أيضا مسئولية نتائج تعاطى المخدرات التى يمكن تلخيصها فيما يلى :

أ ـ آثار ضارة على كم وكيف الانتاج الفردى للمتعاطى •

ب ـ آثار ضارة على الانتاج الاجتماعى بصفة عامة وعلى برامج التنمية ، وخاصه فى الدول المتخلفة تتمثل فى فقدان الطاقة الانتاجية البشرية (المتعاطين وأسرهم والمشتغلين بالمكافحة والعلاج •• الخ)

جـ ـ آثار ضارة على الاسرة من الناحية الاجتماعية والاقتصادية تنعكس على المجتمع بأسره •

د ـ آثار غير مباشرة تتمثل فى السلوك الاجرامى والانحرافى •

---

(١) انظر مقالنا فى عدد اغسطس (٧٠) من الفكر المعاصر •

(٢) « تعاطى الحشيش » ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ـ التقرير الثانى • القاهرة ، ص ١٧٨ ـ ١٨١

(٣) سعد المغربى : ظاهرة تعاطى الحشيش • دار المعارف ، ١٩٦٣ •

وجوه العقل الثلاثة

صفوت فرج

تتزايد معرفتنـــــا بحقائق العلم ـ فى كل فروعه ـ يوما بعد يوم بدرجة تجعل رغبة العالم شديدة فى الوصول الى النظرية العـامة التى يمكنها أن تشكل فى بناء منطقى واحد مجموعة الحقائق المختلفة التى حصل عليها ٠

وهذه الرغبة أكثر قبولا فى مجال العـلوم الطبيعية منها فى مجال العلوم الانسانية ، ففى المجال الاول تتميز الظواهر بكونها أكثر تحددا وأكبر ثباتا وأكثر شمولا من ظواهر العـلوم الانسانية ٠

فالموقف اذن تحوطه العـديد من المزالق فى مجال الانســانيات بوجه عـام وعلم النفس على الخصوص ٠

وقد كان التقدم الحقيقى لعلم النفس فى الحقبة الاخيرة نتيجة مباشرة للمحاولات الدائبة الجادة للامساك بالظاهرة النفسية الجزئيـــة والمحدودة ومحاولة اخضاعها للفحص والتجريب ودراستها فى علاقاتها بالعديد من المتغيرات ، والابتعاد بأكبر قدر ممكن عن المفاهيم العامة والانساق الكبرى التى تميل لتفسير كل الظواهر من خلال اطار واحد ٠

ويزداد الامر صعوبة ـ أمام الرغبة فى تكوين الانساق والنظريات ـ اذا كانت هذه الرغبــة تتجه الى مجال العقل الانسانى وقدراته ، صحيح أن للعقل منطقا ـ كما أن له أساليبه المحـددة وقواعده ، بالاضـافة الى ماالديه من قدرات غير محدودة ، وهـــذا كله أدعى لأن تكون محاولة الوصول الى تحليل دقيق يربط فى نظام عـام بين هـذه القدرات ، ومن خـلال تشريح نفسى تجريبى من أصعب الأمور ٠

غير أن جيلفورد لا يخشى هذه المغامرة ويتقدم نحوها معتمدا على أساسين هامين ٠

الاول : هو الحصيلة التجريبية الفريدة لبحوث القدرات المختلفة سواء التى حصل عليها هـــو ومعاونوه من برنامج قياس الاســتعدادات فى جامعة جنوب كاليفورنيا والذى امتد لأكثر من عشر سنوات أو ما توصل اليه غيره من العلماء المعروفين أمثال تيرمان وبينيه وثرستون ٠

والثانى : هو الامكانية الضخمة ذات الطابع الرياضى لأسلوب التحليل العاملى الذى اكتشفه سبيرمان والذى تطور على امتـــداد هذا القرن

تطورا محسوسا أتاح للتجريب فى علم النفس معالجات باهرة •

فمن مجموع الحقائق الناتجة عن البحـوث التجريبية الحديثة نجد بحوث الذكاء وقد زودتنا بقدر واف من المعلومات عن طبيعة هذا النشاط العقلي ونجد ذلك المقياس الممتاز الذى عدلتـه جامعة ستانفورد عن بينيه ، كما نجد الحقـائق المختلفة عن العديد من القـدرات العقلية التى درسها وفحصها ثرستون • كمـا نتبين أيضا الكثير من الحقائق التى حصل عليهـا جيلفورد من بحوث الاستعدادات والقـدرات من برنامج الاستعدادات على رجال القوات الجوية الامريكية •

وفى الجانب الآخر كان هناك التحليل العاملى ، وهو تكنيك رياضى يستخدم فى وصف وتلخيص مجموعات كبيرة من الحقـائق المختلفة التى نعبر عنها بأسلوب الارتباطات • فمن دراسـتنا وتجريبنا على عدد من المتغيرات النفسية المختلفة والتى نصمم الدراسة الخاصة بها على أساس انها تفحص قطاعا عقليا أو نفسيا معينا ، يمكننا أن نحصل على مصـفوفة من معاملات الارتباط بين عـدد من المتغيرات تمثل العـلاقات المتعددة فيما بينهـا، وبقـدر ما تتزايد هـذه العلاقات تكون الصورة العـامة أكثر دقة ، الا أنها تصبح أكثر غموضـا وتعقيدا ، وهنا تصبح الحاجة ماسـة لأسلوب جديد وخصب يمكنه تناول هذه الصورة المعقدة بالوصف الدقيق والتلخيص الواضـح • وتظهر هذه الامكانية الفريدة لأسـلوب التحليل العاملى فى كونه الوسـيلة المناسبة والمحسوبة الدقة للقيام بتلخيص ووصف هذا العدد الكبير من الحقائق المتشـابكة التى تضمهـا مصفوفة ارتباطية •

والواقع أن التحليل العـــاملى يتميز بميزة أخرى : فهو بالنسبة للباحث ــ الذى يتميـز بخيال علمى خصب ، وبقـــدرة على اكتشاف علامات الاستفهام أكبر من ميله لقبول الحقـائق المبـاشرة ــ أسلوب مناسـب يزوده بفروض جديدة اذ يساهم فى ابراز بعض السـمات ذات الخصائص المشتركة التى لم تكن جاذبة الانتباه قبل أن تتشكل فى صورتها العاملية الجديدة ، وهو الامر الذى يؤدى فى الكثير الى اعادة النظر الى حقائقنا فى أضواء جديدة أو الى اعادة التجريب لفحص فروض عاملية خصبة •

ومن هذا المنطلق يبدأ جيلفورد فى تقـديم نظريته عن ابعاد العقل الثـلاث ، وهى نظرية موحدة عن العقل الانسانى ، تنتظم القـدرات العقلية الاولية والفريدة فى نظام واحـد يدعى البناء العقلى Structure of Intellect •

ومن خلال دراسات القدرات المتعـددة ومن خلال التحليلات العاملية التى تناولت هـذت القدرات وضح وجود أداء متميز على عـدد من العوامل Factors وأمكن تفسير هذا الاداء المتميز فى ضوء منـطق سـيكلوجى ، أدى الى تقرير عدد من العوامل ــ أو القدرات ــ العقلية الواضحة التى اكتشفت عن طريق التحليـل العاملى •

الا أنه ــ خلال العشرين عاما الماضية ــ ظهرت امكانية تصنيف هذه العوامل نفسها فى فئات حيث تتشابه عوامل كل فئة فيما بينها على عدد من الاسس المعينة •

وجوه العقل الثلاثة :

ويمكننا أن نقوم بتصنيف هذه القدرات على أسس ثلاث مختلفة ، وهذه الاسس الثـلاثة تمثل ثلاثة أبعاد تدور فيها هذه القدرات • وكل قدرة تندرج تحت هذه الفئات الثلاثة معا ولكن بمعنى مختلف •

فنحن نستطيع أن نصنف قدراتنا على أساس من العملية العقلية التى تتضمنها operation أو على أساس مضمون هذه القدرة أو بنـاء على الانتاج الخارجى لها product •

ولكن ما الذى نعنيه بالعملية والمضمـون والانتاج ، ماذا نعنى بهذه الوجوه الثـلاثة للقدرة ؟ •

العمليات العقلية :

يقوم هذا الاساس من أسس التصـنيف على تحديدنا لطبيعة العملية العقلية التى تمثلها أحد القدرات أو هى الديناميات العقلية التى يترتب عليها نوع معين من الانتاج العقلى ذو مضـمون معين •

ويمكن لهذا الأساس للتصنيف أن يمدنا بخمس مجموعات رئيسية للقدرات العقلية : **قـدرات معرفيـة** cognetive **وقدرات التذكر** • memory **وقدرات التفكير فى نسق مفتوح** Divergent thinking **وقدرات التفكير فى نسق مغلق** Convergent thinking **وقدرات التقييم**

ونقصد بالعوامل ـ القدرات ـ المعرفيه مجموعة القدرات الخاصة بالاكتشاف أو اعادة الاكتشاف أو التعرف على الحقائق المختلفة ٠

أما فى مجال الذاكرة فالقدرات هنا هى الخاصة بحفظ واستعادة ما عرف من قبل ٠

وفى مجال عمليات التفكير الانتاجى فهناك نوعان من المعلومات ، ينبثقان عنها وهما يبنيان على معلومات معروفة بالفعل ومعلومات تم تذكرها ٠

النوع الاول هو التفكير فى نسق مفتوح حيث نقوم بالتفكير فى عدة اتجاهات ، أحيانا نبحث وأحيانا نسعى الى الاختلاف والتميز ٠

والنوع الثانى هو التفكير فى نسق مغلق حيث تكون هناك نتيجة واحدة صحيحة أو تكون هذه النتيجة هى أحسن اجابة تقليدية معروفة ٠

وفى مجال التقييم فاننا نسعى الى اصدار قرارات عن أشياء أو مواقف أو حلول كأن نقرر أنها أفضل أو أصح أو أوفق أو أنسب ما نعرف وما نتذكر وما ننتج ٠

المضمون :

الاساس الثانى أو الاسلوب الثانى فى التصنيف للعوامل العقلية يقوم على نوع المواد أو المحتويات المتضمنة ، فالمضمون هو طبيعة المادة التى تتكون حولها القدرة ، والعوامل التى أمكن استكشافها حتى الآن تتكون من ثلاثة أنواع من المضامين ٠

الاول هو المضمون الشكلى Figural والذى نقصد به المواد المشخصة التى تدرك من خلال الحواس والتى لا تمثل شيئا الا نفسها ، من ذلك خصائص المواد المرئية من حجم وشكل ولون وحيز ٠ وخصائص المواد المسموعة من نغم أو ايقاع أو ذبذبة ٠ والامثلة كثيرة فى مجال المادة الشكلية ٠

النوع الثانى هو المضمون الرمزى symbolic أو الذى يتكون من رموز مثل الحروف والارقام والعلامات التقليدية الاخرى ، والتى تنتظم عادة فى نسق كالابجدية أو نسق الارقام ٠ النوع الثالث هو المضمون اللفظى symantic ونقصد به التعبير اللفظى للمعانى أو الافكار المختلفة ٠

الانتـــاج :

أمكننا الآن أن نتعرف على بعدين من أبعاد العقل ،العملية العقلية أوالميكانيزم الذى يدورفيه التفكير ، ومضمون هذه العملية ، وكل عملية ذات مضمون ما ، وباختلاف المضمون بين شكلى ورمزى ولفظى يمكننا أن نحصل على ستة أنواع من الانتاج لكل عملية ذات مضمون محدد فاما وحدات units أو فئات classes أو علاقات relations أو نظم systems أو تحويلات transformations أو تضمينات implications

وقد كانت هذه الانواع الستة من الانتاج هى ـ على ما يذكر جيلفورد ـ الانواع المختلفة التى تمكنا من تحديدها بواسطة التحليل العاملى ٠

ويمكن استخدام هذه الانواع أو التصنيفات كفئات تندرج تحتها كل أنواع المعلومات النفسية ٠

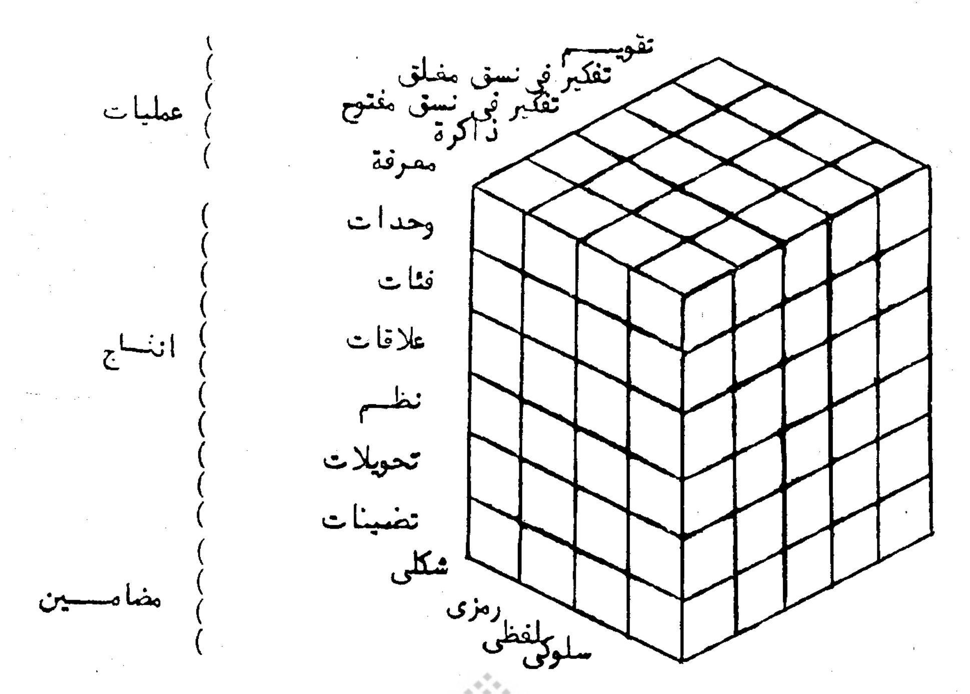
البناء العقلى :

والآن ومن خلال هذا التصنيف يمكننا أن نتبين ثلاثة أبعاد للعقل بحيث أن أية مادة عقلية لابد أن يكون لها هذه الوجوه الثلاثة ٠

فلدينا العملية العقلية ولدينا المضمون ولدينا الانتاج ، ويمثل جيلفورد التصنيفات الثلاث السابقة فى شكل يطلق عليه اسم البناء العقلى وهو شكل ذو ثلاثة أبعاد ويمثل كل بعد من هذه الابعاد طرازا من طرز التباين للعوامل ، فعلى امتداد أحد الابعاد توجد الانواع المختلفه للعمليات ، وعلى امتداد البعد الثانى توجد الابعاد المختلفه للمضمون وعلى امتداد البعد الثالث توجد الأنواع المتعدده للانتاج ٠ وقد أضيفت على البعد الخاص بالمضمون فئه رابعة أطلق عليها اسم المضمون السلوكى Behavioral ويذكر جيلفورد أن هذه الفئة أضيفت على أساس نظرى بحت لتمثل ذلك المجال الذى يطلق عليه أحيانا اسم الذكاء الاجتماعى ٠

كيف نفهم البناء العقلى ؟

للوصول الى أساس أفضل لفهم هذا الشكل الثلاثى الابعاد ، ولأساس أفضل لقبوله على أنه صورة للعقل الانسانى ، فان جيلفورد يقوم بعدة فحوص منظمة فيه مقدما بعض الامثلة الايضاحية ٠



فكل خليه من خلايا الشكل تبين نوعا محددا من القدرات التى يمكن وضعها بأسلوب العمليات والمضمون والانتاج واى اختبار يصمم لقياس أحد القدرات لابد أن تكون له هذه الخصائص الثلاث .

القدرات المعرفية .

من خلال فحص منظم للشكل ، ومن تناولنا لشريحة رأسية فى كل مرة مبتدئين بالوجه الامامى سنجد أن الشريحة الاولى تمدنا بمصفوفة مكونة من ثمانى عشرة خلية (دون حساب العمود السلوكى والذى لاتوجد له بعد عوامل معروفة) تحتوى كل خلية على قدرة معرفية .

وفى كل صف من صفوف الوجه الامامى يمكننا أن نحصل على ثلاث قدرات معرفية ذات نوع واحد من الانتاج .

ففى الصف الاول تظهر القدرات المعرفية للوحدات الشكلية ، وللوحدات الرمزية والوحدات اللفظية وفى الصف الثانى تظهر القدرات المعرفية للفئات الشكلية والفئات اللفظية ، وهكذا .

غير أن السؤال الذى يبدو هاما هنا هو : ما الذى نقصده بدقة من قولنا القدرات المعرفية للوحدات الشكلية ؟ .

اذا كان فى مقدورنا تصور اختبار يطلب فيه من المفحوص التعرف على خصائص صور لبعض الموضوعات رغم طمس بعض أجزاء هذه الموضوعات فى الصورة ، فان قدرة المفحوص على استخلاص خصائص هذه الموضوعات واستخلاصها من أرضيتها وتمييزها تمثل قدرة معرفية للوحدات الشكلية .

وفى مجال التعرف على الوحدات الشكلية نجد أيضا الوحدات السمعية فى تكويناتها الموسيقية ، والقدرة على التعرف على الانغام ، وعلى بعض خصائص الحديث أو التكوينات الموسيقية اللحنية melodies تعد أحد قدرات التعرف على الوحدات الشكلية .

واذا انتقلنا الى المضمون اللفظى فسنحصل على قدرة جديدة للتعرف على الوحدات اللفظية .

أما اذا انتقلنا من البعد الخاص بالانتاج من صف الوحدات الى صف الفئات فسنحصل أيضا على ثلاث قدرات جديدة تختص بالتعرف على الفئات الشكلية والرمزية واللفظية .

ومن وسائل اختبار القدرة على التعرف على الفئات اللفظية أن نقدم للمفحوص مجموعة من الكلمات ونطلب منه تصنيفها فى فئتين كتصنيف الكلمات الآتية فى فئة ماله أسنان وما هو

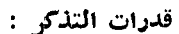
حيوان : مشط ، ترس ، رجل ، دجاجة ، قرد ، مفتاح ، عصفور ، قلم ، تمساح ٠

ولقياس القدرة على التعرف على النظم يمكن استخدام الاختبارات الخاصة بالفهم العام general reasoning والتى يتضمن بعضها فقرات للبرهنه الهندسية ، على أن نميز هنا بدقة بين مطلبنا وهو الوصول الى الحل ، وبين القدرة على التعرف على الفئات اللفظية وهى هنا مجرد التعرف على كيفية بناء المشكلة بدقة وحيث يمكن أن تقاس باختبار على النحو التالى :

أى العمليات الحسابية نحتاجها لحل هذه المشكلة ؟ :

قطعة أرض مساحتها ٤٨ قدم عرضا ، ١٤٩ قدم طولا ، يتكلف بناؤها ٧٨٤٣ جنيها فما تكاليف بناء القدم المربع ؟

(أ) اجمع واضرب ٠
(ب) اضرب واقسم ٠
(ج) اطرح واقسم
(د) اجمع واطرح
(هـ) اقسم واجمع ٠



قدرات التذكر :

اذا انتقلنا الآن الى الشريحة الثانية لنتناول قدرات التذكر فسنجد أنه البعد الذى اكتشف فيه أقل عدد من العوامل ، ولدينا الآن عوامل معروفة للذاكرة البصرية والذاكرة السمعية وذاكرة سلاسل الحروف والارقام ، كما يمكن رد ذاكرة الافكار الواردة فى فقرة الى مفهوم ذاكرة الوحدات الملفظية ، واذا فحصنا اختبارات التداعى المعروفة فسنجد أنها تقيس فى الواقع ذاكرة العلاقات اللفظية ٠

وهناك قدرتان اكتشفتا فى هذه الشريحة يتعلقا بتذكر النظم اللفظية والشكلية ، ففى مجال تذكر النظم الشكلية يمكن قياس القدره بواسطة اختبار يطلب تذكر ترتيب بعض الاشياء فى فراغ ما ٠

وفى مجال تذكر النظم اللفظية يكون المطلوب من الشخص تذكر بعض الوقائع المحددة بين عدة وقائع ٠ وتوحى التفرقة بين هاتين القدرتين أن الشخص قد يكون قادرا على القول أين شاهد شيئا ما فى صفحة من كتاب ، غير أنه قد لا يكون قادرا على تذكر فى أية صفحة شاهدها اذا ما قلب عدة صفحات من هذا الكتاب بينها الصفحة التى يبحث عنها ٠

قدرات التفكير فى نسق مفتوح :

الخاصية الفريدة للانتاج فى نسق مفتوح هى تنوع الاجابات المنتجة والتى لا تحددها تماما المعلومات المعطاة ، وعلينا هنا أن لا نرتب نتيجة على هذا القول مؤداها أن العمليات العقلية المؤدية الى نتيجة وحيدة لا تشملها هذه الفئة ، فالواقع أن التفكير فى نسق مفتوح يؤدى دوره حينما يوجد أسلوب المحاولة والخطأ ٠

واذا عدنا للشكل لنحاول استطلاع القدرات الخاصة بهذا المجال فى بعديها الآخرين ،فيمكننا أن نتبين أحد قدرات الوحدات الرمزية للتفكير فى نسق مفتوح ونعنى بها الطلاقة اللفظية ، ويمكننا قياسها بسؤال المفحوص أن يسرد أكبر قدر من الألفاظ التى تستغرق حرفا معينا مثل الكلمات التى تبدأ بحرف S أو الكلمات التى تنتهى بـ Tion ، وهى هنا قدرة رمزية بمعنى أن اهتمامنا لا يتجه للألفاظ من حيث ما تتضمنه من معنى أو من حيث كونها مسميات لأشياء ، بل ينصب اهتمامنا فى الالفاظ بوصفها رموزا فى نسق معين ، أما القدرة اللفظية الموازية لها فقد تميزت عنها وأصبحت تعرف باسم الطلاقة الفكرية ideational fluency ويمكننا قياسها بسؤال المفحوص أن يذكر الاشياء المستديرة الناضجة مثلا ٠ ويذكر جيلفورد أن ونستون تشرشل ربما كان مالكا لهذه القدرة بدرجه عالية فقد كتب عنه كليمنت اتلى أنه لا يوجد أمر ما متعلق بأية مشكلة الا ويبدو لدى تشرشل عنه عشرة أفكار ، ويضيف اتلى قائلا أن المشكلة فى الامر هى أنه لا يستطيع أن يعرف أى هذه الأفكار هو الارض ، والاشارة الاخيرة تعنى بعض الضعف فى واحدة أو أكثر من القدرات التقييمية ٠

وفى مجال فئات الافكار يمكننا أن نتبين سمات لعامل جديد هو ما نطلق عليه اسم المرونة التلقائية ، وبأسلوب المقاييس أيضا يمكننا أن نوضح طبيعة هذه القدرة ، فهنا يطلب من المفحوص أن يذكر كل الافكار التى تدور فى ذهنه حول أداة معينة أو شىء معين خلال وقت محدد ٠ وقدرة المفحوص على الخروج من فئة الى فئة من فئات الاستخدام المختلفة للشىء هى التى نقصدها بالمرونة التلقائية spontaneous flexibility أما قدرته على ذكر العديد من الاستخدامات سواء أكانت هذه الاستخدامات فى فئة واحدة أم فى عدة فئات فانها تعبر عن الطلاقة الفكرية ٠

وفى صف التحويلات من مصفوفة الانتاج من نسق مفتوح بعض العوامل المشوقة ، أحـدها المرونة التكيفية adaptive flexibility وتعد أحد عوامل العمود الشكلى ، ومن أفضـل الاختبارات لقياسها اختبار أعواد الثقاب ، والذى يعتمد على اللعبة المعروفة التى تستخدم فيهـا المربعات ، ويطلب من المفحوص أبعاد عدد معين من الاعواد ليترك عددا معينا من المربعات ، دون أن تحـدد له شروطا تختص بحجم المربعات التى سيتركها ، فاذا وقع المفحوص فى تصـور أن المربعات لابد أن تكون بنفس الحجم فستترتب على ذلك فشله فى محاولته الوصـول الى الحلول الصحيحة ٠

قدرات التفكير فى نسق مغلق :

أمكن حتى الآن اكتشاف أغلب قدرات التفكير فى نسـق مغلق والمتوقعة فى أعمدة المضـمون الثلاث ، فى الصف الأول ــ الوحـدات ــ لدينا القدرة على تسمية الخصائص الشكلية (تكوينات ، ألوان) والقدرة على تسمية المجردات ، (فئات ، علاقات) ٠

كما أن لدينـا عاملا للنظم اللفظية ويمـكن اختباره بفئة من البنود يطلب فيها من المفحوص أن يقوم بترتيب عدد من الأحداث التى ينتظمها فى المعتاد ترتيب منطقى ثابت ، وتقدم الأحداث فى غير انتظام ، كما يمكن أن تقدم مصـورة مثلما يحدث فى اختبارات ترتيب الصـور أو الكلمات ٠

وفى مجال التحويلات ــ حيث نعنى القدرة على الوصول الى حل واحد بقرار حاسم من معلومات معطاة ــ نجد عاملا رمزيا للقـدرة العددية ــ والقدرة الموازية له فى العمـود الشـكلى هى ما نقيسها باختبارات البرهنة الهندسـية حيث تحدد بعض العمليات المكونة من أشكال النتيجة الصحيحة للمشكلة ٠

وفى العمود اللفظى ، فان العامل الذى نطلق عليه أحيانا اسم الاستنباط يعد مناسبا لقياس هذه القدرة ٠

القدرات التقييمية :

يعد مجال التقييم أقل المجالات التى حظيت بالبحوث من بين فئات العمليات ويقصد بالتقييم هنا القدرة على اتخاذ قرارات مثل الصـحة أو التفضيل أو اعتبار الشىء مناسبا أو القدرة على تناول المعلومات وفحصها ٠

وتختلف المعايير أو المستويات الخاصـة بالحكم بين كل صف من صفوف هذه الفئـة بالنسبه للنوع الخاص من الانتاج لهذا الصف ٠

وفى تقييم الوحدات ، نجد أن القرار الهام الذى يجب الوصول اميه يتعلق بماهيه الوحدة ٠ وفى العمود الشكلى نجد العامل المعروف منـذ زمن على أنه سرعه الادراك والاختبارات الخـاصة بهذا العامل تهدف بنفس الطريقة لقياس القدرة على اتخاذ قرار بالمطابقة ٠

وفى العمودالرمزى توجد قدرة الحكم على تطابق الوحدات الرمزية ــ من ذلك أن نسأل المفحوص هل أعضاء هذه الازواج متطابقة أم لا ؟ ٠

825170493 dkeltvmpa C.S. Mayerson
82176943 dkeltvmpa C.E. Meyerson

والعديد من هذه البنود شائع فى اختبارات الميول الكتابية ، ويوجد عامل مواز لتقرير ما اذا كانت فكرتين متطابقتين أم لا ٠ كما أن تقييم الانظمة يتعلق بالاتساق الداخلى بين هـذه الانظمة ٠ ولقياس هذه القدرة نقدم بعض الرسوم لمواقف أو أبنية ويسأل المفحوص ما هو الخطـأ فى هذه الصورة وغالبا ما تكون الاخطـاء فى صميم الاتساق الداخلى ٠

وهناك العديد من القدرات التى تشغل خلايا ثلاثية الابعاد فى الشكل والتى يمكننا افتراضها نظريا ثم تصميم دراسة عاملية للتثبت منهـا ٠

والآن ما هو مدى قبولنا لأفكار جيلفورد فى هذا المجال ؟ ان نظرة فاحصة للعرض السابق تؤكد أن ما قام به جيلفورد ما هو الا تحليـل ماهر للقدرات العقلية ، تنـاول فيه القدرة فى أبعادها المختلفة ، وكان بناؤه العقلى نتيجـة لذلك اتجاها تحليليا أكثر منه اتجاها تركيبيـا يهدف لبناء نظرية ، واستطاع بذلك أن يقـدم منطقا واضحا يمكن من خلاله أن ننمى من خيالنا العلمى ونقدم فروضا جديدة ، قابلة للاختبـار التجريبى ٠

وقد تناول جيلفورد فى سلسلة من البحوث التجريبية العـديد من عوامل البنـاء العقلى لاختبارها ٠ وفى مجال عوامل التفكير فى نسق مفتوح والتقييم نجد أن الدراسات التجريبيـة أدت الى التحقق من الكثير من هذه القدرات ، فقد ثبت بواسطة البحوث التى تسـتخدم منهج التحليل العـاملى ــ وما يتضمنه من امكانيات احصائية ورياضية لمعالجة النتائج ــ وجـود قدرات المرونة والطـلاقة والاصالة والحساسـية

للمشكلات ، وأمكن عن طريق اجراء المزيد من البحوث تنقية عدد من هذه القدرات والحصول على تصنيفات داخلية لها والتعرف على قدرات نوعية جديدة ٠

غير أن السؤال الذى يظل على درجة كبيرة من الأهمية هو : **ما مدى ثبات هذه العوامل التى استخلصها جيلفورد ومعاونوه فى دراساتهم ؟ وما مدى تأثر هذا الثبات بالاختلافات الحضارية ؟ وما هى محكات الثبات المقبولة فى هذا المجال ٠**

نقصد بالثبات العاملى قابلية العامل لاعادة الانتاج بين دراسة وأخرى وترتفع درجة ثبات العامل كلما احتفظ بالقدر الاكبر من سماته وخصائصه فى كل مرة أنتج فيها ٠ ولقد أمكن اعادة انتاج العديد من عوامل البناء العقلى فى بحوث جيلفورد ومعاونيه ٠

وأجريت فى مصر بعض الدراسات بناءا على بحوث جيلفورد ـ وحيث نقر هنا بالفروق الحضارية الكبيرة بيننا وبين المجتمع الامريكى ـ كان لابد لهذه الدراسات أن تستخدم نفس الادوات التى استخدمت فى بحوث جيلفورد بعد أن قامت بتقنينها واعداد بنودها للتمشى مع حضارتنا وخصائصها ، وأخذت أيضا بأسلوب التحليل العاملى فى معالجة النتائج ، فما الذى توصلت اليه ؟ ٠

توصل عبد الحليم محمود فى دراسة له باشراف الدكتور مصطفى سويف الى استخلاص ثلاثة عوامل عقلية تتفق فى شكلها العام مع نتائج جيلفورد ، وقد أمكن استخلاص عامل عام للتفكير فى نسق مفتوح يتضمن أغلب العوامل فى هذه المصفوفة ، وفى المجال النوعى أمكن استخلاص عاملين أحدهما للطلاقة الفكرية ـ وهو عامل ضعيف طبقا للمحكات المنهجية المتفق عليها ـ وهو من عوامل التفكير فى نسق مفتوح والثانى للمشكلات وهو من عوامل التقييم وقد تشبعت عليه بعض القدرات من مناطق أخرى خارج مجال التقييم ٠

وفى دراسة حديثة لكاتب هذه السطور باشراف الدكتور مصطفى سويف أيضا أمكن استخلاص أربعة عوامل ابداعية صممت الدراسة لفحصها هى عوامل : الأصالة والمرونة والطلاقة والحساسية للمشكلات من عوامل مصفوفتى التفكير فى نسق مفتوح والتقييم ، وفى ضوء منطق جيلفورد فى البناء العقلى فحصت قدرة أخرى افترضها الدكتور سويف هى القدرة على الاحتفاظ بالاتجاه Maintaining direction بوصفها عاملا عقليا ابداعيا وقد أوضحت الدراسة أنها عامل ذو طبيعة خاصة اذ يحتل خليتين من خلايا العمليات ـ لا خلية واحدة كما يفترض جيلفورد ـ هما التفكير فى نسق مفتوح والتقيم ، ويقتصر انتاجها على فئة واحدة هى العلاقات ـ بعكس ما يرى جيلفورد من امكانية وجود انتاج متنوع ـ وليس غيرها من أنواع الانتاج ٠

وقد أوضحت هذه الدراسة من خلال ستة تحليلات عاملية مستقلة قابلية هذه العوامل لاعادة الانتاج وبنفس الخصائص تقريبا ٠

غير أن درجة الثبات فى الدراسة لعبد الحليم محمود وغيره من الباحثين لم تتحدد فى شكل كمى فى صورة معامل ثبات عامل Coefficient of factor similarity أو معامل تشابه بينا لعامل ونظيره فى تحليلين مختلفين ، وهى هنا نقطة منهجية لها أهميتها اذ أنها كفيلة بأن تقرر لنا أن العامل الذى استخلصناه فى دراسة ما بنفس الوسائل والمقاييس احتفظ بخصائصه وظهر له نظير متشابه فى دراسة أخرى بمعامل تشابه محدد ٠

وقد استحدثت طريقة رياضية جديدة لحساب معامل التشابه بين العوامل فى نسقين عامليين مستقلين ، وقد استحدثت هذه الطريقة من الدراسة التى قام بها كاتب هذه السطور ـ التى سبق ذكرها ـ وأمكن بواسطتها الحصول على معامل تطابق (٩٩ر٠) identical لعاملى الاحتفاظ بالاتجاه والطلاقة الفكرية ومعامل تشابه شديد (٨٥ر٠) close similarity لعاملين للمرونة والطلاقة ومعامل تشابه (٦٥ر٠) لعامل الاصالة ، وذلك فى تحليلين عامليين مستقلين لعينتين من الأسوياء والفصاميين schizophrenics

المحصلة النهائية هنا هى أننا أمام تحليل دقيق خصب لقدرات العقل ، وان هذا التحليل أدى الى تمكننا من معرفة الابعاد الثلاثة الاساسية للقدرة العقلية ، كما أدى هذا الفهم لأبعاد العقل الى قدر كبير من الخصوبة فى تصورنا لمجالات العقل المختلفة وامكانية تصميم الدراسات التجريبية المتحقق من تصوراتنا ٠٠

ان العقل هو العقل دائما ، لايتأثر فى منطقه وفى مساراته وفى العلاقات الداخلية بين أبعاده من حضارة لأخرى ، ان العقل هو هو ما أعلن ديكارت من قبل أنه واحد الناس جميعا ٠٠

قسم خاص عن ماركيوز

ماركيوز

والنزاع العربي الإسرائيلي

د. فؤاد زكريا

اكتشفت وكالات الأنباء العالمية ، بعد اعلانها نبأ وفاة ماركيوز منذ اسابيع ، أن جوستاف ماركيوز (الأديب الألماني الذي كان يعيش في برلين) وليس هربرت ماركيوز الفيلسوف العجوز المقيم في كاليفورنيا) هو الذي توفي .. والفكر المعاصر تنبه القارىء الى هذه اللبس وتقدم له هذا القسم الخاص عن فيلسوف الشباب العجوز والذي لم يمت بعد !

« المحرر »

لو كانت هناك مشكلة يصعب الانتهاء فيها الى رأى قاطع فى صدد فكر هربرت ماركيوز السياسى والأيديولوجى ، لكانت تلك مشكلة تحديد انتماته .. فهو قد بذل كل ما فى وسعه من جهد لكى يقنع العالم ـ الذى أصغى اليه بانتباه شديد فى السنوات الأخيرة ـ بأنه خارج عن جميع التيارات التى تتصارع فى عالمنا المعاصر . وعلى الرغم من أن السلب ، أو الرفض ، كان هو القوة الدافعة له فى تحديه للأنظمة القائمة ، فان خروجه عن هذه الأنظمة لم يكن « سلبيا » على الاطلاق .. أعنى أنه لم يكن من تلك الفئة من المفكرين الذين يرفضون كل ما هو موجود بدافع اليأس أو التشاؤم أو السأم أو عدم الاكتراث ، ويتخذون من صراعات العالم موقف المتفرج الساخر أو الحكيم المتعالى . فالسلب عنده لم يكن تباعدا أو رفضا لتحمل المسئولية ، ولم يكن انعزالا أو عزوفا ، وانما كان فى صميمه روحا نقدية . والفرق واضح بين السلب المتعالى أو غير المكترث ، وبين السلب النقدى : اذ أن الأخير يفترض اندماجا كاملا فيما ينقده ، ومعايشة تامة له ، مع رفض للأسس التى يرتكز عليها . أما الأول فقد يتم دون معاناة حقيقية ، لأنه لم يعايش ولم يندمج .

وهكذا رفض ماركيوز طريقة الحياة الرأسمالية

والتطبيقات الاشتراكية فى بلاد الكتلة الشرقية ، وجمع بين الاثنين معا تحت فئة واحـــدة ، أطلق عليها اسم « المجتمع الصناعى المتقـدم » ٠ وكان جهده الأكبر منصباً على كشف نواحى التقارب بين النظامين فيما يشبه (فى رأيه) أن يكون مؤامرة منهما معا على حرية الانسان الحديث ٠ على أن هذا الهجوم المزدوج يمكن أن يكون فى الوقت ذاتـه دفاعا مزدوجا ، فالنقد الموجه الى النظم الاشتراكية يرضى الولايات المتحدة ،ويسدى اليها خدمة جليلة، والنقد الموجه الى البلاد الرأسمالية يتـلاقى مـع وجهات نظر المعسكر المعادى لها ، ومن هنـا كان أقصى ما يمكن أن يوصف به موقف الطرفين من ماركيوز هو أنه موقف عدم الارتياح ، ولكنه ليس موقف التحريم أو الخصومة الشديدة : فهو ينقـد كل طرف ويخدمه فى آن واحـــد ، ولذلك كانت كلماته مسموعة ، ومقبولة ، هنا وهناك ٠

وربما كان هذا ، من الوجهة العملية ، موقفـا شديد الذكاء ، لأنه يضفى على صاحبه صفة العالمية وصفة الموضوعية ، ويضـــمن له فى الوقت ذاته شهرة فى جميع أرجاء العالم ، مادام كل نظام يجد لديه ما يرضيه ،ويستخدمه فى الهجوم على خصمه، ويمكنه ـ من ناحية أخرى ـ أن يتجاهل العناصر المضادة له فى كتاباته ٠ ولكن هذا الذكاء العملى يشكل صعوبة شديدة بالنسبة الى شارحى فـكر ماركيوز: ذلك لأنه يجعل مسألة انتمائه الفكرى غير قابلة للحل ٠ وعدم الانتماء هذا قـد يكون ناجما عن اتجاهه الى تـكوين رأى فى الحضـــارة الانسانية لا يجد صدى له فى كل الأيديولوجيات الموجودة ٠ ولـكن الأرجح فى نظرى أنه يرجـع الى رغبته فى أن يظل غامضا ، محـيرا ، يغضب الجميع ويرضى الجميع ، فيكتسب بذلك نوعا من الأصالة فريداً غير مألوف ، ويقبل عليه الـكل لأنهم لا يمكنهم أن يجزموا أن كان معهم أم عليهم، وينحاز اليه الشباب بوجه خاص ، لأن الشباب ـ فى عالم تمزقه الحروب والصراعات الأيديولوجية ـ ينحاز بطبيعته الى كل من يتجسد فيه نزوعـه الخاص الى عدم الانتماء ٠

***

هذا الغموض المتعمد ، فى المواقف السياسية والأيديولوجية ، هو بعينه الأسلوب الذى يتبعـه ماركيوز فى تحديد موقفه من المشكلة اليهودية بوجه عام ، ومن النزاع العربى الاسرائيلى بوجه خاص٠ فهو فى هذه الحالة بدورها يتخذ لنفسه مظهـــر الموضوعية التى تكشف عن عيوب الطرفين معا ،



ويبدو فى الظاهر كما لو كان يستهدف غايات تعلو على المصالح الضيقة لهذا الجانب أو ذاك ، بحيث يصعب على القارىء العادى أن يحدد بوضوح الطرف الذى ينتمى اليه . ولكن قليلا من التروى كفيل بأن يكشف عن موقفه الحقيقى ، الذى أستطيع أن أقول باطمئنان انه كان منحازا لشعبه على حساب العرب ، وعلى حساب الحقيقة .

لقد كان ماركيوز فى اتجاهه العام يهوديا غير متعصب . ولكنه فى الوقت ذاته لم يكن يهوديا متمردا ، على غرار اسبينوزا أو ماركس .. وكان قبوله أن يشتغل سنوات طويلة فى جامعة براندیس Brandeis الأمريكية أمرا ذا دلالة : اذ ان هذه الجامعة يهودية صريحة ، فى تكوينها وفى اتجاهها الثقافى وفى أساتذتها وطلابها . وليس فى هذا ما يعيب أستاذا يهوديا هاربا من الحكم النازى ، ولكن اليهودى المتمرد لا يقبل أن يقوم بمهمة كهذه . فهو اذن كان متحررا لم يصل الى درجة التمرد .

ولكن هذا التحرر كانت له حدود لا يتعداها ، وكان من الطبيعى أن يضيق نطاقه فى أحيان معينة : هى تلك التى يشعر فيها بأن هناك فرصة لتمجيد الشعب الذى ينتمى اليه ، أو للدفاع عنه ضد خطر يهدده . على أنه فى أغلب الحالات التى كان يتعاطف فيها مع شعبه كان يعبر عن رأيه تعبيرا غير مباشر ، ينم عن تمجيد لا شعورى على الأقل لهذا الشعب .

فمن المعروف أن ماركيوز لا يؤمن بثورية الطبقة العاملة فى البلاد الصناعية المتقدمة ، لأن النظام السائد قد استوعب هذه الطبقة فى داخله وربط مصالحها بمصالحه ، بحيث تحول بها من طبقة ثورية بالقوة الى طبقة محافظة أو مسايرة بالفعل . ولقد كان البديل الذى يكمن فيه أمل البشرية فى التمرد على الأوضاع الجائرة السائدة ، هو تلك الفئات الهامشية ، المضطهدة ، ذات الجنس الآخر واللون الآخر . تلك الفئات التى لا تندمج فى المجتمع ، لأنها مرفوضة أو منبوذة منه ، هى فى نظر ماركيوز صانعة التاريخ فى مستقبل البشرية . وليس من الصعب أن يدرك القارىء تشابها واضحا بين أوصاف هذه الفئات الهامشية ، وأوصاف الأقليات اليهودية فى المجتمعات التى تعيش فيها . فهى بدورها (حسب الصورة المألوفة) خارجة عن المجتمع ، تنتمى الى « جنس آخر » ، وهى مضطهدة ، تعيش على الهامش .. والأهم من ذلك أنها « غير مندمجة » بطبيعتها ، بل انها لا تسعى أصلا الى الاندماج فى مجتمعاتها .. فهى فى انغلاقها على نفسها ، وفى انعزالها عن مجتمعها ، تحقق الشرط الأساسى الذى يراه ماركيوز ضروريا لكل فئة قدر لها أن تصنع التاريخ ، وتحقق المعجزة ، وتخلص البشرية من اغترابها فى العصر الحاضر .

لذلك أعتقد أن تأكيد ماركيوز للدور الذى تقوم به الأقليات المضطهدة فى تحرير البشرية ، ونظرته اليها بوصفها وريثة الروح الثورية ، وأمل الانسانية الوحيد ضد قوى الظلم والقمع ، كان فيه تأثر ضمنى بموقفه من حيث هو مفكر ينتمى الى شعب يعد نفسه أقلية مضطهدة حيثما كان ..

والدليل على صحة هذا التفسير أن ماركيوز قد استخدم لفظ « الجيتو ghetto » للدلالة على هذه الفئات التى يرى أنها صانعة التاريخ ، وهو لفظ معروف مشتق من التراث اليهودى بالذات . واذا كان من الشائع لدى بعض الكتاب استخدام هذا اللفظ للتعبير عن الأقليات المضغوطة بوجه عام ، فان استخدام ماركيوز له يزيد من قوة الارتباط بين الفئة التى لا تقبل العيش فى ظل استبداد المجتمع الصناعى المتقدم ، وبين الطوائف اليهودية بالذات .

ومن المؤكد أن صورة اليهودى هى أول صورة تقفز الى ذهن القارىء ، وتبعث فيه احساسا لا شعوريا بأن اليهود هم على الأقل فئة رئيسية من الفئات التى ستخلص البشرية من مظالم النظم السائدة ، حين يقرأ السطور التى يصف فيها ماركيوز ، قرب نهاية كتاب « الانسان ذو البعد الواحد » ، تلك الفئات الهامشية التى هى معقد الأمل فى الثورة على استبداد المجتمع الصناعى ، فيقول : «انها قوة بدائية تخالف قواعد اللعبة ، وهى اذ تفعل ذلك انما تكشف زيف هذه اللعبة . وعندما يتجمعون ، وعندما يسيرون فى الطرقات ، بلا سلاح ، وبلا حماية ، مطالبين بأبسط الحقوق المدنية ، يعلمون أنهم يعرضون أنفسهم للكلاب والمحجارة ، وللقنابل ، وللسجن ، وللمعسكرات التعذيب ، بل وللموت » .

●

ان صورة مخلصى البشرية ، عند ماركيوز ، تحمل اذن ملامح يهودية واضحة . وأغلب الظن أن هذا التشابه كان لا شعوريا ، مستمدا من تعاطفه مع الشعب الذى ينتمى اليه ، وعجزه عن التحرر من تراثه الطائفى . ولكن آراء ماركيوز فى هذا الموضوع لم تكن كلها تتخذ هذه الصبغة الضمنية



غير المباشرة . ففي نص واحد على الأقل عبر ماركيوز عن آرائه فى قضية النزاع العربى الاسرائيلى تعبيرا صريحا ، وكان ذلك فى كتاب « نهاية اليوتوبيا La fin de l'utopie » (الترجمة الفرنسية . ص ١٢٨ ـ ١٣٠) . فى هذا النص ، الذى يسجل حوارا طويلا دار بين ماركيوز وبين بعض زعماء الحركة الطلابية فى بلاد متعددة ، تحدث ماركيوز عن النزاع فى الشرق الأوسط ، وكان ذلك فى سياق حديث أعم عن الرأسمالية المتقدمة والعالم الحديث . وكان زمن الحديث هو عام ١٩٦٨ .

وقد بدأ ماركيوز بالقول ان هذا النزاع قد أحدث انقساما بين قوى اليسار .. ذلك لأن اليسار ظل ينحاز الى صف اسرائيل « وهو أمر مفهوم تماما » ، ولكن هذا اليسار ـ ولا سيما الماركسى منه ـ لا يستطيع من ناحية أخرى أن يتجاهل أن العالم العربى ، فى جزء منه ، مندمج بالعالم المعادى للامبريالية . وهكذا يحدث انفصام موضوعى لدى اليسار بين التضامن الذهنى أو الفكرى (مع العرب ، بسبب عدائهم للامبريالية) والتضامن العاطفى (مع اسرائيل) .

ويقدم ماركيوز بعد ذلك رأيه فى هذا الموضوع بوصفه رأيا شخصيا ، وليس تحليلا موضوعيا للموقف . ومن المؤكد أن تأكيد وجود تعارض بين رأيه الشخصى وبين التحليل الموضوعى هو فى ذاته أمر ذو دلالة واضحة . ولكنه على أية حال يقدم فى هذا الصدد عرضا مسهبا لوجهة نظره فى هذا الموضوع . ولما كان هذا العرض هو الموضع الوحيد الذى اهتدينا فيه الى رأى صريح ومفصل لماركيوز فى هذا الموضوع الحيوى ، فقد آثرت أن أقدمه الى القارىء العربى كاملا ، لكى يتبين له كيف كان هذا المفكر المشهور ينظر الى قضية نزاعنا مع اسرائيل فى أعقاب حرب عام ١٩٦٧ .

●

« انكم ستفهمون أننى أشعر بنفسى متضامنا مع اسرائيل لأسباب شخصية جدا، وهى فى الوقت ذاته ليست شخصية فقط • فليس فى استطاعتى ، أنا الذى أعلنت مرارا أن العواطف والأفكار الأخلاقية والمشاعر تنتمى الى السياسة ، بل الى العلم ذاته ـ ليس فى استطاعتى الا أن أرى فى هذا التضامن أكثر من مجرد تحيز شخصى• فأنا لا أستطيع أن أنسى أن اليهود قد اضطهدوا وظلموا قرونا طويلة ، وأن ستة ملايين منهم قد أبيدوا منذ عهد ليس بالبعيد • تلك حقيقة واقعة • فاذا ما اهتدى هؤلاء الناس آخر الأمر الى مكان لا يخشون فيه اضطهادا ولا ظلما ، فلست أملك الا أن أتضامن مع هدف كهذا • وانى لسعيد بأن أكون فى هذه النقطة متفقا مع سارتر ، الذى قال : ان كان ثمة شيء ينبغى أن نمنع حدوثه بأى ثمن ، فذلك هو حرب ابادة جديدة ضد اسرائيل • تلك هى المقدمة التى ينبغى البدء بها من أجل الاجابة عن السؤال الذى تطرحه اسرائيل ، وهى مقدمة لا تلزمنا بالموافقة على كل أفعالها ، كما أنها لا تلزمنا بتقديم تأييدنا الى الطرف المضاد •

ولأشرح ما أعنيه ، فأقول ان من الممكن النظر الى اقامة دولة اسرائيل على أنه عمل ظالم ، من حيث أن هذه الدولة أقيمت على أرض غريبة ، وبفضل اتفاق دولى ، دون عمل حساب بالمعنى الصحيح للسكان الأصليين ولمستقبلهم • ولكن هذا الظلم لا يمكن اصلاحه بظلم آخر أفدح • فالدولة موجودة ، ولابد أن تتفاهم مع جيرانهـــا المعادين لها : هذا هو الحل الوحيد •

وانى لأعترف بأن اسرائيل قد أضافت ظلما آخر الى هذا الظلم الأول • فهى قد عاملت السكان العرب بطريقة أقل ما توصف به هو أن من الممكن الاعتراض عليها ـ وهو أخف الأوصاف • فسياستها تكشف عن سمات عنصرية وقومية كان ينبغى ، ومازال ينبغى ، أن نرفضها بوصفنا يهودا • فلا يصح أن يوافق المرء على أن يعامل العرب فى اسرائيل بوصفهم مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة ، حتى لو كانت المساواة القانونية ممنوحة لهم •

وهناك ظلم ثالث (ولعلكم ترون أننى أجعل مهمتى أكثر مشقة) هو أن سياسة اسرائيل الخارجية ، منذ انشاء دولتها ، كانت تساير السياسة الخارجية الأمريكية مسايرة تامة أكثر مما ينبغى • ففى الأمم المتحدة لم يحدث مرة واحدة أن اتخذ مندوب اسرائيل موقفا يؤيد معركة التحرر التى يخوضها العالم الثالث ضد الامبريالية • وهذا ما أتاح التوحيد بين اسرائيل والامبريالية ، وبين العرب والعداء للامبريالية •

وفى هذه الناحية بدورها ، لا ينبغى أن ييسر المرء مهمته أكثر مما يجب • فالعالم العربى ليس وحدة • وانكم لتعلمون ، مثلى ، انه يتألف من دول ومجتمعات تقدمية ورجعية • فاذا ما تحدث المرء عن الدعم المقدم الى الامبريالية ، كان فى استطاعته أن يتساءل أيهما أنفع للامبريالية : أصوات اسرائيل فى الأمم المتحدة أم كميـــات البترول التى تقدمها هذه الدولة العربية أو تلك بلا انقطاع • وقد استؤنف تقديم هذه الكميات مرة أخرى • وثانيا ينبغى أن نتذكر أن اسرائيل قد اقترحت التفاوض مرات عديدة ، ولكن ممثلى البلاد العربية رفضوا ذلك الاقتراح • وثالثا فهناك حقيقة واقعة هى أن ممثلين للعرب ، ليسوا بأقلهم أهمية ، قد أعلنوا صراحة أنه ينبغى أن تشن ضد اسرائيل حرب ابادة • هـــذه حقيقة واقعة (ومن المؤسف أن فى الامكان التيقن منها) • فى هذه الظروف ، يستطيع المرء أن يفهم ويبرر حربا وقائية ، كتلك الحرب التى شنت ضد مصر وسوريا والأردن •

فما الذى ينبغى عمله من أجل وضع حد لهذه البؤرة المخيفة للنزاع ؟ من المؤسف أن النزاع بين اسرائيل والدول العربية قد أصبح منذ وقت طويل نزاعا بين الولايات

المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وانتقـل من المستوى المحلى الى مستوى الدبلوماسية ــ الدبلوماسية العلنية والخفية ــ والى التنافس على تقديم الأسـلحة الى الطرفين المتنازعين • والمشكلة الكبرى الآن هى ارجاع هذا النزاع الى حدوده الأصلية •

فمن واجبنا أن نفعل كل مافى وسعنا لكى يتلاقى ممثلون لاسرائيل وللعرب ويحاولوا حل مشكلاتهم بطريقة مشتركة ــ والحمد لله أن هذه المشكلات ليست هى مشكلات الدول الكبرى • والمثل الأعلى هو بالطبع أن تضع هذه المناقشات أسس تكوين جبهة مشتركة من اسرائيل وخصومها العرب ضد تدخل القوى الامبريالية • ولو قامت مثل هذه الجبهة لكانت شيئا ظهر فى أوانه • ذلك لأن البـلاد العربية بدورها فى حاجة الى ثورة اجتماعية : وهو أمر ينبغى ألا ننساه • بل ان هذه الثورة قد تكون أشد الحاحا من تدمير اسرائيل » •

●

هذا النص الهام يثير أسئلة كثيرة حول مدى تقدمية تفكير هربرت ماركيوز • فهو كعادته فى جميع مواقفه ينقد الطرفين معـا ، ويدافع فى الوقت ذاته عن جوانب معينة من سياستهمـا ، ويتخذ بذلك أمام مستمعيه مظهر المفكر المحايد• ولكن ليس من الصعب أن يدرك القارىء من وراء هذا الحياد الظاهرى اتجاها قويا الى تأييد وجهة النظر الاسرائيلية • ولنذكر دائما أن الداعية الذكى ليس هو الذى ينحاز على طول الخط ، بل هو ينقد أولا ــ ليكسب الثقة ــ ثم ينحاز فى اطار من هذا النقد •

ومن الواضح أن ماركيوز لم يحـاول أن يخفى انحيازه لاسرائيل بناء على أسباب وصفهـا بأنها « شخصية جـدا » ، وهى فى الوقت ذاته ليست شخصية فقط » • أما الأسباب الشخصية فهى عقيدته وثقافته اليهودية (وهى عوامل لم تمنع مفكرين آخرين مثل رودانسون أو ليلنثال من مهاجمة هذه الدولة ، بل ورفض فكرة اقامتها من حيث المبدأ) • وأما الأسباب التى « ليست شخصية فقط » فهى أسباب عاطفية وأخلاقية ، يردد فيها ماركيوز القصة القديمة ، قصة الملايين الستة من اليهود الذين قضت عليهم النازية ، وقصة الشعب المضطهد الذى « اهتدى » أخيرا الى مكان آمن ، ومن ثم فلا بد من التضامن معه •

ولسنا نود أن نضيف ردا جديدا على هذه الحجج البالية التى يستطيع أن يكشف خداعها كل من لديه أبسط المام بحقائق المشكلة • ولكن مايهمنا فى الأمر هو مستوى هذه الحجج ذاتها ، والمبادىء التى ترتكز عليها • فمن الأمور التى تثير الدهشة حقا أن يلجأ مفكر « نقدى » ، لم تخدعه المظاهر السائدة فى أشـد المجتمعات الصناعية تقدما ، ونفذ بفكره الى « الجوهر » فاهتدى فيه الى الحقيقة من وراء القناع المزيف ــ الى حجج سطحية واهية كهذه ، لكى يتخذ منها نقطة البدء ، والركيزة الأساسية ، فى مناقشة قضية النزاع العربى الاسرائيلى • وليس لهـذه الظاهرة من تعليل سوى أن التعـاطف المفرط (الذى لا يفصله عن التعصب سوى فارق كمى) قد أسكت صوت العقل فيه لكى يعلى صـوت العاطفة المجردة • وهذه بدورها حقيقة اعترف بها ماركيوز ، وحاول أن يضعها فى صيغة مبدأ عام ، هو أن العوامل العاطفية والأخـلاقية ينبغى أن يكون لها مكان فى السياسة ، بل فى العلم ذاته •

وعلى الرغم من أن ماركيوز يعلن ، فى هذه الحالة ، مبدأ يمكن أن توجه اليه اعتراضـات لاحصر لها ، فانـا نود فقط أن نشـير الى أن العواطف التى يجب أن يسمح لهـا بالتأثير فى السياسة لابد أن تكون مرتكزة أصلا على أساس عقلى • فالوضع السليم هو أن يقتنع العقل أولا، ثم تأتى العاطفة بعد ذلك لكى تضيف الى حكم العقل طاقة تدعمه وتزيد من حماسة الانسان له• أما ذلك النوع من العاطفـة ، الذى لا يكـون الانسان قد استمع فيه أولا الى صوت العقل ، فقد عانت منه البشرية ويلات كثيرة ، يعرف ماركيوز ذاته واحدة من أشدها قسوة ، وأعنى بها تجربة الحكم النازى • وانه لمن سخرية الأقدار حقا أن يقف ماركيوز ، الذى طالما ندد باحتقار النازية للعقل ، وأكد أن هذا الاحتقار ذاته هو الذى يفسر

نزوعها العدوانى الى هدم كل القيم الانسانية ـ لكى يدافع عن مبدأ العاطفة المجردة فى السياسة، ناسيا أن العواطف نسبية ، وأنها يمكن أن تبرر كل شىء ، وأن العطف على اليهود المضطدين حين يصل الى حد تشريد شعب بأكمله من أجلهم لايشكل ظلما انسانيا صارخا فحسب ، بل يشكل أيضا عدوانا صارخا على العقل . وحين يدارى ماركيوز طابع المفارقة هذا بقوله ان الدولة موجودة ، وأن الحل الوحيد هو أن تتفاهم مع جيرانها المعادين لها ، فانه يزيد موقفه سوءا ، اذ يتحدث بمنطق الأمر الواقع الخاضع للقوة الغاشمة ، ويخلع عن نفسه ـ فى هذه النقطة بالذات ـ رداء الفيلسوف ، محب الحكمة والباحث عن الحقيقة .

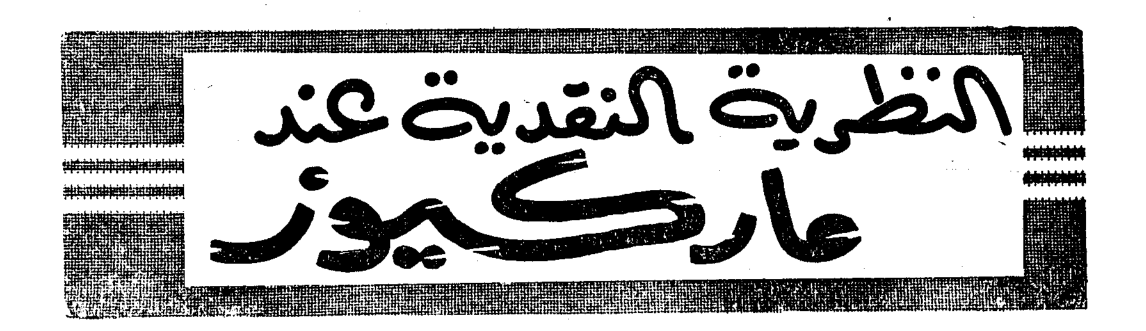
ومن وراء مظهر الحياد الزائف ، الذى يعدد فيه خطأ لهذا الطرف وخطأ لذاك ، وميزة لهذا الطرف واخرى لذاك ، يحتشد تفكير ماركيوز فى المشكلة بمغالطات مضللة ، فيفترض أن الخدمة الوحيدة التى تؤديها اسرائيل للامبريالية هو أنها تمنحها صوتها فى الأمم المتحدة ، وهو يعلم جيدا أن المسألة ليست مسألة صوت زائد ينحاز الى صف الامبريالية فى هيئة دولية لا تملك حتى الآن قوة تنفيذية ، وانما هى تخدم الامبريالية عن طريق سياسة كاملة تمارسها فى الشرق الأوسط، أصبحت بفضلها وسيلة الامبريالية فى ارهاب دول المنطقة وتخريب اقتصادها . أما الوجه المقابل ، وهو تقديم دول الشرق الأوسط لبترولها الى الامبريالية ، فان ماركيوز يخدع نفسه اذا ظن أن الدول العربية لها فيه خيار ، ويعلم أن اسرائيل ذاتها من أهم الأسلحة التى تستخدم، بصورة غير مباشرة ، لكى يصبح وصول بترول الشرق الأوسط الى دول الغرب أمرا مضمونا .

ان ماركيوز يخاطب ، فى هذا الحديث ، جمهوره المفضل ، الذى جلب له الشهرة ، وأعنى به ممثلى الحركات الطلابية اليسارية . وهو يخاطب هذا الجمهور بنفس منطقه ، اذ يعلم مدى عداء الطلاب اليساريين للامبريالية العالمية ، ولذلك يدعو فى نهاية حديثه الى ما يصفه بأنه الحل الأمثل ، وهو تكوين جبهة مشتركة من اسرائيل وخصومها العرب تقف فى وجه القوى الامبريالية. هذا الحل يرضى مستمعيه الى أبعد حد ، لأنه يتمشى مع الأهداف التى يكافحون من أجلها ، ولكن ماركيوز أول من يعلم باستحالته العملية ، اذ أن عداء اسرائيل للامبريالية معناه تغيير كيانها من جذوره . انه اذن يتملق مشاعر مستمعيه ، ويوهمهم بأن اسرائيل سيكون فى استطاعتها يوما ما أن تشارك فى تحقيق الأهداف التى يسعون اليها ، وبذلك يضفى عليها صورة تقدمية هى أبعد ما تكون عنها .

وأغرب مافى الأمر أن ماركيوز يفترض ضمنا، فى بداية حديثه ، أن انحياز اليسار لاسرائيل أمر « مفهوم تماما » . انه يأخذ التزييف الذى وقعت فيه جبهات يسارية معينة على أنه حقيقة مسلم بها ، وينظر الى الأمر الواقع غير المنصف على أنه الحقيقة والواجب . وهو فى تسليمه هذا يزيد من تأكيد الفكرة الباطلة التى تعد اسرائيل، وفقا لها ، دولة تقدمية تحمل مشعل الحضارة فى المنطقة التى تعيش فيها . وانه لمن الغريب حقا أن يتناسى ماركيوز الأسس الدينية والعنصرية التى قامت عليها دولة اسرائيل ، ويتجاهل اصرار اليهود على رفض الكفاح من أجل الاندماج السوى فى المجتمعات التى يعيشون فيها ، لكى يؤكد أن عواطف اليسار تتجه بطبيعتها نحو اسرائيل، وأن عقله يتجه نحو المعادين للامبريالية من العرب . **وأحسب أن اليسار الذى يعانى من انفصام كهذا بين عقله وعواطفه لا يستحق أن يكون يسارا بأى معنى من المعانى .**

وعلى أية حال فقد اتبع ماركيوز فى تعليقه هذا على القضية العربية الاسرائيلية أسلوبه المفضل ، الذى يتملق فيه مشاعر الشباب ، ويندمج اندماجا تاما مع طريقتهم فى النظر الى الأمور ، ولكنه يقدم فى الوقت ذاته ايحاءات ضمنية تكشف عن اتجاه مضاد الى حد بعيد للتقدمية الحقة التى يدافع عنها هؤلاء الشباب .

هذا الموقف يمثل نموذجا مصغرا لطريقة ماركيوز العامة فى التفكير . ولو اتسع المقام لتضمن هذا المقال اثباتا مفصلا لهذا الحكم . وحسبى الآن أن أقول ان تفكير ماركيوز ليس ، فى رأيى ، من ذلك النوع الذى سيكتب له البقاء طويلا ، وأن عبادة الشباب الثائر له ، التى أخذت بوادر تضاؤلها تظهر فى الآونة الأخيرة ،ستختفى فى المستقبل ، وسيدرجه التاريخ ضمن تلك الفئة التى تلمع سريعا وتنطفىء سريعا، لأن التألق الدائم وقف على المفكر الأصيل ، الثابت على المبدأ ، الذى يحدد مجال انتمائه بوضوح ويظل ملتزما اياه حتى النهاية .



سمير كرم

● لقد كان العنصر الطوباوى لفترة طويلة العنصر التقدمى الوحيد فى الفلسفة .

● بدون الحرية والسعادة فى علاقات الناس الاجتماعية تظل حتى أكبر زيادة فى الانتاج وفى ازالة الملكية الخاصة لوسائل الانتاج مشوبة بشوائب الظلم القديم ..

● بدون الخيال تظل كل معرفة فلسفية فى قبضة الحاضر أو الماضى ومقطوعة الصلة بالمستقبل الذى هو الصلة الوحيدة التى تربط الفلسفة بالتاريخ الحقيقى للانسانية .

هربرت ماركيوز

تعتبر المحاولة الأساسية لهربرت ماركيوز فى مجال الفلسفة النقدية ـ وهو الاصطلاح الذى يفضله للاشارة الى تفسيره الخاص للفلسفة الماركسية ـ محاولته لتعميق الصلة فى الفلسفة الحديثة بين الفلسفة كفكر نظرى بحت والموضوعات الاجتماعية . فالمادية الماركسية « اذ تربط فى جذورها بين مشكلة الماهية والممارسة الاجتماعية تعيد بناء مفهوم الماهية فى علاقته بكل المفاهيم الاخرى عن طريق توجيهه نحو ماهية الانسان »(١)

وماهية الانسان هى فى رأى ماركيوز مثل أعلى يمد ممارستنا الحالية ويهديها نحو شكل من الحياة الاجتماعية يمثل الانجاز الحقيقى لكل ما يريده الانسان عندما يفهم نفسه فى اطار امكانياته .. فقد أدركت النظرية النقدية مسئولية الظروف الاقتصادية عن العالم القائم واستوعبت الاطار الاجتماعى الذى انتظم فيه هذا الواقع حتى لقد أصبحت الفلسفة فرعا سطحيا من فروع المعرفة ، وأصبح من الممكن تناول المشكلات المتعلقة بامكانيات الانسان وامكانيات العقل من زاوية علم الاقتصاد .

وهكذا يرجع ماركيوز الفضل الى النظرية النقدية فى تفسير الانسان وعالمه فى اطار وجوده الاجتماعى بعد أن كانت الفلسفة المثالية ترده الى مفاهيم فلسفية . وعنده أن المادية ترتبط بالنظرية الاجتماعية بعنصرين أساسيين هما الاهتمام بالسعادة الانسانية ، والاقتناع بامكان بلوغها عن طريق تغيير الظروف المادية للوجود . والمجتمع الجديد الذى ينشأ عندئذ يكون بمثابة



هربرت ماركيوز

« الخلق الحر للأفراد الأحرار » ، اذ يكون بمثابة تحقق العقل باعتباره تنظيما عقليا للانسانية ٠

العقل والحرية والسعادة

وفى الفلسفة النقدية يرتبط مفهوم العقل بمفهوم الحرية ، اذ أن أى حكم انسانى يكون خاليا من المعنى اذا لم يكن الانسان فى اصداره له حرا يخضع كل ما يواجهه لقوانين العقل ومقتضياته ٠ « **ان صفات العقل لا تدوم الا من خلال الحرية** » ٠ **فهذه الصفات ليست سوى وسائل للحرية ، لا تسعى الا للحرية ولا تنتج** الا الحرية ٠ ويعبر ماركيوز هنا عن نفس المعنى الهيجلى المستمد من كل التراث الفلسفى السابق، وهو مفهوم التوحيد بين العقل والحرية على أساس أن **الحرية** هى العنصر الشكلى للعقلانية ، وهى الشكل الوحيد الذى يمكن أن يكون عليه العقل ٠ ولهذا يقول ماركيوز أن الفلسفة عندما وصلت الى مفهوم العقل باعتباره حرية قد وصلت الى ما منتهاها ٠ وهو فى هذا يتفق مع هيجل نفسه فى أن الفلسفة وصلت عنده الى منتهاها ٠

الحل المثالى لمشكلة الحرية

ولكن الفلسفة البورجوازية ـ فلسفة النظام القائم فى المجتمع البورجوازى ـ تدرك عجز **الانسان ازاء عالمه الخارجى ، ترفض أى فكرة** عن السعادة تعتمد على ظروف ذلك العالم الخارجى كهدف للانسانية ٠ وهكذا فان الفكرة المحدودة عن الحرية فى الفكر البورجوازى أدت الى فكرة محدودة بالمثل فى السعادة ٠ لقد ركعت الفلسفة أمام النظام البورجوازى لأنه فى عالم لا يخضع للعقل تكون الدولة دولة اللا حرية ولا تكون الحرية الا مظهرا خارجيا ٠ ويصبح العقل والحريه مهمتين يتعين على الفرد أن يحققهما داخل نفسه فقط ، لأنه يستطيع أن يفعل هذا بغض النظر عن ظروف العالم الخارجى ٠ بهذا المفهوم المحدود للحرية « الداخلية » فان الشخص الذى ولد مشلولا والذى لا تسمح ظروف التقدم الطبى بعلاجه يتغلب على هذا الوضع عندما يعطى العقل والحرية مجالا داخل وجوده المشلول ، أى أن يحدد من البداية حاجاته وأفعاله وأهدافه كحاجات وأفعال وأهداف شخص مشلول ٠

تلك كانت الطريقة التى بها واجهت الفلسفة مشكلة العلاقه بين الضرورة والحرية ٠ وهى طريقه لا تستطيع الحرية فيها أن تنتهك الضرورة أبدا ٠ فالانسان يرتب أموره فى اطار الضرورة ولا يستطيع أن يخرج عنه ٠ انها تذهب الى **أن الاكتفاء الذاتى والاستقلال عن كل ما هو آخر وغريب هو الضمان الوحيد لحرية الذات ٠** وما لا يتوقف على الآخر حر ٠ ومن ثم أصبحت الفلسفة تؤمن أن أعلى حالات الوجود هى **« الوجود فى الذات »** ٠ فالشىء يكون أصيلا

حينما يكون معتمدا على ذاته قادرا على الحفاظ على ذاته غير متوقف على أى شىء غيره . وهذا الوجود يمكن بلوغه ـ فيما ترى الفلسفة المثالية ـ عندما تمتلك الذات العالم حتى لا يعود من الممكن حرمانها منه .

وترى الفلسفه النقدية أن هذا المفهوم لارتباط العقل بالسعادة وارتباط الحرية بالضرورة فى الفلسفة المثالية انعكاس لحقيقة ((**ان تكوين العالم كان دائما يتم قبل الفعل الحقيقى للفرد**)) ، أن الذات لا تستطيع أن تأخذ ما هو موجود وتجعل منه شيئا آخر . ومن هنا تتجرد الفلسفة المثالية البورجوازية من صفة الايديولوجية ، اذ أن مفهوم الايديولوجية لا يكون له معنى الا حينما يوجه الى اهتمام النظرية بتغيير البنيان الاجتماعى . ولهذا يقول ماركيوز « ان مذاهب فلسفيه لا تحصى ليست الا مجرد ايديولوجيات تندمج ـ بصفتها أوهاما عن عوامل اجتماعية ما ـ فى أجهزة عامة للسيطرة . ولكن المذهب العقلى المثالى لا ينتمى الى هذه الفئة . » (٢)

لقد كانت الملامح التى تبدى فيها هذا المذهب فى المجتمع البرجوازى هى : الأنا المجرد والعقل المجرد والحريه المجردة . فقد كان تصوره للعقل الخالص هو أنه عقل مستقل عن كل خبرة ، ولهذا تحاول المثالية أن تبقى الفكر « فى حالة نقاء » فتقوم بالدور المزدوج الغريب الذى تعارض فيه كلا من المادية الحقه للنظرية النقدية والمادية الزائفه للتطبيق البوجوازى . ان الفرد فى المجتمع البورجوازى يحتج على العالم بأن يجعل نفسه والعالم على السواء حرين وعقليين **فى مجال الفكر وحده** . ومن هنا كان الطابع الفردى لتلك الفلسفة المثالية التى تستوعب تفرد الفرد فى اطار اكتفائه الذاتى .

قيادة نظرية للتغيير

ان احتجاج المذهب العقلى على العالم أو نقده له **مثاليا** لا يمتد الى الشروط المادية للوجود على حين أن الاحتجاج المادى والنقد المادى ينشآن عن صراع الجماعات المقهورة من أجل حياة أفضل ، ويبقى هذا الاحتجاج والنقد مرتبطا على الدوام بالمسار الفعلى لهذا الصراع . « **فاذا كان العقل يعنى تشكيل الحياة وفقا لقرار الناس الحر على أساس من معرفتهم ، فان مطلب العقل يعنى خلق تنظيم اجتماعى يستطيع الأفراد فيه أن ينظموا ـ بصورة جماعية ـ حياتهم وفقا لحاجاتهم .** » (٣)

ان النظرية الاجتماعية حين تبرهن على امكان تحويل البنيان الاقتصادى للعالم الخارجى ـ للمجتمع ـ تكفل القيادة النظريه لتلك الفئات التى يتعين عليها ـ بحكم موقعها التاريخى وموقفها التاريخى أيضا ـ أن تحدث التغيير . وهذا ما يصفه ماركيوز باهتمام الفلسفة الجديد « الانشغال بالانسان » . ولكن ـ يتساءل ماركيوز ـ ماذا لو أن القوى التى كان المفروض أن تحدث التغيير قد تم قمعها وبدا أنها هزمت ؟

الطوباوية تقدمية !

على عكس الأمر فى المذاهب الفلسفية (غير النظرية النقدية) لا تكون الحرية الانسانية شبحا أو شيئا باطنا يترك كل شىء فى العالم الخارجى على ما هو عليه . فالحرية فى الفلسفة النقدية تعنى امكانية حقيقيه وعلاقة اجتماعية يتوقف عليها تحقق المصير الانسانى . وعند مرحلة معينة من التطور يبزغ من جديد الطابع البناء للنظرية الاجتماعية . وهى نظرية لا تكتفى من البدايه بمجرد تسجيل وتنظيم الوقائع . فهى ـ على خلاف الفلسفة المثالية ـ تشتق أهدافها دائما من الاتجاهات الحاضرة للعملية الاجتماعية . وهى من ثم لا تخشى من اتهام النظام الجديد الذى ترمى الى اقامته بالطوباوية . « **ولقد كان العنصر الطوباوى لفترة طويلة العنصر التقدمى الوحيد فى الفلسفة** » (٤) . ان النظرية الاجتماعية شىء أكثر من مجرد علم الاقتصاد . فان الاقتصاد السياسى قد أقام الفرق بينه وبين النظرية الاجتماعية عندما نقد الوجود الاجتماعى **باعلانه أن كل ما هو غير اقتصادى** يكون داخلا فى الاقتصاد الى الحد الذى يسيطر فيه اقتصاد غير خاضع للسيطرة (أى اقتصاد حر ـ أو فوضوى) على العلاقات الانسانية كلها . وعندما تزول هذه السيطرة بالفعل فان التنظيم العقلى للمجتمع الذى تسعى اليه النظرية النقدية يكون أكثر من مجرد ترتيب اقتصادى جديد . والعامل الحاسم هنا هو خضوع الاقتصاد لحاجات الافراد . حيث يؤدى التغيير الى ازالة العلاقة الاصلية (علاقة البناء التحتى اولبناء الفوقى) ، اذ أنه فى واقع عقلى لا تحدد «عملية العمل » الوجود العام للناس ، بل ان حاجاتهم

هى التى تحدد عملية العمل . وهذه بدورهـا لا تكون عملية « عقلية » الا حين تكون المصلحة التى تحققها هى مصلحة حرية الجماهير وسعادتها . واهمال هذا العنصر يجرد النظرية من واحد من خصائصها الجوهرية . أنه يزيل من صورة الانسانية المتحررة فكرة السعادة ، بينما هذه الفكرة هى التى تميزها عن كل انسانية سابقه . « بدون الحرية والسعادة فى علاقات الناس الاجتماعية تظل حتى أكبر زيادة فى الانتاج وفى ازالة الملكية الخاصه لوسائل الانتاج مشوبة بشوائب الظلم القديم » . (٥) ان المجتمع البورجوازى ـ بكل أشكاله ـ يقف ضد سعادة الانسان فى جانبين : الأول جانب ارتباطها بالحرية ، والثانى هو عجز المجتمع البورجوازى عن التوفيق بين سعادة الفرد وسعادة المجموع ، بين السعادة الخاصة والسعادة العامة . ومن هنا **يصف ماركيوز مفهوم التسامح فى المجتمع البورجوازى بأنه ((فى أكثر مظاهره تأثرا يخدم قضية القمع ... فليست هناك قوة او سلطه او حكومة ـ فى الوقت الحاضر ـ تترجم التسامح التحررى الى ممارسة عمليه)) . (٦)**

أما النظرية النقدية فانها تدافع عن امكانيات الانسان المعرضة للأخطار والمضحى بها ضد الجبن والخيانة . وأساس مقولاتها هو مطلب تحرير العلاقات الانسانية كلها من خلال ازالة الظروف المادية التى كانت قائمة فى الماضى . واذا كانت النظرية النقدية تشير ـ وسط اليأس السائد اليوم ـ الى أن الواقع الذى ترمى الى خلقه لابد أن يضم حرية الأفراد وسعادتهم ، فهى انما تتبع الاتجاه الذى تحدده مفاهيمها الاقتصادية ، وليس ارتباطا منها بفلسفة ما . ونقد الظروف الجارية وتحليل اتجاهاتها يتضمن بالضرورة مكونات موجهة للمستقبل والبنيان النظرى الذى تخلقه النظرية النقدية ليس ملحقا ولا امتدادا لعلم الاقتصاد وانما هو علم الاقتصاد نفسه فى معالجته للمضامين التى تتجاوز مجال الظروف الاقتصادية القائمة .

وظيفة التجريد وهيجلية ماركيوز

أما اهتمام النظرية النقدية بالفلسفة بمفهومها العام فهو جزء من سياق معارضتها للنظام **القائم** . فان التزام النظرية غير المشروط بهدفها ـ الذى لا يمكن بلوغه الا بالصراع الاجتماعى ـ يجعل النظرية تواجه باستمرار ما تم بلوغه بما لم يتمم بلوغه بعد . وتعرف النظرية النقدية فى الجانب الخارجى من الصراعات الاجتماعيه سبب الحرية من ناحية وسبب القمع والوحشيه من جانب آخر حتى وان بدا أن الجانب الأخير هو الذى يفوز فى الواقع . ان تغيير حالة معينة ليس بالطبع من عمل الفلسفة . ان الفيلسوف يستطيع فحسب أن يشارك فى الصراعات الاجتماعية طالما لم يكن فيلسوفا محترفا . فهذا أمر يفرضه تقسيم العمل فى المجتمع البورجوازى بين العمل الذهنى والعمل اليدوى ، وهو تقسيم ناتج عن الفصل بين وسائل الانتاج الذهنيه والماديه . ولقد فشلت الفلسفة فى أن تتغلب على هذا التقسيم ولم تحلل المفاهيم الأساسية للفلسفة ـ مثل الصدق والعقلانية واللاعقلانية والمنطق والميتافيزيقا والوضعية والماهية ـ تحليلا اجتماعيا يربط المعتقدات الفلسفية بالوضع الاجتماعى . وفى مقابل ذلك تعبر كتابات ماركيوز عن ثقة كبيرة لديه بأن الاقتصاديين الماركسيين قد قاموا بهذه المهمة عندما حللوا بنجاح الاتجاهات التاريخية للاقتصاد الرأسمالى ، وان كانت هذه الكتابات تعبر فى الوقت نفسه عن استعداد ـ يختلف فيه عن غيره من المفكرين الماركسيين ـ للاعتماد على المجردات . فهو يتحدث كثيرا عن « الانسان » أكثر مما يتحدث عن « الناس » وعما يرغب الانسان أو يفعل أو يعانى . ومن هنا يظهر التشابه بين ماركيوز والهيجليين الشبان الذين هاجمهم ماركس واتهمهم بأنهم بدلا من أن يحولوا النظرية الى هاد للحقائق التجريبية للمجتمع المعاصر ، كانوا يستخدمونها كسلسلة من التجريدات التى لا يستطيعون من خلالها أن يروا المجتمع الا بصورة مشوهه . ولهذا يثير البعض الافتراض بأن ماركيوز « **ليس مفكرا ماركسيا حديثا ،وانما هو بالأحرى مفكر سابق على الماركسية)) (٧)** على أساس أنه ارتد الى تلك الممارسة للنقد التى هاجمها ماركس . ولقد كان الهيجليون الشبان ـ السابقون على ماركس ـ يستخدمون نفس كلمة « النقد » فى وصف نظرياتهم على نحو ما يفعل ماركيوز .

ولعل السبب فى هذا اذا استخدمنا اصطلاح ماركيوز ضد ماركيوز نفسه أنه قد تحول الى فيلسوف محترف !

وقد يدعم هذا الفرض عن هيجلية ماركيوز قوله ((**ان الحلول الفلسفية التى تتم بها مواجهة**

مشكلة العلاقة بين الذات والمجتمع نجدها في تاريخ الفلسفة • ولا ضرورة لتحليل حتى نفهم نظرية « كانت » في التركيب الترنسندنتالي فهي تجسد حقيقة معرفية ... ان النظرية النقدية ترمي الى أن تبين فقط الشروط الاجتماعيه النوعيه الكامنه في جذور عجز الفلسفة عن وضع المشكله بطريقة أكثر شمولا : وأن تبين أن أي حل آخر يتجاوز حدود تلك الفلسفه • وهكذا فان اللا حقيقة الكامنة في كل معالجة متعاليه للمشكله تأتي الى الفلسفة « من الخارج » ومن هنا لا يمكن التغلب عليها الا خارج الفلسفه ، و « خارج » الفلسفه هنا لا تعنى العوامل الاجتماعيه المؤثرة على الوعى من الخارج ، كما لو كان الوعى يوجد مستقلا ، انما هى بالأحرى تشير الى قسم داخل اطار الكل الاجتماعي والوعى مشروط « خارجيا » بالوجود الاجتماعى طالما كانت الظروف الاجتماعيه للفرد فى المجتمع البرجوازى ابديه بالنسبه اليه ، وهى بهذا المعنى تسيطر عليه من الخارج • وهذه الخارجيه جعلت الحريه المجرده للذات المفكرة ممكنه • وترتيبا على ذلك فان الغاءها هو وحده الذى يجعل من الممكن اختفاء الحريه المجرده كجزء من التحول العام للعلاقه بين الوجود الاجتماعى والوعى • » (٨)

وأكثر من هذا يذهب ماركيوز – فى عرضه للنظريه النقدية فى المعرفة – الى أن المجتمع الطغيانى والايديولوجيه الطغيانيه يحاربان المفاهيم الكليه المجردة • **فكون الانسان موجودا عقليا ، وأن وجوده يتطلب حريته ، وان السعادة هي خيره الأسمى ، تلك كلها قضايا تنشأ قوتها الدافعة النقدية بالتحديد من كليتها • وكليتها تعطيها طابعا ثوريا لأن هذه القضايا تزعم أن كل الأشخاص – وليس مجرد هذا الشخص او اولئك الأشخاص بالتحديد – ينبغى أن يكونوا عقليين وأحرارا وسعداء •**

ملكة التحليل

ان اهتمام النظرية النقدية بتحرير الانسانية يربطها – فى رأى ماركيوز – بحقائق قديمه معينة • فهى تتفق مع الفلسفه فى التأكيد بأن الانسان يمكن أن يكون أكثر من ذات يجرى التلاعب بها فى عملية الانتاج فى المجتمع الطبقى • وتكون الفلسفة قد تحالفت مع القهر ما دامت قد جعلت سلامها فى خضوع الانسان للشروط الاقتصادية • أما النظرية النقدية فانها لا تعارض فقط علاقات الانتاج القائمه ، بل انها تعارض كل شكل من أشكال الانتاج يسيطر على الانسان بدلا من أن يخضع لسيطرته • ويدافع ماركيوز عن الجانب التجريدى فى تفسيره للنظرية المادية بأنه تجريد ناشىء عن « **الاتجاه نحو الحالة المستقبلة للانسان** » وليس ناشئا عن « **تحاشي الأمر الواقع** » • فانه لا يمكن عبور الهوة بين الواقع العقلى والواقع الراهن بالفكر التصورى • فالاحتفاظ بما ليس بعد حاضرا كهدف فى الوقت الحاضر خيال • والصله الجوهرية بين الخيال والفلسفة واضحه من الوظيفة التى يعزوها اليه الفلاسفة مثل أرسطو وكانت وهى ملكة «**التخيل**» •
وعند ماركيوز أن التخيل مقدرة فريده على « حدس » موضوع ما وان كان هذا الموضوع غير حاضر ، وخلق شىء جديد من مادة معطاه من مواد الادراك ، وبهذا فهو يدل على درجه كبيره من الاستقلال عن المعطى وعلى درجه كبيرة من الحريه وسط عالم من اللاحرية • فحين يستطيع التخيل أن يتجاوز ما هو حاضر ، يستطيع ان يتوقع المستقبل • ومع ذلك فليس ما يشغل النظريه النقديه وصف عالم مستقبل وان لم تكن استجابة الخيال لمثل هذا التحدى تمثل – من وجهه النظريه النقديه – عبثا •

ويبدو التركيز القوى على دور الخيال متناقضا مع الطابع العلمى الصارم الذى جعلته النظرية النقدية معيارا لمفاهيمها • ويصف ماركيوز الخيال بأنه أداة هائله فى مهمة التمثل المستمر للهدف فى موقف يكون فيه مثل هذا المستقبل امكانيه حقيقيه • « **وبدون الخيال تظل كل معرفة فلسفية في قبضة الحاضر أو الماضي ومقطوعة الصلة بالمستقبل الذى هو الصلة الوحيدة التى تربط بين الفلسفة والتاريخ الحقيقى للانسان** » • (٩)

النظرية النقديه وتقديس العلم

واذا كانت هذه علاقة النظرية النقدية بمفهوم الخيال ، فان علاقتها بمفهوم العلم تأكيدها أن المهمة الوحيدة المتروكة للفلسفة هى توضيح أشد نتائج العلوم عموميه • فهى ترى أن العلم قد برهن بما فيه الكفاية على مقدرته على خدمة تطور القوى الانتاجية وعلى فتح امكانيات جديدة



لوجود أكثر ثراء . وعلى حين كان التحالف بين الفلسفة المثاليه والعلم ينوء بحمل الخطايا الناشئة عن اعتماد العلم على علاقات السيطرة القائمه فى المجتمع البورجوازى ، فان النظرية النقدية فى المجتمع تستلزم فصل العلم عن هذا النظام القائم . **وتؤكد النظريه النقدية على ضرورة التخلص من اضفاء طابع القدسية على العلم ، فلا بد من نقد مستمر للأهداف والمناهج العلمية يضع فى اعتباره كل موقف اجتماعى جديد . فالموضوعية العلميه ((ليست أبدا ضمانا كافيا للحقيقة))** .

فهل تقف النظرية النقدية بنقدها عند حدودها الخاصه ، أم أن نقدها يمتد اليها نفسها : يؤكد ماركيوز أن النظريه النقدية نقديه ازاء ذاتها وازاء القوى الاجتماعية التى تشكل أساسها هى نفسها . ولكنه تأكيد لا تسنده عملية نقد ذاتى واضحة . اذ يكتفى ماركيوز بالقول بأن العنصر الفلسفى فى النظرية هو شكل للاحتجاج على « النزعة الاقتصاديه الجديدة » التى من شأنها أن تعزل الصراع الاقتصادى وأن تفصل المجال الاقتصادى عن المجال السياسى . ويوجه ماركيوز ذلك النقد المعروف الى النظرية المادية فى المجتمع بأنها نظرية تنتمى للقرن التاسع عشر وأن أمورا كثيرة قد تغيرت منذ ذلك الوقت ، ومع ذلك فانه ينتهى الى أن الموقف الذى واجه نظرية المجتمع فى القرن التاسع عشر يتكرر اليوم بصورة مختلفة . فان الظروف الحقيقية تقع - مرة أخرى - تحت المستوى العام للتاريخ . ذلك أن تكبيل قوى الانتاج والابقاء على مستوى الحياة منخفضا من الخصائص المميزة حتى للدول المتقدمة صناعيا . والنظرية النقديه ترتبط بهذه الحقائق ، فهى تظهر فيها كجزء من العملية التى تنقل الى الوعى الامكانيات التى بزغت داخل الموقف التاريخى الآخذ فى النضج . وهذه الامكانيات محفوظة فى المفاهيم الاقتصادية والسياسية للنظريه النقدية .

فهل لبى ماركيوز حقا دعوة لوكاتش فى كتابه ((التاريخ والوعى الطبقى)) لأن تتعلم المادية التاريخية أن تطبق منهجها على نفسها ؟

---

(١) فلسفة النفى Negations ، ص ٧٣ .

(٢) فلسفة النفى ، ص ١٤٠ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٤٢ .

(٤) ص ١٤٣ .

(٥) ص ١٤٥ .

(٦) « التسامح القهرى » فى كتاب « نقد التسامح الخالص » تاليف روبرت . بعرل وولف وبارينجتون مور وهربرت ماركيوز ، لندن ، ص ٩٥ .

(٧) ماركيوز ، تاليف آلازدير ماكنتير ، لندن ، ص ٢٢ .

(٨) فلسفة النفى ، ص ١٥٠ .

(٩) نفس المرجع ، ص ١٥٥ .

هربرت ماركيوز

من ديالكتيك اللغة
إلى لغة الديالكتيك

مجاهد عبدالمنعم مجاهد

يناديننا الوجود ، ولكننا نصم آذاننا عن نداءه .. يتحدث الينا بلغته ، لغة الباطن والتاريخ .. ولكننا مشغولون بلغة ذواتنا المتقوقعة وأنانيتنا المفرطة .. ولأننا خارج لغة الوجود فاننا بلا مأوى ذلك أن « اللغة هى منزل الكينونة وفى منزلها يسكن الانسان ، ومن يفكر أو يخلق بالكلمات انما هو حارس لهذه السكنى » (هيدجر : رسالة فى النزعة الانسانية : ص ٢٧١) .. فاذا لم نعرف كيف نتحاور مع الوجود أصبنا بالجمود والانكماش لأننا فى هذه الحالة نكون قد أجرينا مونولوجا داخل أنفسنا .. ان اللغة كما يقول هيدجر « هى منزل الكينونة تمتلكه وتتخلله ، ولهذا فان النقطة الجوهرية هى التفكير فى ماهية اللغة ، فى تطابقها مع الكينونة ، وأكثر من هذا التفكير فى هذا التطابق الخالص ، أى سكنى ماهية الانسان » (المرجع السابق : ص ٢٨٣)

يا للابتذال !! لقد حشا آذاننا لغو فقهاء اللغة من أن اللغة هى تواصل مع الآخرين ، ونسوا أن اللغة بهذا تكون وسيطا وبالتالى تكون أداة ومن ثم تتجمد ونتجمد داخلها ، على حين أن اللغة هى السكنى الذى يقيم فيه الوجود ويعلن عن وجوده، انها الوجود وهو يفكر فى الحقيقة من خلالنا و **((التفكير الذى يفكر فى حقيقة الكينونة يفكر تاريخيا))** (ص : ٢٨٤) ومن هنا فانه « لا يتم الوصول الى مادة التفكير بالحديث عن (حقيقة الكينونة) و (تاريخ الكينونة) ، ان كل شىء يتوقف على أن نضع فى اللغة حقيقة الكينونة وجعل الفكر ينفذ الى هذه اللغة » (ص : ٢٨٩) وبهذا فان « التفكير .. **يحمل الى اللغة فى نطقها** فحسب كلمة الكينونة اللا منطوقة » (ص : ٣٠٠) ويترتب على هذا أن **((اللغة هى هكذا لغة الكينونة تماما كما أن السحب هى سحب السماء))** (ص : ٣٠٢) .

فلنأخذ مثلا يمكن أن يوضح الفكرة الدقيقة الواردة فى كتابات هيدجر عن اللغه من حيث هو مفكر **ديالكيتكى** : يمكننى أن أقول لفتاتى : « أنا أحبك » .. ليس هذا مجرد تعبير عن ذاتى، عن عاطفتى ، ليس هذا مجرد توصيل لشعورى الى الطرف الآخر .. اذا اقتصر الأمر على هذا الحد فاننا نكون فى حضرة لغة زائفة .. ولكن عندما نتعمق العبارة نجدها تعلو على هذا التعبير الجزئى : أنها تعلن أن الحب من شريعة هذا الوجود ، أنها تعلن أن الفرد يتجاوز ذاته طلبا للآخر ويؤسس الحب فى الخارج ، انها تعلن أن الفرد لا وجود له الا بالآخر ومن ثم فان الحب الذى يوجد فى الخارج لا يوجد الا بالمشاركة .. اذن فكأن الوجود الذى من شريعته الحب ، انما يعلن عن شريعته من خلالنا .. اذن فكأن الوجود الذى من شريعته أن ينقذف فى الخارج ، انما يعلن عن شريعته فى انقذاف الحب فى الخارج من خلالنا .. اذن فكأن الوجود الذى من شريعته أن يتجاوز ذاته ، انما يعلن عن شريعته لكى نتجاوزه وكى نجعله يتجاوزنا من خلالنا ..

اذن فان عبارة « أنا أحبك » ليست بهذه البساطة : مجرد اعلان عن عاطفة ، بل هى الوجود يعلن عن ذاته .. هى ذلك التاريخ الذى استمر حتى يستمر الوجود فى أن يكون الحب شريعته هى ذلك المستقبل الذى يريد أن يمتد حتى يستمر الوجود فى أن يكون الحب شريعته .. ان « أنا أحبك » هى شمولية الوجود .. أنها الجزئى ظاهريا الكلى جوهريا .. انها تجميد الواقع فى لحظة فى الظاهر ، غير أن الباطن أنها شوق لتجاوز هذا الواقع .. وان « أنا أحبك » تعنى أيضا أن هناك تهديدا يحيط بهذا الحب .. اننى أخشى ألا يكون الحب من شرع الوجود ، ولهذا أعلنه حتى أقاتل من يمكن أن ينكر أن الحب من شريعة الوجود .. اننى أجعل الحب الذى كان خفيا فى الوجود يظهر ، اننى أكشفه ، أزيح عنه غطاءه ، اننى ارفع عن الوجود تحجبه ..

هذا هو ديالكتيك اللغة ، خروج من الحالة الوقائعية الى الامكانية .. تجاوز للجزئى واظهار للكلى .. هرب من ضيق أفق الماضى الى رحابة المستقبل . فماذا ياترى فعل الفيلسوف المعاصر هربرت ماركيوز ، الذى قيل عنه انه فيلسوف الشباب والطلبة ، بهذا الديالكتيك ؟

تنبنى نظرية ماركيوز فى اللغة على نظريته فى المجتمع المعاصر والنظريه النقديه لتغيير هذا المجتمع .. أما بالنسبة للموضوع الأول فهو يذهب الى أن المجتمع الصناعى التكنولوجى المعاصر ، مجتمع الوفرة ، قد سلب المجتمع قدرته على الثوريه وأنه أحال انسان الشمول الممكن الى انسان ذى بعد واحد مسلوب الارادة .. وأما بالنسبة للموضوع الثانى فهو أن النظرية الاجتماعية نظرية نقدية ، « نقدية لنفسها وللقوى الاجتماعية التى تشكل أساسها » (هربرت ماركيوز : فلسفة النفى ، ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد ، ص ١٦٨) فما موضع اللغة بين هذين الموضوعين ؟

يقول ماركيوز : « وهكذا ينشأ أنموذج **للفكر والسلوك ذى البعد الواحد** فيه تستبعد الأفكار والآمال والأهداف التى تتجاوز بمحتواها الكون القائم للقول والفعل أو ترتد الى اطار هذا الكون » (ماركيوز : الانسان ذو البعد الواحد ص ١٢) .

يلاحظ ماركيوز أن المجتمع الصناعى المعاصر يلجأ الى الأكليشيهات والشعارات والاختصارات والعبارات المركبة الأمر الذى يسطح الدلالةويميع المعنى الحقيقى للأمور .. يقول : « ان الكلمة تصبح أكليشيها وهى كالكليشيه تتحكم فى الحديث أو الكتابة ، ومن تم يعوق الاتصال التطور الأصيل للمعنى » (المرجع السابق : ص ٨٧) .. ان ماركيوز ساخط على الاسلوب النمطى فى التعبير : « ان (القنبلة النظيفة) و (تساقط الاشعاع الذرى الا مؤذى) ليس الا ابداعات متطرفة لأسلوب نمطى » (المرجع السابق : ص ٨٦) وهو يكشف عن اللاعقلانية الكامن فى عقلانية اللغة المعاصرة : « ان المنطق واللغة يصبحان عقلانيين تماما عندما نعلم ان غواصة ذرية حاملة للصواريخ تكلفت ١٢٠ مليون دولار وان أنموذج المخبأ هو المخبأ المؤثث بالسجاد والمراوح وأجهزة التليفزيون وهو مخبأ يتكلف ١٠٠٠ دولار . **ولا يقوم الصدق أساسا فى أن هذه اللغة تبيع .. بل بالأحرى فى انها تروج للتوحد المباشر بين المصلحة الخاصة والعامة بين العمل والقوة القومية ، بين الرخاء وتدمير الامكانية** » (المرجع السابق : ص ٩٠) .. **ان ماركيوز يلجأ الى لغة الديالكتيك ليكشف الاستخدام السلبى للغة حتى تلف الخناق على الانسان المعاصر فتفقده الثورية** .. من هذا التعابير الموحيه والاختصارات والتفخيم بالنسبة للضمائر .. يقول : « وينتشر استخدام التعابير الموجزة . مثال على ذلك : (تيلر ـ ذو الحاجبين الكثين) ، (أبو القنبلة الهيدروجينيه) ، (فون براون مخترع الصواريخ العريض المنكبين) ، (حفل عشاء علمى حربى) ، (الغواصة النووية قاذفة الصواريخ) مثل هذه التعابير ـ وربما لم يكن الأمر مجرد صدفه ـ تتردد بصفة خاصه فى عبارات تربط التكنولوجيا بالسياسة بالنزعه العسكريه وتدمج المصطلحات التى تدل على مجالات مختلفة تماما أو كيفيات مختلفه تماما فى كل صلب شامل » (المرجع السابق : ص ٩٣) .. أن وصف مخترع القنبلة الهيدروجينية بأنه أب هو خداع مقصود يربط الحنو بالتدمير ، يستخدم الوصف الأول الشعرى لمحو فاعلية الشىء الثانى الفعلى .. وفى هذا يتبدى مكر العقل : **« يمكن للانسان أن يغامر ويرى فى بعض هذه التراكيب** (مكر العقل) ـ فالتركيب قد يساعد على جمع **مشكلات غير مرغوبة** » (المرجع السابق : ص ٩٤)

ان ماركيوز يوضح أنه فى المجتمع المعاصر تسلب عقول الجماهير الأمريكية مثلا وذلك عندما تنسب الأشياء للجماهير وتبدو وكأنها نابعة منهم وصادرة عنهم .. يقول فى الكتاب نفسه : « وتتأسس الألفة نفسها من خلال اللغة المصطنعة بصبغة شخصية وتلعب دورا كبيرا فى وسائل الاتصال المتقدمة . هذا عضوكم (أنتم) فى الكونجرس ، هذا دربكم (أنتم) ، هذا مخزنكم (أنتم) المفضل ، هذه صحيفتكم (أنتم) ، لقد جلب خصيصا (لكم) ، انه يدعوكم (أنتم) الخ.. وبهذه الطريقة فان الأشياء والوظائف العامة المفروضة الموحدة المعيار تتمثل كما لو كانت (خصيصا لكم) » (ص : ٩٢) .. ويلقى **ماركيوز الضوء ساطعا على جوهر هذه العملية .. « اختصار المفهوم فى صورة محددة ، التطور المتجمد فى صيغ سحرية صادقة بذاتها ، التحصن ضد التناقض ، توحيد الشىء والشخص بوظيفته ــ هذه الاتجاهات انما تكشف العقل ذا البعد الواحد فى اللغة التى يتكلمها »** (المرجع السابق : ص ٩٦ ــ ٩٧) .. وما هو هدف هذه اللغه الوظيفيه ؟ **« ان اللغة الوظيفية هى لغة معادية للتاريخ تماما : ان العقلانية الاجرائية لا تفسح الا مكانا واهنا واستخداما ضعيفا للعقل التاريخى »** (المرجع السابق : ص ٩٧) ويبلور ماركيوز المسألة قائلا : « اذا ما جمد السلوك اللغوى التطور التصورى واذا وقف ضد التجريد والتوسط واذا استسلم للوقائع المباشرة ، فانه يرفض الاقرار بالعوامل القائمة وراء الوقائع ، ويرفض الاقرار بالوقائع ومحتواها التاريخى » (المرجع السابق : ص ٩٧) .. واذا كان المجتمع التكنولوجى يمارس الرقابة فان ماركيوز يبين ديالكتيكيا كيف تستحيل اللغة نفسها الى أداة للرقابة : **« ان اللغة لا تعكس هذه الرقابات فحسب بل تصبح هى نفسها أداة رقابة حتى حيث لا تنقل الاوامر بل المعلومات »** (المرجع السابق : ص ١٠٣) ..

الأولى وواقع الثانية » (المرجع السابق : ص ١٨١) وهو يندد بمتجه هده المدرسه : « ان التحاليل اللغوى يحيط مصطلحات اللغة العاديه بالالغاز بان يتركها فى السياق القمعى لعالم القول القائم » (المرجع السابق : ص ١٩١) وببصيرة ينفذ ماركيوز الى الحركه الجدلية فى اللغه العاديه التى يهتم بها فلاسفه التحليل اللغوى اهتماما صوريا : « ان الناس وهم يتحدثون أيضا لغة سادتهم والمحسنين اليهم وأصحاب الدعايات . ومن ثم فانهم لا يعبرون فحسب عن **أنفسهم** ومعرفتهم ومشاعرهم وتوقاناتهم ، بل يعبرون عن شىء آخر غير أنفسهم » (المرجع السابق : ص ١٩٣) ويصور لنا ديالكتيك اللغة ببراعة شديدة .. « (ان ما يقصده الناس عندما يقولون) مرتبط بما لا يقولونه . أو ، ان ما يقصدونه لا يمكن ان يؤخذ كقيمة مباشرة لا لأنهم يكذبون ، بل لأن عالم الفكر والتطبيق الذى يعيشون فيه هو عالم التناقضات المستخدمه » (المرجع السابق : ص ١٩٤) ومن ثم يندد ماركيوز بانكار فلاسفة اللغة المعاصرين لما وراء اللغة العادية : « ان اللغة السائدة **تحتوى** على اللغة الماورائية » (المرجع السابق : ص ص ١٩٥

فاذا كان ماركيوز قد بين أن ما يقوله الناس مرتبط بما لا يقولونه ، فهل نجد نحن فيما يقوله هو الشىء الذى لا يقوله ، أو الذى يقوله بطريقة ورائية ؟

ولكن ، ما الذى يجعلنا نطرح هذا السؤال ؟ ألم يتناول اللغة تناولا جدليا ؟ ألم يستخدم الجدل الهيجلى ببراعة شديدةلكشف كوامناللغة وكوامن من المجتمع الصناعى الذى يجعل الانسان من خلال اللغة نفسها انسانا ذا بعد واحد ؟

والوضعيه المنطقية بالنسبة لمشكلة اللغة ، وينقد طريقتهما فى التحليل اللغوى لأنهما تهتمان باللغة المباشرة وتهملان التصورات ولأنهما تسويان بين الكلمات « فالترجمة الاجرائية أو السلوكيه تقيم تماثلا بين مصطلحات مثل (الحرية) و (الحكومة) و (انجلترا) وبين (الكنيسة) و (الأناناس) ، تقيم تماثلا بين واقع

يقول ماركيوز فى كتابه (الماركسيه السوفيتية) « **ان اللغة المصطبغة بصبغة الطقوس تحتفظ بالمحتوى الأصلى لنظرية ماركس على أنه حقيقة ينبغى الاعتقاد بها وتعتقد فى التطبيق الذى يظهر تماما على نحو مخالف** » (ص : ١١٥) وهكذا تتساوى عند ماركيوز الشعارات واللغة السحرية الطقوسيه فى المجتمع الاشتراكى والمجتمع الرأسمالى . هل ما يقوله أصحاب المعتقد

الاشتراكى ليس الا « تصريحات برجماتية أكثر منها منطقية كما يشير بهذا بوضوح بناؤها التركيبى النحوى فهى صيغ بدون تأويلات ، ثابتة ، تتطلب جوابا دون تأويل ، جوابا ثابتا »؟ (المرجع السابق : ص ١١٢) فهل هذه نظرة ديالكتيكية ؟ **ان الديالكتيك ليس الا العينى فى حركته** ‥ فاذا ساوينا بين المجتمعين فى استخدامهما للغة الشعارات والاكليشيهات ، فان ماركيوز لابد مرتب أمرا : قلب النظامين اللذين أوجدا هذه اللغة الطقوسية ‥ فليصرح بأنه يهاجم المجتمع الرأسمالى ما دام فى الآخر سيكسب الهجوم على المجتمع الاشتراكى ‥ لو كان ماركيوز قد استخدم الديالكتيك استخداما حقيقيا ملتقطا العينى لكان قد توصل من خلال دراسته لمشكله اللغة الى : المجتمع الرأسمالى بلجوئه الى اللغة الطقوسية انما يستهدف الى افقاد الجميع الثورية وصبهم فى قوالب صورية ، أما فى المجتمع الاشتراكى وهو يبنى المجتمع الجديد فقد يسقط فى **جانب** من بنائه وفى **لحظة ما** فى أحادية التفكير ‥ وكان الديالكتيك لابد موصله الى : لمحو ما يقوم به المجتمع الرأسمالى من خلق الانسان ذى البعد الواحد بلغه الطقوس لابد من محو الأساس الذى يرتكز عليه هذا المجتمع : استلابه للانسان ‥ وكان الديالكتيك لا بد موصله الى : لمحو ذلك **الجانب** الذى قد يسقط فيه المجتمع الاشتراكى خلال بنائه الجديد فى أحادية التفكير لا بد من تصحيح هذا بالنقد والنقد الذاتى لا بقلب المجتمع جميعه، والأمر كما وضح ماكنتير فى كتابه « ماركيوز » « **من الوهلة الاولى يخلط ماركيوز مسائل اللغة بالمسائل الخاصة بالتفكير ويخلط هذين الأمرين بالمسائل الخاصة بالانطولوجيا** » (ماكنتير : ماركيوز ، ص : ٨٥)

وعلى هذا نتبين خبث المقصد لدى ماركيوز ‥ نتبينه عندما نضع فى اعتبارنا ما كان يقوله فى كتابه «العقل والثورة» قبل أن يوظف فكره ضد الانسان ‥ انه ينقل عن موريس بلانشو : « **ان الكلمة فى اللغة الأصيلة (ليست تعبيرا عن شىء ، بل هى غياب هذا الشىء ‥ ان الكلمة تخفى الأشياء وتفرض علينا احساسا بغياب شامل ، بل بغيابها هى ذاتها** » (ص : ٢١) ‥ ألم يوضح هو نفسه قدرة الديالكتيك الهيجلى على النفى ؟ « النفى يكون متعينا اذا كان يرد الأوضاع القائمة الى العوامل والقوى الرئيسيه التى تعمل على هدمها وعلى ايجاد الحلول البديلة الممكنة خارج نطاق الوضع الراهن ‥ وهذه العوامل والقوى فى حالة الواقع الانسانى ، هى عوامل وقوى **تاريخية** ، ويصبح النفى المتعين آخر الأمر نفيا **سياسيا** ‥ وهو بهذا الوصف قد يجد التعبير الأصيل عنه فى اللغة غير السياسة ، ولا سيما اذ أصبح البعد السياسى بأسره جزءا لا يتجزأ من الوضع القائم » (المرجع السابق : ص ٢٢) (تم احلال النفى محل السلب فى الترجمه) ٠

فهل كان اذن تناولا ديالكتيكيا ذلك الذى لجأ اليه ماركيوز وهو يحلل اللغة ؟ لقد قال فى (العقل والثورة) : « الحق أن الفارق بين الواقع والامكان انما هو نقطة بداية العمليه الجدليه التى تسرى على كل تصور فى (منطق) هيجل » (ص : ٨٤) ‥ **ان لب الديالكتيك هو التفرقة بين الواقع والامكان** ‥ فهل فرق ماركيوز بين الواقع والامكان داخل المجتمعين الرأسمالى والاشتراكى ؟ هل جاءت دراسته دراسة عينيه ؟ ألم يلجأ الى التعميم واعتبرهما على حد سواء مجتمعى الوفرة والتكنولوجيا ؟ فاذا كانت اللغة فى المجتمع الرأسمالى تريد أن تخلق من الانسان انسانا ذا بعد واحد ، فقد نسى ماركيوز ان من المفروض فى اللغة فى المجتمع الاشتراكى المساهمة فى خلق الانسان الشامل ‥ لقد نسى البعد الآخر للغة كما أوضح هو نفسه رأى هيجل : « اللغة تسمح للفرد أن يتخذ موقفا واعيا **ضد** أقرانه ، وأن يؤكد حاجاته ورغباته ضد حاجات الافراد الآخرين ورغباتهم » ص : ٩٣) ماذا بعد ان فصل ماركيوز الحنو المتمثل فى الأب عن القنبلة الهيدروجينية ؟ لقد ظلت القنبلة قائمة ، ليس هذا الفصل هو الخاتمه بل هو المقدمة لحركة القضاء على امكان ايجاد هذه الرابطة ‥ لا يأتى الحل بفصل الأب عن الهيدروجينية ، بل بالقضاء على الذين أمكن لهم أن يضموا الأب الى الى الهيدروجينية ‥ **ان** ديالكتيك ماركيوز محصور فى جانبه السلبى ، الجانب التطهيرى ، أما الجانب البناء الذى ليس الا حركه الواقع نفسه فهنا يلجأ الى العقل المكار معكوسا : فى دوامة التعبير عن مجتمع الوفرة الصناعى التكنولوجى تختفى الحقيقة الاجتماعية : **نوعية النظام** ‥ واذا كان يقول فى (العشق والحضارة): « عندما يرد المنطق وحدات الفكر الى علامات ورموز فان قوانين الفكر تصبح على نحو نهائى تقنيات للاحصاء والاستغلال » (ص : ١١١ ــ ١١٢) فاننا يمكننا القول بالمثل **ان ماركيوز وهو يجعل** المجتمع كلا مصمتا متجانسا انما يصل الى موقف

وضعى سبق له هو نفسه أن رفضه وأدانه فى كتاب « العقل والثورة » .. وهو مدرك لوظيفة هذه الوضعية تماما عندما قال : « الفلسفة الوضعية هى السلاح الوحيد القادر على محاربة (القوة الفوضوية للمبادىء الثورية الخالصة) وهى وحدها التى يمكن أن تنجح فى (امتصاص النظرية الثورية الشائعة) » (العقل والثورة : ص : ٣٣١) .. ان ماركيوز يتأمل النظام ، دون أن يبذل الجهد لتغيير النظام ، وهو عين ما أخذه على أوجست كونت الوضعى : « ان ما ينبغى عمله هو (تأمل النظام بقصد تصحيحه على النحو الملائم ، ولكن مع الامتناع فى أية حالة ، عن محاولة خلق هذا النظام) » (ص : ٣٣٥) .. ولأن ماركيوز رجل أمين للوضعية فهو قد كال الهجوم للمجتمين : الاشتراكى والرأسمالى مطبقا كلامه السابق على الوضعية : « ان الوضعية (دون أدنى تبديل لمبادئها الخالصة) تستطيع أن (توفى كل المذاهب القائمة حقها بطريقة فلسفية دقيقة) ـ وهى فضيلة ستجعلها مقبولة لدى (جميع الأحزاب والاتجاهات المؤتلفة الموجودة » (ص : ٣٤٠) ولكن نظرا لأن ماركيوز يستخدم مكر العقل مقلوبا فانه يصل الى أن تصبح فلسفته فلسفة مقبولة لدى كل الرافضين بدون ثورية ، فماذا فى استطاعة ثورة الطلبة فى فرنسا مثلا أن تحدثه وهى محصورة فى برامج اصلاحية لنظم الجامعة وما دامت محصورة فى نطاق طائفى ؟ ! ان الأمر كما أوضح ماكنتير : **« ولكن كما عرف كل من ماركس ولينين ، فان الصراع مع النظام القائم ليس من الضرورة أن يكون عامل تحرير » « ماكنتير : ماركيوز ،** ص : ٨٩) وهو نفسه يعترف بأن **« مكر العقل انما يعمل ـ كما هو الغالب ـ لصالح القوى القائمة »** (الانسان ذو البعد الواحد ، ص ١٥)

ان خطأ ماركيوز الأساسى قائم فى فهمه لدور النقد داخل الديالكتيك .. فالنقد عنده فحسب كشف لما هو سلبى ، ومن هنا جاء ابتعاده من كتاباته الأولى عن الماركسية ولجوئه الى مصطلح النظرية النقدية .. وهو نفسه يعترف بما فى نظريته من محدودية ، فهذه النظرية النقدية لأنها سلبية فحسب ، فانها « لا تستطيع أن تتنبأ » (ص : ٨٧) **.. انه يسلب الديالكتيك قدرته على نفى الوقائعى لتحقيق الواقعى ..** انه يسلب الديالكتيك ما فيه من حرية على نحو ما سبق له هو نفسه أن أدرك فى كتابه (العقل والثورة) : **« منهج الجدل هو كل يظهر فى كل**



تصور فيه (نفي الموجود وهدمه) ومن ثم فهو يقدم الاطار الفكرى العامل لفهم النظام القائم فى كنيته وفقا لصالح الحرية » (ص : ٣٨٥) بل لقد كان يدرك الصلة بين لغة الديالكتيك ولغة الشعر عندما قال فى الكتاب عينه « العنصر المشترك بينهما هو البحث عن (لغة صادقة) — لغة النفي بوصفه (الرفض العظيم) لقبول قواعد لعبه نردها مغشوش · ان من الضرورى أن نجعل الغائب حاضرا لأن **القدر الأكبر من الحقيقة يكمن فيما هو غائب** »(ص : ٢١) ·· لقد فقدالديالكتيك حده الماضي ، ومن هنا ضيق أفق النظرية النقدية « ان النظرية النقدية للمجتمع لا تمتلك أية مفاهيم من شأنها أن تعبر الهوة بين الحاضر ومستقبله ، ولا تقدم وعدا ولا تظهر نجاحا ، انها تظل نافية ، ومن ثم فهى **تريد أن تظل مخلصة لأولئك الذين — بدون أمل — قد أعطوا وأعطوا حياتهم للرفض الأكبر** » (الانسان ذو البعد الواحد ، ص : ٢٥٧)

فبتلاعب شديد بالعبارات ولجوء الى كلمات عامة مبهمة : التكنولوجية ، مجتمع الوفرة ،البعد الواحد الخ استطاع ماركيوز أن يطمس الحقائق ، « والنتيجة هى أن تأكيدات ماركيوز تظل طاقية سحرية وتكون موحية أكثر مما هى معقولة ، تماما بالرغم من أنه يستحيل القول باحكام ما هو بالضبط الموحى به · والنتيجة تكون شعوذة لا عقلانية وسحرية أكثر مما هى استخدام فلسفى للغة « ماكنتير : ماركيوز ، ص ٨٥ »

واذا كان ماكنتير يقول : « **فلسفة الهيجليين الشباب ، وشذرات من الماركسية ، ونتف منقحة من السيكولوجيه الفلسفية لفرويد : من هذه المواد قدم ماركيوز نظرية تثير — مثل عديد من نظريات سابقيه — الأسماء الكبرى للحرية والعقل بينما تخون جوهرها كل نقطة هامة** » (ص : ٩٢) فان هذه الخيانه تتم باستغلال البراعة التى بين بها هو نفسه دور العقل المدار فى فلسفة هيجل عندما كان ماركيوز **يعمل تحت** مظله الفكر الالمانى العظيم بتراثه الهيجلى والمدى لكنه استغل هذا المكر مقلوبا وهو يعمل فى ظل التراث الهائل للبراجماتيه المناهضه للانسان والحقيقة ··

وقد يستحيل تعبير « أنا أحبك » لدىماركيوز الى أنه تعبير يتم فى ظل مجتمع متجانس يسلب الانسان فاعليته ويحيله الى انسان البعد الواحد، ومن ثم فان هذا الحب يكون مقضيا عليه ·· **وينسى أن « أنا أحبك » نداء من الوجود نفسه لكى نحيط هذا الحب بالحمايه ، موجها النداء للآخرين لكى يحموا حقيقة هذا الوجود ·· ينسى ماركيوز أن « أنا أحبك » هى مسكن الوجود الذى يدعونا الى الداخل كى نكون فى حضرته دافئين ·· !!**

المراجع

١ — ماركيوز (هربرت) : العقل والثورة · هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية (ترجمة : د · فؤاد زكريا الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر — ١٩٧٠ ·

٢ — ماركيوز (هربرت) : فلسفة النفي ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد) دار الآداب — بيروت — ١٩٧١ ·

3. Heidegger, M.: Letter On Humanism. (Tr. By Lohhner, E.) In: Barrett, W. and Aiken, H.D. Philosophy In The Twentieth Century (Vol. III) Random House — N.Y. — 1962.
4. Mac Intyre, A.: Marcuse. Fontana — London — 1970.
5. Marcuse, H.: Eros And Civilization Routledge And Kegdan Paul — London.
6. Marcuse, H.: Le Marxisme Soviétique (Tr. Par Cazes, B.) Gallimard — Paris — 1963.
7. Marcuse, H.: One Dimensional Man Beacon Press — Boston — 1966.

النظرية الاجتماعية عند ماركيوز

بقلم : ريتشارد جودوين
عرض وتلخيص : حسني تمام

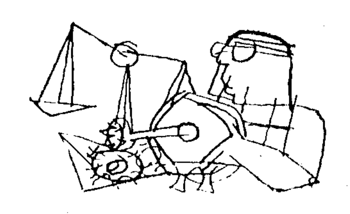
ولد هربرت « ماركيوز » فى برلين عام ١٨٩٨ لأبوين على قدر من الثراء . وقد درس الفلسفة فى جامعتى برلين وفريبرج ، وحصل على درجة الدكتوراه وهو بعد فى الرابعة والعشرين من عمره وفى عام ١٩٣٣ ، أصبح « ماركيوز » ـ بدعوة من ت. و. أدورنو وماكس هورخيمر ـ عضوا فى معهد الأبحاث الاجتماعية فى فرانكفورت . وبعد عام انضم الى سيل اليهود الهاربين من ألمانيا النازية ، وأقام لفترة فى لوس أنجيلوس مع مجموعة من المهاجرين الألمان الليبراليين والثوريين من بينهم برتولد بريخت وتوماس مان وآخرين . وفى عام ١٩٤٠ أصبح « ماركيوز » مواطنا أمريكيا ، وبعد نشوب الحرب العالمية الثانية بقليل التحق بمكتب الخدمات الاستراتيجية كضابط مخابرات مدنى .

وبعد انتهاء الحرب انتقل الى العمل فى وزارة الخارجية الأمريكية ولكنه استقال فى عام ١٩٥١ . وكان ماركيوز يرتبط ارتباطا واهيا بالمعهد الروسى التابع لجامعة كولومبيا فكان يلقى محاضرات فى جامعتى كولومبيا وهارفارد ، وفى عام ١٩٥٣ منحه أبرام ساتشار مدير جامعة براندير أول وظيفة جامعية رسمية . وبعد اثنى عشر عاما ، وعلى أثر سلسلة من المنازعات مع المدير ساتشار، وجد ماركيوز أن عقد عمله بعد اعتزاله لن يجدد. وفى عام ١٩٦٥ انتقل الى معهد لاجولا التابع لجامعة كاليفورنيا حيث عمل بتدريس الفلسفة حتى اضطرته الضغوط السياسية ـ منذ عامين ـ الى اعتزال العمل الجامعى .

وكان أول مؤلف كبير « لماركيوز » هو « الأنطولوجيا عند هيجل » الذى نشر بالألمانية عام ١٩٣٢ ولم يترجم حتى الآن . وكان أول كتاب له بالانجليزية هو كتاب «العقل والثورة» (١٩٤١) وفيه قدم دراسة لموقف هيجل الثورى . وفى عام ١٩٥٥ ، أصدر « ماركيوز » كتاب « ايروس والحضارة » الذى وصفه بانه « بحث فلسفى فى معنى الفرويدية للفهم الاجتماعى » . وفى عام ١٩٥٨ أصدر كتاب « الماركسية السوفيتية » ندد فيه بوحشية الماركسية كما طبقت تحت حكم ستالين . أما أوسع كتبه انتشارا وأكثرها شهرة فهو كتاب « الانسان ذو البعد الواحد » وهو نظرة متشائمة لحالة الانسان فى المجتمع التكنولوجى الحديث ، وقد صدر عام ١٤٩٦ .

وفى عام ١٩٦٥ أصدر « ماركيوز » « التسامح الطاهر» وهو مقال يرفض فيه الحاح جون ستيوارت ميل على حرية الكلام ، وفى عام ١٩٦٩ أصدر ماركيوز « مقال عن التحرر » .

يبدو ذلك الفيلسوف الذى بلغ عمره اثنين وسبعين عاما ، فى صورة الشخص الذى لم يدخر وسعا من أجل تحديد معالم الطريق نحو ثورة فكرية اجتماعية جديدة.. الا أن ذلك لم يحل دون تعرضه لهجوم فريق من المفكرين كان يوجه له نقدا حادا .. فلا يتردد فى أن يتهمه بأنه يناقض ذلك تماما .. ومن ثم فحتم على من يحاول أن يدرس فكر هربرت «ماركيوز» ويتناوله بالتحليل والتقييم أن يكون على درجة كبيرة من الانتباه والحذر ، ذلك لأن أى قصور أو خطأ قد يتعرض له الباحث أو الناقد فى هذا الصدد ، قد ينتهى به



الى نتائج غير صحيحة . وهنـــا ينبغى أن نطرح هذا السؤال : فى أى جانب فكرى يقف هربرت ماركيوز ؟

من الواضح أن تصور « ماركيوز »لعالمالأشياء والطريقة التى يعالج بها القضايا الانسانية انمـا تجعلالمرء يعانىكثيرا من أجل تقييمهذا الفيلسوف تقييما عادلا صحيحا .. فأسلوبه هنا انما هـــو مزاج من التعقيد الشديد ، ولهجة التأكيد القاطعة الجامدة ، كما أنه لايخلو من خلـط بين النتـــائج الميتافيزيقية ، والعبارات الخبرية التقريرية ... ونلاحظ فوق ذلك أنه كثيرا ما ينـــأى عن المنطق التاريخى والشواهد المحسوسة حين يعرض لأمر من الأمور ، وقد فاته أنهما يمثلان المصدر الحقيقى لـكل فهم ومعرفة .. فمثلا حين يتحدث عن القوة المخيفة للتكنولوجيا الحديثة ، نراه يغفل عن ذكر تلك الوقائع التى تتعلق بالملاحظة التجريبية ، كما أنه من النادر أن يقدم بعض الأدلة التى تدعموجهة نظره فى هذا الشأن .. وواضح أنماركيوز انما هو مفـــكر يـكتب عن مشاكل المجتمع الصناعى الحديث ، ومع هذا ، فهو نادرا ما يشير الى دولة صناعية كبرى مثل الولايات المتحدة .. كما أنه لا يذكر مطلقا أنه أجرى ملاحظات ضـــافية عن هذا المجتمع وعن طبيعة شعبه وثقافته . والحق ان هذا لا يؤدى الى خطأ النتائج التى توصل اليهـا فحسب ، وانما يمثل ثغرة خطيرة فى تقـــاليد النقاد الاجتماعيين ، ابتداء من ماركس حتى س. رايت ميلز ، الذين كانوا يبذلون جهودا مضنيـة فى تجميع المعلومات عن المجتمع الذى يفكرون فى تغييره .

ويدين ماركيوز بمنهج فلسفى ثابت هو منهج الديالكتيك أو قل « قوة التفكير السلبى » وهـو مستمد من الفكر الهيجلى والماركسى .. وقد التزم « ماركيوز » بهذا المنهج وقام بتطبيقه فى مجـال القضايا الاجتماعية والانسانية .. ويمكن التعبير عن تصور « ماركيوز » للعالم على النحو التـالى : كل ما هو واقعى موجود ، وما التاريخ الا سجل لنضال الانسان من أجل البقاء ، ضد الطبيعـة وضد صنوف القهر فى المجتمع الانسانى .. ان الصراع منأجل البقاء انما هو قدر الانسانالمحتوم الذى لا فكاك منه ما دام قد اختار أن يعيش حياة متحررة ، خاليـــة من التبعيـــة ، والقســوة ، والسخرة والقهر .. ان مثل هذه الحيـــاة هى ما نعنيه بالحرية .. تلك الحرية التىيمكنللمرء أن يحقق فى ظلها امكاناته ومطامحه .. لـكن اذا كان ذلك جائزا فى عالم الفكر النظرى فانه يتعذر تحقيقه فى عالم الواقع .. ذلك لأن هنـــاك هوة سحيقة تفصل دائما بين امكانات الوجود الانسانى وطبيعة الواقع الاجتماعى .. ومن الواضـــح أن الفكر الجدلى يبحث عن طبيعة تلك الهوة .. لكنه لا يتصرف هنا كمصلح ليبرالى يركز اهتمامه على طرق تحسينالنظام الاجتماعى . أنه ينقد ، ويهاجم محاولا اقتلاع تلك الهنات التى تصيب واقعـــه بالضعف والاعوجاج .. وهو يسعى جاهدا من أجل خلق مجتمع جديد يخلو من تلك الفروق التى تفصل بين الامكانية والواقع ، تلك التى تعنى فى أى مجتمع أن الانســـان ليس حرا ، وأن وجوده ليس عقليا . ان هذا « اللامعقول » يتخلل بنيـان المجتمع كله ، ويؤثر فى كل عمل وفكر .. ومن ثم فان كل الأقوال الدارجة عن الواقـــع تتضمن نقيضها ، وعلى سبيل المثال فان عبارة «انالانسان يمتلك بعض الحقوق التى لا يمكن الانتقاص منها» تعنى أيضا أن الانسان ينبغى أن يمتلك بعـض الحقوق التى لا يمكن الانتقاص منهـــا ، ولكنه فى الواقع محروم من هذا .

ان ماركيوز انمـا يطبق فى أكثـــر انتقاداته فعالية المنهج الجدلى وتكنيك التحـــدى فى معالجته للأفكار الأكاديمية التى تتضمن « العلوم السياسية، وعلم الاجتماع ، والفلســـفة الوضـعية » ، ومن الواضح أن اعتراض « ماركيوز » على كثير من الفكر الحديث هو أن هذا الفكر لا يعدو أن يكون فـكرا صوريا وصفيا ينحصر فى حدود الخبرة الانســانية الضيقة .

ومن بين الصعوبات التى يتعرض لها من يدرس النظرية الاجتماعية « لهربرت ماركيوز » أنمؤلفه الأخير وهو « مقال عن التحرر » يبدو غير متماسك الى حد ما ، كما أنه **لا يخلو من نبرة التشاؤم التى**

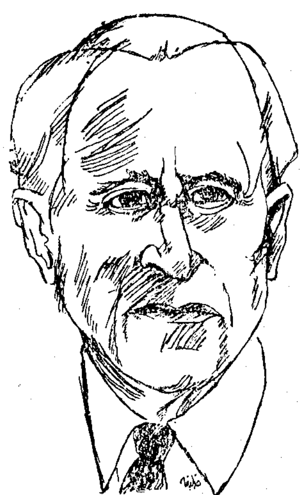
الرجل الذى أدت به ثقته فى العقل بوصفه المصدر الوحيد لأى تغيير الى أن يكتب فى عام ١٩٦٠ « أن التناقض الجدلى متميز عن كل معارضة زائفة وجوفاء سواء أكانت الوجودية أو الهيبزية » نفس هذا الرجل يجد فى عام ١٩٦٩ مغزى سياسيا عميقا فى استخدام كلمات مثل « خنزير » للاشارة الى الروح البيروقراطية المتفشية فى الموظفين الرسميين ٠٠٠

غير أن ماركيوز يعثر آخر الامر على أمله الثورى المتمثل فى قوة العالم الثالث ، التى تواجه القوة الامبريالية التى تمثلها الولايات المتحدة ٠٠٠ ويمكن القول ان « ماركيوز » بذلك قد صار بطلا للعالم الثالث على غير انتظار٠ صحيح أنه أمر طبيعى أن يحس الفيلسوف الذى تجاهله الناس عشرات السنين بالرغبة فى ربط عمله الفكرى بنموذج حى يمكن استلهامه من قوة فكرية قد اكتشفت حديثا ٠٠٠ غير أن ذلك لا يضيف قيمة جديدة الى فكرة ، ومع ذلك فانه من الاجحاف أن نقلل من قيمة فكر « ماركيوز » ونسخر منه ٠٠٠ ذلك لأن مؤلفاته « بشكل عام » تعكس بالفعل بنيانا متماسكا نسبيا ، كما أن كثيرا من الأفكار التى قد تبدو فى تصورنا جديدة ، نجدها متضمنة بوضوح وبالضرورة فى أعماله الفكرية السابقة ٠

وسواء كان الانسان يتفق أولا مع جوهر انتقاد « ماركوز » للعلم الاجتماعى الحديث والفلسفة الحديثة ـ فان استخدامه للجدل يلقى أمامه الضوء على تفاهة كثير مما تقوم به الأكاديميات ٠ انها تذكرنا بأن المعرفة والمنح الدراسية التى لا ترتبط بأرقى امكانيات الانسان ومجتمعه لابد وأن تؤدى بالضرورة الى ما فى الواقع الراهن من نقائض ٠٠ ولا شك أن انتقاد « ماركوز » للمنح الدراسية ليس الا جزءا من جهودة الأكثر طموحا لتطبيق قوة التفكير السلبى على كل مجتمعنا الصناعى المتقدم ٠

لقد قام البروفيسور ماركيوز بوصفه مفكرا مخلصا للجدل بتحديد صفة المجتمع الجديد على ضوء الامكانيات الواقعية المتاحة عند المستوى المتحقق من الثقافة المادية والذهنية ٠ فيقول ماركيوز ان الناس وقد حررتهم التكنولوجيا من الحاجة التقليدية للعمل من أجل الحصول على الضروريات ، سيكون لديهم الوقت والرغبة فى تطوير « فن الحياة » ٠ أما ما يعنيه ماركيوز بهذا فيظهر بصورة أوضح فى اتهامه لأمريكا المعاصرة ، حيث يشهد اتحاد الانتاجية المتزايدة مع التدمير المتزايد ، والاتجاه نحو الابادة ، وخضوع الفكر والأمل والخوف لقرارات القوى المسيطرة والابقاء على الفاقة فى مواجهة الثروة التى لم يسبق لها مثيل٠ ويستطيع الانسان أن يضيف الى قائمة اتهامات ماركيوز قائمة اتهاماته الخاصة مثل ـ تدمير البيئة الطبيعية ، والانهيار الروحى بواسطة المدينة الحديثة ، وتفكك روابط المجتمع والأسرة وما الى ذلك ٠

ووفقا للتقليد الماركسى ، يرى ماركيوز أن الأصل التاريخى للتناقض الاجتماعى هو الحاجة الى العمل لتوفير ضرورات الحياة الأساسية ٠ ويقول ماركيوز « ان الفلسفة تستهدف تحقيق المساواة للانسان ، ولكنها تخضع فى الوقت نفسه للانكار الواقعى للمساواة لأنه فى الواقع المعين ، يشكل الحصول على الضروريات الشغل الشاغل للأغلبية ، كما أنه ينبغى الحصول على الضروريات وتقديمها حتى يمكن للحقيقة (وهى التحرر من الضروريات المادية) أن تكون » ٠ وعلى ذلك فكلما تقدم المجتمع استطاع أن يحقق مقدرة متزايدة على مواجهة احتياجات أعضائه وهكذا يصبح أكثر كفاية وانتاجية ٠٠٠ وبالتدريج تصبح الطبقات الكادحة مدركة للتناقض الموجود بين المقدرة على تحقيق حياة أفضل وواقعها الذى تعيش فيه ، ويؤدى هذا الادراك الى زيادة وعيها لبناء مجتمع أفضل ٠٠٠٠ ويقول البروفيسور ماركيوز أن المجتمع الصناعى المتقدم أقوى ومنتج الى حد يمنع تطور « الوعى بالعبودية » فقد كون هذا المجتمع مقدرة رهيبة تجعل أعضائه يريدون ويحسون بالحاجة الى منتجات ومنجزاته ٠٠ وهكذا فهم من حيث الواقع ، وبصورة زائفة ، يوافقون على النظام الذى يشملهم ، ويجدون عزاء وهميا فى السلع التى ينتجها ، بل هم قد يهللون ويرحبون بتدميرهم ٠ ان الاحتياجات « الحقة » للانسان هى تلك التى تزيد من تطورة كانسان حر ٠٠٠ وهكذا استطاع هذا المجتمع من خلال فعاليته وانتاجيته أن يجعل الناس يريدون ما يقدمه لهم من سلع وحريات ٠ ويبلغ هذا التعليم قدرا من النفاذ والانتشار الى حد أنه وصل الى عزائز الانسان « وتكوينهم البيولوجى » ، محولا طبيعته الى أداة لقهر ذاته ٠ وهكذا خلق أعضاء هذا المجتمع « وعيا سعيدا يسهل عليهم قبول انحرافات مجتمعهم » ٠٠٠ وتشكل فكرة « الوعى السعيد » هذه جزءا جوهريا من فكر « ماركيوز » الاجتماعى ،



هـ • ماركيوز

فعلى أساس هذه الفكرة ترتكز تبريراته لعدم التسامح والحاجة الى خلق ادراك انسانى جديد ، وطبيعة انسانية جديدة وانسان جديد أصلا •

وربما كان أوضح تلخيص لفكرة قوة «النظام» هو ما ورد فى مقدمة عام ١٩٦٨ لكتاب « النفى اذ يقول « ماركيوز » « لقد غدت الارادة الشاملة ضرورية اليوم ، كما أن وسائلها متاحة ، من ارضاء الجماهير ، وأبحاث السوق ، وعلم النفس الصناعى ، ورياضيات الكمبيوتر ، وما يسمى علم العلاقات الانسانية • فكل هذه تتكفل بتحقيق الانسجام الأوتوماتيكى التلقائى الديموقراطى غير الارهابى بين الفرد واحتياجاته ومتطلباته الضرورية اجتماعيا ••• انها تتضمن الانتخاب الحر للأفراد والسياسات الضرورية لاستمرار وجود هذا النظام وتطوره • ان الالغاء الديمقراطى للفكر ، وهو ما يتعرض له « الرجل العادى » بصورة أوتوماتيكية وينفذه (فى العمل وفى استخدام جهاز الانتاج والاستهلاك والاستمتاع به) ، يتم فى التعليم العالى عن طريق الاتجاهات الوضعية فى الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس ، التى تجعل من النظام القائم اطارا للفكر المدرك لا يمكن تخطيه » •

ويؤدى هذا التحليل على الفور الى اثارة السؤال التالى ، وأنى له أن يعرف ؟ وذلك أن مدى تحول الناس وتشييعهم لخدمة النظام الحالى هى فى المقام الأول مسألة واقع تقرره الملاحظة والتحليل التجريبى ولا يقرره الاستدلال المجرد من فرضيات فلسفية • ورغم أن الولايات المتحدة هى بوضوح نموذجه للمجتمع الصناعى المتقدم ، فان من الصعب على الانسان أن يحكم من كتاباته أنه عاش فى أمريكا أو فى أى مكان آخر فى الغرب ، كما أن معظم استشهاداته مقتبسة من صحيفة تايم أو النيويورك تايمز • وهكذا فان الغرض الأساسى لنظرية ماركيوز الثورية هو فى جوهره تأكيد لا يقوم على سند يتحتم على المرء بأن يقبله على علاته • انه لمن المشكوك فيه ، أو على الأقل أمر لم يقم عليه دليل ، أن يكون المجتمع التكنولوجى الحديث أكثر قوة فى قمع الانسان • ويستطيع الانسان أن ينتقل عبر الهضبة الهندية ويرى السكان الهنود وقد عاشوا فى البؤس والكدح قرونا مستغلين ومقهورين ، ومع ذلك لم تظهر شرارة الوعى الا مؤخرا وهى رغم انتشارها لا تزال ضعيفة وهشة كما اكتشف جيفارا فى بوليفيا • صحيح أننا ـ كما قال البروفسيور ماركيوز ـ لا نملك القوى الاقتصادية الكبيرة القادرة على التغيير ، ولكننا نكون نوعا آخر من الطبقة ذات القدرة الثورية الكامنة التى يتضح سخطها على النظام وعلى الوضع الراهن للأمور ، لا فى حرم الجامعات وأحياء الزنوج فحسب بل وبين صفوف الطبقة الوسطى بأسرها، فى المعارضة المتزايدة للحرب الاستعمارية • والنقطة الهامة هنا هى أن البروفيسور ماركيوز قد بالغ كثيرا فى ابراز قوة المجتمع الحديث بينما قلل باحتقار من قدرة الروح الانسانية على الاعتراف بما تخضع له من تناقض والكفاح للتقليل منه •

ولا شك أنه كان على البروفيسور ماركيوز أن يعترف بأن البعض قد أفلتوا من « الوعى السعيد » واكتسبوا « وعيا ثوريا » •• ويتمثل ذلك باديء ذى بدء فى البروفسيور ماركيوز وأتباعه • وحتى السنوات العشر الأخيرة كان ماركيوز وأتباعه يكملون قائمة المسئولين عن التشاؤم المنتشر لنظرية « الانسان ذو البعد الواحد » • ومع ذلك فان مؤلفه الحديث يفتتح قائمة الثورة على أوضاع المجتمعات الرسمالية أمام شباب المثقفين والزنوج وشعوب العالم الثالث ••• ان كثيرا منها تسعى ، الى جانب الغاء الفقر المادى الى الحصول على تلك المزايا التى يحققها المجتمع المتقدم •• ومن الذى يستطيع أن ينكر عليهم ذلك ؟ وبالاضافة الى اكتشاف ماركيوز لجيوب جديدة للثورة الكامنة ، اكتشف أيضا علامات جديدة للضعف فى البنيان الداخلى للمجتمع الرأسمالى ومن بينها الثورة فى العالم الثالث ،

وبعض الاتجاهات نحوالأزمة الاقتصادية ،واضعاف النسيج الأخلاقى ٠٠ ولكنه سيكون من الخطأ مع ذلك ، أن نعتقد أن هذه المصادر الثورية الجديدة والتوترات الرأسمالية قد أدت الى ادخال أكثر من شعاع واه من الأمل الى ظلمة ماركيوز ٠

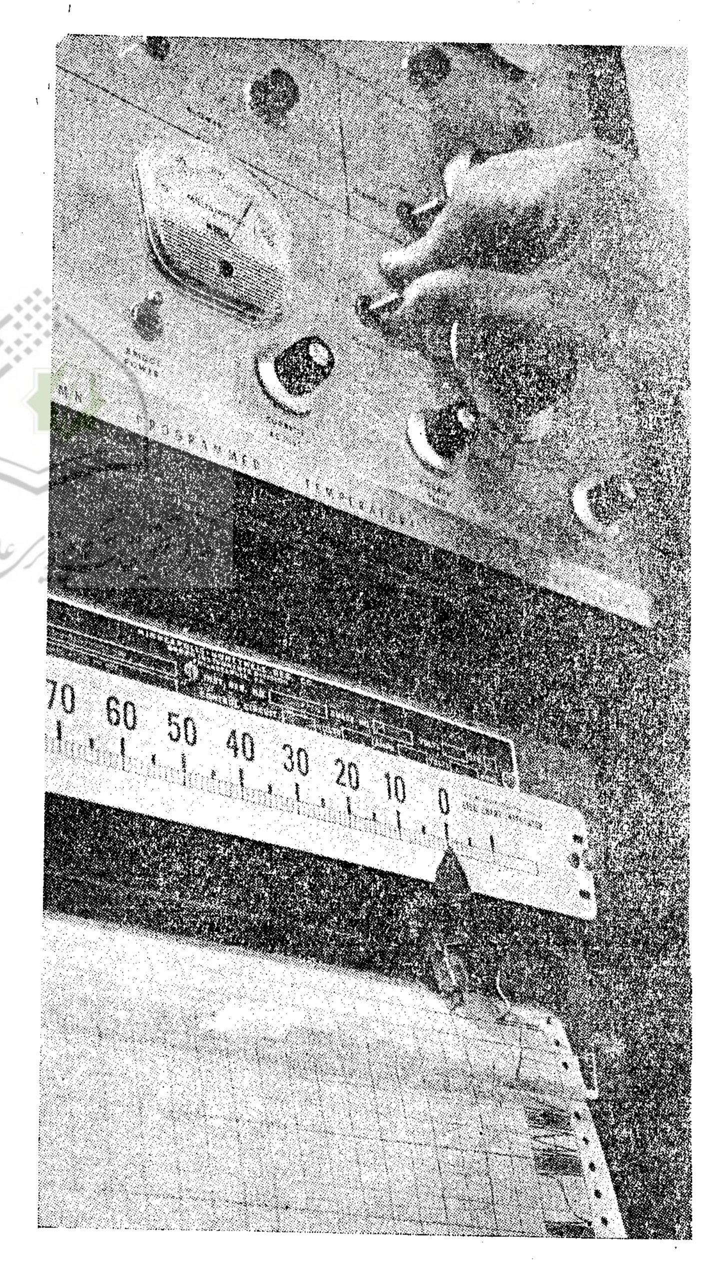
يقول البروفيسور ماركيوز « ٠ ومع ذلك فان الثورة ليست مدرجة فى جدول الأعمـال » لأن « التحول الجذرى لأى نظام اجتماعى لازال يتوقف على الطبقة التى تشكل الأساس الانسانى لعملية الانتاج ٠٠ ففى المجتمع الذى لا يستطيع الناس فيه أن يرفضوا نظام التسلط دون أن يرفضـوا أنفسهم ، ودون أن يرفضـوا احتياجاتهم وقيمهم الفردية ٠٠٠ فان التحرر سيعنى التخريب ضـد المصالح السائدة للغالبية العظمى من الشعب وضد ارادتهم ٠٠ واذا كانت الطرق السلمية الى التغيير مغلقة ، فانه يستنتج من هذا أن وسائل التغيير لابد وأن تكون عنيفة ٠ والا فكيف يتسنى للأقلية أن تفرض ارادتها على أغلبية معارضة ؟ » وتلكهى النتيجة التى يدفع اليها الى حد ما البروفيسور ماركيوز » وان يكن على غير رضى ٠ فمنالانصاف للبروفيسور ماركيوز أن أذكر أنه ينفر بوضـوح من فكرة العنف ، ويعتبرها أمرا غـير أخلاقى بصورة مجردة، ويستهدف اقامة مجتمع تنتفى فيه الدوافع العدوانية ٠٠ وهو فى لقاءاته العامة قد أنكر مرارا أنه يدافع عن العنف ٠٠ يقولماركيوز « ان اللاعنف ضرورة أكثر منه فضيلة وهنـاك فارق بين أنواع العنف٠٠٠ الا أن العنف أيا كانت صورته أمر غير انسانى وشرير ٠٠٠ »

واذا كان البروفيسور « ماركيوز » قد استطاع اقامة الدليل على أن الطرق السلمية مسدودة ، فانه فشل فى أن يدلل على الافتراض الثانى الذى لا يقل جوهرية عن الأول وهو الأمـل فى تحقيق النجاح ٠ والواقع أنه لم يكن لديه هو نفسه سوى أمل واه فى التغيير الاجتماعى ، وقد بذل كثيرا من جهده لكى يوضح مدى جبروت النظام القـائم فى المجتمعات الرأسمالية ٠٠ ويفسر ماركيوزالعنف بطريقة أخرى ٠٠ فهو يؤكد أن مجتمعا ينهمك فى المذابح التى لا معنى لها فى فيتنام ، وقهر الزنوج واضطهاد المنبوذين هو نفسـه مجتمع عنيف ٠٠ وهكذا فان الثورة على هذا المجتمع انمـا هى فى الواقع جهد يبذل من أجل تقليل هـذا العنف ٠ واذا نحن قبلنـا وصف البروفيسـور ماركيوز لمجتمعنا الأمريكى بأنه مجتمع عنيف ــ ولا شك أن قسما كبيرا منه صحيح ــ فان هذا لا يصلح مبرر للعنف الثورى ٠ لأن الثورة ليست انتقاما وهى ليست اعجابا بالذات ٠ ان الثورة جهد جاد لاحداث تغييرات أساسية فى البنيان الاجتماعى٠٠ واذا كان من غير المحتمل أن يؤدى العنف الى تحقيق هذه النتيجة ، اذن فلا ينبغى اللجوء اليه ٠



دور العلم والتكنولوجيا في بناء الدولة العصرية

كمال رستم



أكد بيان ٣٠ مارس « أن الدولة الحديثة لا تقوم ـ بعد الديموقراطية ـ الا استنادا على العلم والتكنولوجيا » واقترح البيان فى موضع آخر « أن ينص الدستور على قيام الدولة العصرية ، لأن الدولة العصرية لم تعد مسألة فرد ، ولم تعد تقوم بالتنظيم السياسى وحده وانما أصبح للعلوم والتكنولوجيا دورها الحيوى » .

ولا حاجة بنا الى القول بأن هذا هو المفهوم الحديث للدولة العصرية وقد جاء اعتراف الدولة به دليلا على رغبتها الأكيدة فى ارساء دعائم العلم والتكنولوجيا عندنا على أساس جديد وطيد .. بيد أن تحقيق هذا الغرض تحكمه العوامل الثلاثة الآتية :

١ ـ عامل انتمائنا لدول العالم الثالث . وهذا العامل يفرض علينا أن نتعرف على المشكلات المحورية التى تعانى منها بلدانه ، وأن نستوعب الحلول التى وضعت لها .

٢ ـ عامل الوجود الاسرائيلى على قطعة عزيزة من أرضنا . وهذا العامل يتطلب منا مواجهة التحدى الاسرائيلى بنفس أسلحته ، ولا يتأتى ذلك الا بدراسة معمقة لعناصر وأبعاد تفوقه فى مجال العلم والتكنولوجيا .

٣ ـ عامل ارتباطنا بمعاهدة للصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفيتى أحد الدولتين الكبيرتين اللتين تمسكان بزمام المبادرة فى العلم والتكنولوجيا وهذا العامل يتطلب منا وعياً ذكياً بالسياسة العلمية للاتحاد السوفيتى كذا مؤسساته العلمية والتكنولوجية بهدف تعميق وترشيد خبرتنا فى هذا المجال .

والسطور القادمة ليست أكثر من محاولةلعرض العوامل السابقة عرضا خاطفا حيث لا يتسع المقام لتغطية أشمل لها .

مشاكل البحث والتنمية فى الدول النامية :

ان انتماءنا الى العالم الثالث يفرض علينا أن نواجه مشاكل التخلف والجمود التى تعانى منها بلدان هذا الجزء من العالم والتى يطلقون عليها اسم الدول النامية ومفتاح حل هذه المشاكل يكمن فى ربط العلم والتكنولوجيا بالانتاج . وأذا كانت الفجوة الهائلة بين مستويات المعيشة فى الدول النامية ونظائرها فى الدول المتقدمة موازية للفجوة بين مستويات العلم والتكنولوجيا الحاصلة بين الجانبين فانه يتعين علينا أن نضع أيدينا على هذه المشاكل فى محاولة لالتماس الحلول لها . ان التنمية فى تحليلها الأخير معناها النمو والتغيير . والهدف الأساسى للتنمية هو تحسين نوعية الحياة فى الدول النامية . ولكن البحث والتنمية فى البلاد النامية تعترض طريقهما العقبات الخارجية الآتية :

١ ـ الافتقار الى نظام دولى مناسب للاختيار وتدفق الاعلام العلمى والتكنولوجى الى الدول النامية .

٢ ـ المشكلات الخاصة ببراءات الاختراع وما شابهها من الملكية الصناعية . أما العقبات الموجودة فى داخل الدول النامية فيمكن اجمالها فيما يلى :

١ ـ القصور الكبير فى قدرة البلد على امتصاص وتطبيق واقتباس العلم والتكنولوجيا وتنمية زادها من الطاقة البشرية المدربة .

٢ ـ الافتقار الى المعاهد والموارد التى تشتد الحاجة اليها لتدريب علمائها وفنييها بالدرجة التى تحتاج اليها هذه الدول للتنمية السريعة .

٣ ـ النسبة الكبيرة من العلماء الذين يتلقون التدريب وتجذبهم فرص العمل المغرية فى الدول الأكثر تقدما .

٤ ـ تطبيق العلم والتكنولوجيا على التنمية يواجهه ليس فقط الجمود بل أيضا فى كثير من البلاد المناخ الاجتماعى والسيكولوجى غير الملائم لاستخدام الاختراعات فى طرق الانتاج .

هل تستورد الدول النامية التكنولوجيا ؟

هذا السؤال طرح على اللجنة الاستشارية للأمم المتحدة وقد رفضت اللجنة وجهة النظر التى يقول بها بعض الاقتصاديين ومؤداها أن الدول النامية ليس أمامها من سبيل الا الحصول على التقنيات المستخدمة فعلا فى البلاد الأكثر تقدما وان الدول النامية تخطىء خطأ مضاعفا كما أنها تبدد مواردها ان هى قامت بالبحث على مسئوليتها ، نظرا لضخامة تكاليف البحث والتنمية والمصاعب الخاصة التى تواجهها هذه الدول ، وقد عددت اللجنة من الأسباب العديدة التى تدعو الى عدم اعتماد الدول النامية كلية على الموارد الأجنبية للتكنولوجيا الأسباب التالية :

انه يتعذر ان لم يكن يستحيل على بلد لا توجد به الا قلة قليلة من الأفراد العلميين والفنيين المدربين أن يقف على التكنولوجيا المستخدمة فى الخارج وأن يستوعبها وأن يقتبسها لسد احتياجات الأفراد الخاصة بالبلاد ، كما يتعذر على البلد نفسه الاحتفاظ بالأجهزة الضرورية واصلاحها أو حتى تشغيلها ، أما اذا قام بلد ببناء كفاءته العلمية والتكنولوجية فى الداخل فانه يكون فى وضع أفضل بكثير مما لو استخدم الأجهزة المستوردة من الخارج .

ومن هذه الأسباب أيضا أن الافتقار الى الأفراد العلميين والفنيين هو فى الحقيقة عقبة كأداء تحول دون التوسع فى تطبيق التكنولوجيا التى عرفت فعلا فى بلد آخر . وأخيرا فان التكنولوجيا المستوردة تقتبس عادة لحالات تختلف تماما عن الحالات التى استخدمت فيها فى البلد المصدر لها ، وعموما فان اختيار التكنولوجيا المناسبة لا يمكن أن يقوم به بلد يفتقر أساسا وبالدرجة الأولى الى تنمية محلية وتجريبية ، ومن أجل ذلك يجب أن يوجه البحث والتنمية نحو مشكلات الانتاج ، ويتطلب هذا أن توثق المعاهد القائمة فى هذه البلاد صلاتها بزراعة البلد وصناعته ، كما يجب أن توجه المعاهد الجديدة من البداية نحو المشكلات المحلية . ومن جهة أخرى تحول دون قيام العلم والتكنولوجيا المحلية مشكلات خاصة بالتعليم والتدريب ، ففى البلاد النامية تشتد الحاجة الى تدريس العلم بطريقة أفضل فى كل مستوياته وتدريب عدد أكبر من البحاث العلميين ، كما أن التعليم فى المستوى العالى كثيرا ما تسوده التقاليد البالية التى لا تتلاءم مع الاحتياجات الفعلية للبلاد كما تميل المناهج الى أن تتقولب على مثال مناهج البلاد التى فى مرحلة متقدمة من التنمية . وفى البلاد النامية يمكن تخريج الأعداد الغفيرة من الخريجين الذين يكونون على دراية لا بأس بها بانجازات العلم والتكنولوجيا فى الدول المتقدمة الا أنهم لا يمتلكون لا الكفاءة للبحث العلمى ولا الحافز

ولا المقدرة على تطبيق تدريبهم على المشكلات العلمية في بلادهم ٠ ولكن اذا كان المجهود العلمي والبحثي في البلاد النامية يجب أن يوجه نحو المشكلات الصناعية والزراعية فان ذلك لا يعني أبدا انصراف جهود البلاد عن العلوم الأساسية ، كما يجب ألا نهمل العلوم الاجتماعية ، ذلك أن التنمية الاقتصادية عموما والتصنيع بوجه خاص يثير العديد من المشكلات الاجتماعية ، من أجل ذلك فان الانسانيات والعلوم الاجتماعية تشكل فرعا هاما من فروع البحث العلمي لا ينفصل عن سائر فروع العلم ويخضع معها لاشراف المؤسسة العلمية في البلاد المتقدمة خلافا لما هو حاصل فعلا في كثير من الدول النامية ولا نستثنى من ذلك بلادنا ٠

اختلاف سياسات التنمية العلمية في البلاد النامية عنها في البلاد المتقدمة :

يقول السكرتير العام للجنة الاستشارية للأمم المتحدة « بوسع التكنولوجيا أن تكون أعظم قوة في العالم ترمي الى ايجاد مستويات أعلى للمعيشة ٠ بيد أن هذا الوعد الذي يقدمه العلم والتكنولوجيا يمكن الوفاء به فقط اذا ما استثمرت موارد البلاد في البحث العلمي والتكنولوجيا واذا ما تم التطبيق بروح التعاون الصادق مع مراعاة الاختلافات القائمة في البلاد المختلفة وتعمل اللجنة على اختبار امكانية اقامة برنامج للتعاون يسهم فيه العلماء والفنيون في البلاد المتقدمة في دراسة مشكلات الدول النامية» ٠

يتراءى لنا أن الدول النامية تحتاج الى عون الدول الأكثر تقدما وثراء في اقامة علمها وتكنولوجيتها المحلية على أساس سياسة للتنمية العلمية والتكنولوجية لا تكون صورة طبق الأصل من سياسة الدول المتقدمة ٠ ذلك أن الفرق بين الدول النامية والدول المتقدمة يكمن في أن الاستراتيجية التي تضعها الدول المتقدمة وتلتزم بها في الوقت الحاضر تختلف اختلافا جوهريا ومرحليا عن السياسة التي تطبقها الدول النامية في ذات الوقت ٠

ومن هنا يتضح انه لا توجد أية نماذج معيارية تتبعها الدول النامية ، واذا كان هذا هو الفرق بين الدول النامية والدول المتقدمة من ناحية السياسة العلمية فان الظروف والمشكلات تختلف اختلافا كبيرا من بلد نام الى آخر ٠ وسياسات التنمية العلمية شأنها شأن غيرها من سياسات التنمية تتوقف على نمط الدولة النامية ، ففي بعض البلاد يكون كل ما تحتاج اليه الدولة النامية هو ايجاد العلاقة التي تربط البحث الاساسي بالتكنولوجيا بينما في بلاد أخرى في مرحلة صناعية أكثر تقدما يكون ما تحتاج اليه هو ايجاد العلاقة العضوية التي تربط التكنولوجيا بالصناعة ٠ ومن المسلمات التي لا تقبل الجدل أو المناقشة ان صياغة واقتباس سياسة مناسبة تنهض دونها صعوبات في كثير من الدول المتقدمة ذاتها ، بيد ان هذه الصعوبات تتخذ شكلا أضخم في الدول النامية حيث يجب أن تبدأ السياسة العلمية عند مستوى التعليم الابتدائي وتنتهي بالانتاج ٠ ولبلوغ هذه الغاية يتعين وجود الاجهزة التالية :

١ ـ وزارة مسئولة للعلم والتكنولوجيا

٢ ـ سكرتارية علمية تحتفظ بصلات وثيقة بالمعاهد البحثية وبالصناعة والزراعة

٣ ـ مجلس للسياسة العلمية يتصل رأسا برئيس الدولة ٠

التعاون العلمي وتبادل العلماء :

وفي كل الأحوال يجب تنمية التعاون العلمي مع البلاد الأخرى سواء اتخذ شكل التعاون الثنائي أو التعاون المتعدد الأطراف وذلك حتى تتمكن الدولة النامية من الافادة من التخصص العالمي ٠ ومن مظاهر هذا التعاون تبادل العلماء والاتصالات بين العلماء في الدول النامية وزملائهم في الدول المتقدمة : وتحقيقا لهذا الغرض اتخذت اللجنة الاستشارية للأمم المتحدة توصيات لاغراء العلماء المبرزين والشبان واستقطابهم للعمل في البلاد النامية ٠

وحتى يتحقق قيام قاعدة علمية عريضة لحمتها العلم وسداها التكنولوجيا يجب أن تكون السياسة العلمية منبثقة من النظام الاقتصادي والأيديولوجية التي تعتنقها هذه الدولة أو تلك فالدول الرأسمالية تتجه سياساتها العلمية نحو انتاج أسلحة الفناء والدمار أي أن العلم والتكنولوجيا يسخران فيها لخدمة المؤسسة العسكرية ٠ أما البلاد الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي فتعمل على أن يكون العلم والتكنولوجيا فيها في خدمة الانتاج وبالتالي في خدمة الجماهير على نحو ما سنفصله في السطور القادمة ٠

العلم والتكنولوجيا في الاتحاد السوفيتي : معادر تنظيم ما قبل سنة ١٩٥٧

ان النمو السريع لقطاع البحث والتنمية وتزايد المشكلات في الاتحاد السوفيتي وعلى وجه

الخصوص منذ الحرب العالمية الثانية أديا الى العديد من التغيرات التنظيمية والارتجال والتجريب خصوصاً فى مستوى القمه من التخطيط والتنسيق والكثير من هذه المشكلات والجهود التى بذلت لحلها نجمت من البحث والتنمية (R 8 D) نتيجة لاتجاه الدولة نحو التصنيع واهتمامها بالصناعات الرئيسية كالحديد والصلب والبترول وتوليد الكهرباء من القوى المائية ٠٠ الخ من أجل ذلك وضعت سياسة الدوله العلميه على أساس تنمية قطاعات مختارة مثل صناعة بناء المكنات ، انطلاقا من شعار « بنى المكنات لنبناء المزيد من المكنات » وظهر ذلك بوضوح فى **قطاعات الأولوية للتكنولوجيا والصناعة** ٠

وفى مجالات أخرى انصرفت جهود البلاد الى الاحتفاظ برابطه البحث ـ التنميه ـ الهندسه ـ الانتاج واقتضت مشكلات التنسيق وتبادل المعلومات وقف الموارد الماليه الضئيله على الاولويات ومنع التكرار ٠ وعندما ازداد اتساع « مؤسسة البحث والتنمية » واكب ذلك فى السنوات ١٩٥٥ ـ ١٩٦٠ ازدياد عدد البحاث العلميين من بين أعضاء هيئة المعاهد البحثية الى أكثر من الضعفين (٩٧ر٠٠٠ فى سنة ١٩٥٥ الى ٢٠٠ر٠٠٠ فى نهايه سنة ١٩٦٠) كما ازداد عدد المعاهد البحثيه بنحو ٤٠٪ من (٢٧٩٧ معهدا فى أول سنة ١٩٥٦ الى ٣٨٢٨ معهدا فى أول سنة ١٩٦١)

تنظيم سنة ١٩٥٧ :

أصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى ٤ فبراير سنه ١٩٥٧ قرارا يستهدف تحسين وزيادة فعالية البحث والتنميه « من أجل ضمان التقدم الكنولوجى الدائم لتنمية الاقتصاد القومى» وجاء بهذا القرار « ان النية متجهة الى اقامة وكالة خاصه بحكومه اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية يكون عملها مراقبة اتجاه ومستوى التنمية التكنولوجية فى الداخل والخارج وان تدرس دراسه مستفيضة ومتعمقة كل ما هو جديد ومتقدم فى التكنولوجيا »

وقضت المادة « ١٩ » من القرار المشار اليه « بتشكيل لجنة علمية تكنيكية تتبع مجلس وزراء الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى يعهد اليها دراسة منجزات العلم والهندسة والممارسات المتقدمه فى الانتاج فى الداخل والخارج ، ونشر الثقافة العلمية التكنيكية والعمل على ادخال التكنولوجيا الحديثة الى الاقتصاد القومى »

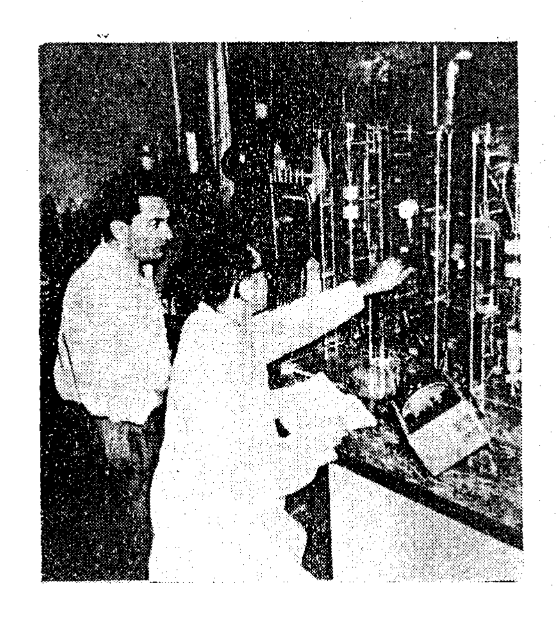
على أن أهم ما استحدثه القرار هو تكوين الجمعيات العلمية الملحقة بمجالس الوزراء فى الجمهوريات وفى بعض الأحيان على مستوى مجالس الاقتصاد القومى «Sovanarkhoz» وتختص هذه الجمعيات بالصناعه والانشاءات والمصانع وغيرها مما كانت تديره فى السابق الوزارات بما فى ذلك بعض معاهد البحث والتنمية ٠ كما نص القرار على الارتفاع بالمستوى الفنى لفروع الصناعة والانشاءات باستخدام أحدث منجزات العلم والتكنولوجيا والتحسين الشامل لتكنولوجيا الانتاج ٠

أفراد التنمية والبحث :

تدل كلمه spetsialistyالروسية على مستويين الأول ـ دون المهنىsuphrofessional والثانى ـ المهنى professional وبالتالى تشير الى الأشخاص الحاصلين على تعليم تخصصى technicum من الدرجه الثانية وكذلك الى الأشخاص الحاصلين على تعليم عال ٠ وفى سنه ١٩٥٥ بلغ عدد الاخصائيين ٩ر٢ مليونا من دون المهنيين ٢ر٢ مليونا من خريجى معاهد التعليم العالى ، وفى سنة ١٩٦٠ بلغ عددهم على التوالى ٢ر٥ مليونا ٣ر٥ مليونا ٠

المدارس المهنية وخريجوها :

يطلق على المعاهد المدنية السوفيتية للتعليم العالى اسم « vuz » ومفردها « vuzy » وتنتظم عددا من الجامعات ومدارس العلوم ، كذا المدارس المتخصصه التى يطلق عليها عادة اسم «معاهد»٠ ومن المعروف انالتعليم العالى فى الاتحاد السوفيتى هو تعليم مهنى يقضى فيه الطالب مدة تتراوح بين الأربع سنوات والخمس سنوات ونصف السنة ٠ وفى الاتحاد السوفيتى أكثر من ٥٠٪ من الطلبة يدرسون العلوم أو الهندسة ٠ وفى سنة ١٩٦٠ بلغ عدد خريجى الهندسة فى الاتحاد السوفيتى ١٢٠ر٠٠٠ أى ثلاثه أضعاف خريجى الهندسة فى الولايات المتحدة الأمريكية فى نفس السنة ٠ ويعكس التأكيد على التدريب الهندسى الفلسفة الأساسية للتخطيط السوفيتى وانعطافه الشديد نحو الصناعة ، وتوجد فى البلاد أيضا منظمات للبحث والتنمية والتصميم وهى معاهد يسميها الروس «مؤسسات البحث العلمى ومنظمات تخطيط المشروعات والتصميم» ٠



البحاث العلميون :

يقول الكسندر ج· كورول انه لا توجد فى اللغه الانجليزية كلمه واحدة تؤدى معنى الباحث العلمى فى اللغة الروسية ، فلفظة علم science ولفظه علمى scientific تشيران الى كل فروع المعرفة والاستقصاء سواء فى الفيزياء أو الادب أو الكيمياء أو الفنون أو الفلك أو الماركسية ـ اللينينية · وبديهى انه يوجد تمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية الا ان كلا النوعين يندرجان تحت اللفظة الشاملة « العلم » .

وتصف دائرة المعارف السوفيتية البحاث العلميين بانهم « الاخصائيون الذين يقومون بالبحث والعمل على حل المشكلات أو يجيبون على التساؤلات التى يطرحها فرع أو آخر من فروع العلم أو المعرفة العلمية · ويتركز نشاط البحاث العلميين فى المعاهد البحثية العلمية الخاصه ـ المعاهد والمعامل والمراصد ومحطات التجريب وما شابه ذلك ، كما ينسحب نشاطهم أيضا على معاهد التعليم العليا حيث يعملون كأساتذة ومحاضرين ومدرسين ·

ويضع ج·ى· فيدكين G.J. Fed'kin التعريف التالى للبحاث العلميين :

هم : العاملون فى الصناعة والزراعة والمشروعات والمؤسسات الأخرى الذين تتوافر فيهم المواصفات الضرورية للعمل العلمى الذى يزجونه بالأنشطة البحثية العلمية · ويبدو الاختلاف فى مواصفات الباحث العلمى من التعريف التالى للبحاث العلميين الذى وضعته فى سنة ١٩٦٢ دائرة الاحصاء المركزية : هم الاخصائيون غير الحاصلين على درجات علمية ولكنهم يشتغلون بالعمل العلمى فى المشروعات الصناعية وفى منظمات تخطيط المشروعات » ·

بيد ان الاصطلاح يستخدم ليقصد به غالبا : الاخصائيين الحاصلين على درجات علمية متقدمة والألقاب العلمية والمهنية المشتغلين بالبحث فى المعاهد البحثية وأعضاء هيئة التدريس فى الكليات التابعة لمعاهد الـ (vuz) ·

ميادين التخصص :

تضع هيئات التخطيط الرئيسيه فى البلاد قراراتها على أساس احتياجات الاقتصاد المتوقعة وهى تحدد فى كل سنة عدد الطلبة الذين يسمح لهم بالالتحاق بالمعاهد ونوع التعليم الذى يتلقونه وما اذا كانوا طلبة لكل أو لبعض الوقت ·

أكاديمية العلوم :

يرجع تاريخ أكاديمية علوم اتحاد الجمهوريات السوفيتيه الاشتراكيه الى سنه ١٧٢٥ حين انشأها بطرس الأكبر واطلق عليها اسم «أكاديميه العلوم الامبراطوريه» · ولا يمكننا أن نسرد فى هذه العجالة التاريخ الطويل للأكاديمية وما اختلف عليها من أحداث وتطورات ولذلك نكتفى هنا بتحديد أهدافها كما نص عليها قانون سنه ١٩٣٠ الذى جاء به « ان الأكاديميه تعمل فى جميع فروع العلم النظرى وتعاون بكل الطرق الممكنة فى تطوير البحث وتسهم فى اقامة منهج علمى موحد مؤسس على النظرة المادية للعالم ، وتوجه كل المعرفة العلمية نحو سد الاحتياجات التى يفرضها اعادة البناء الاجتماعى للبلاد «وقض القانون بأن تعمل الأكاديمية على اثراء العلم بالمخترعات الجديدة ومناهج البحث وان تعاون فى استخدام الموارد الطبيعية للبلاد وان تطور المناهج لتطبيق نظريات ونتائج التجريب العلمى على أعمال البناء الاشتراكى لاتحاد الجمهوريات السوفيتيه الاشتراكية» ··

وجدير بالذكر أن الأكاديمية كثيرا ما تعرضت للنقد اللاذع من اللجنة المركزية للحزب ـ وترتب على ذلك أحداث تغييرات كثيرة فى أغراضها وأهدافها وفى طريقة تعيين وانتخاب أعضائها ، كما يظهر ذلك من قرارات المؤتمر الواحد والعشرين للجنة المركزية للحزب حيث قدم

مؤتمر « بناة الشيوعية » المنبثق من هذه اللجنة تقريرا يتضح منه ان الأكاديميه تستجيب للنقد وتعمل على تلافى نواقص العمل فيها حيث جاء بالتقرير المشار اليه « ان الجمعية العامة لأكاديمية علوم اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية قد اتخذت قرارا يتضمن الاجراءات الضروريه لاعادة تنظيم عمل الأكاديميه حتى تركز على القدرات الفائقه للعلماء وعلى أفضل الكادرات العلمية لحل المشاكل التى تطرحها الخطة السبعية (١٩٥٨ ــ ١٩٦٥) ولالغاء التكرار غير المبرر فى العمل العلمى والاقتصاد فى استخدام الموارد البشرية والماديه وتقوية الروابط التى تربط العلم بالانتاج والعلم بالحياة » .

هذا ويتبع الأكاديميه العديد من الأكاديميات الفرعية المتخصصة .

السيبرناطيقا والأوتومية :

ان لفظه سيبرناطيقا cypernetics تدل على ميدان مميز للنشاط ظهر على المسرح العلمى فى نهاية الحرب العالميه الثانيه عندما نشر نوربرت فينر Viener كتابه المعروف باسم « السيبرناطيقا أو التحكم والاتصال فى الحيوان والمكنه » وقد عرف فينر الاصطلاح بانه الميدان الكامل للتحكم ونظريه الاتصال سواء فى المكنه أو الحيوان . ولم يكن فينر يعرف ان الاصطلاح كان قد استعمل منذ نحو قرن بمعنى أكثر تحديدا بمعرفة أندريه أمبير Ampere فى سنة ١٨٤٣ . ويستخدم الروس الاصطلاح ليدل على السمات المشتركة للعمليات ونظم التحكم فى الأجهزة التكنولوجية والمتعضيات الحية (الكائنات الحية) والنظم الاجتماعيه . وظهور السيبرناطيقا كعلم مهد له عدد من الانجازات التكنولوجية فى نظرية التحكم الالكترونى والالكترونات التى مكنت من صنع أجهزة الاختبار السريعة والبرامج الحاسبة المنضبطة ، ونظرية الاحتمال وبدرجه خاصة تطبيقها فى فحص مشكلات الارسال والعمليات الاعلاميه والمنطق الرياضى وفسيولوجية النشاط العصبى وثبات العلاقات أو التوازن فى العملية البدنيه homeostasis . وفى دراسة نظم التحكم تجمع السيبرناطيقا بين الطريقة الماكروسكوبية المتعلقة بالعالم المكبر) والطريقة الميكروسكوبية (المتعلقة بالعالم المصغر) والسيبرناطيقا تقدم لنا مثالا فريدا لتداخل العلوم بعضها فى بعض كما تمدنا بمادة غزيرة للبحث الفلسفى لاشكال حركة المادة وتصنيف العلوم . وقد أثار نمو السيبرناطيقا الجدل حول العديد من المشكلات المنهجيه مثل التماثل بين التفكير الانسانى والأعمال الالية السيبرناطيقيه وطبيعه الأعلام وصلته بالمفهوم الفيزيقى المادى لدرجة التعادل entropy وغير ذلك من المشكلات ، وتظهر اهميته السيبرناطيقا فى تطبيقاتها العمليه من نحو ايجادها للالات الالكترونيه التى تحل محل الانسان او فى القليل تحسن من عمله . اما الاوتوميه او الاتمته كما يجب ان يسميها البعض فهى أداء الانتاج والاداره وغيرهما من العمليات الاجتماعيه الضروريه دون اشتراك الانسان اشتراكا مباشرا فيها . والاوتوميه هى اعلى مرحله فى تطور التكنولوجيا وقد ظهر اثرها واضحا فى العشرينات فى الخطوط الاوتوميه للالات الميكانيكيه وتبع ذلك الحوانيت البشريه والمصانع الاوتومية التى استخدمت فى الخمسينات المكنات الحاسبه ومكنات التحكم الحديثه . والتوسع الهائل فى الاوتوميه أسفر عن نتائج اقتصاديه وسياسيه وثقافيه على جانب كبير من الاهميه والخطورة .

يتراءى لنا مما تقدم ان العلم والتكنولوجيا فى الاتحاد السوفيتى يتميزان بدرجة كبيره من المرونة والديناميه مما يخضعهما للتخطيط المنظم بهدف خلق أفضل الظروف لتحقيق مجتمع الوفره وتوجيه العلم والتكنولوجيا نحو خدمه المجتمع والانسانية فى وقت معا وذلك عن طريق افراغهما من كل مضمون لا يتفق مع الضمير الانسانى الذى يرفض أن يسخر العلم والتكنولوجيا للأغراض العدوانية غير الانسانية وخلق أسلحة الفناء والدمار . واذا كانت معاهدة الصداقة والتعاون بيننا وبين الاتحاد السوفيتى قد نصت فى موادها ١ ، ٥ ، ٦ على « تطوير وتوثيق علاقات الصداقة والتعاون الشامل فى المجال السياسى والاقتصادى والعلمى كذا التعاون الشامل وتبادل الخبرة فى المجالات الاقتصادية والعلمية والفنية واعداد الفنيين والمتخصصين ومواصلة تطوير هذا التعاون فى مجالات العلوم والفنون » ، فما احرانا بان نستفيد من الفرص التى اتاحتها لنا معاهدة الصداقة مع احدى القوتين اللتين تتربعان اليوم على عرش العلم والتكنولوجيا خصوصا وان الاتحاد السوفيتى الصديق كان معدودا من بين الدول المتخلفة واستطاع فى أقل من ثلاثين عاما أن يلحق بالولايات المتحدة الأمريكيه وأن يعمل « على تجاوزها » كما ستجىء الاشارة الى ذلك بعد قليل .

السياسة العلمية فى اسرائيل :

يقول البروفيســور هوارد ٠ل٠ بافيس فى مقاله « النظر الى الامام » « ان جماعة من المربين الأمريكيين زاروا مؤخرا الاتحاد السوفيتي ورأوا فى كل مكان هذا الشعار » الحق بالولايات المتحدة الأمريكية وتجاوزها « ويستطرد بافيس قائلا : انه شعار جديد ويجب أن نتبناه أيضا ٠٠ نحن أيضـا فى حاجة الى أن نلحق بالولايات المتحده الأمريكية وان نتجاوزها يجب أن نتجاوز كل جهودنا الســابقة لا لمجرد أن نبارى الجهود الروسية فحسب » ٠

انتهى كلام البروفيســور هوارد ٠ل٠ بافيس وهو ان دل على شيء فانما يدل على ضراوة المعركة العلمية والتكنولوجيــة التى تـدور رحاها بين القوتين العالميتين الكبيرتين ٠ ولكننا لم نورد هذه العبارة لهذا السبب وانما أوردناها لسبب آخر هو شعورنا بتعاظم حاجتنا الى رفع الشعار التالى فى كل مكان : **الحق باسرائيل وتجاوزها** ٠ وبديهى ان تحقيق هذا الشعار لا يكون الا بالعمل الدائب على الانتصار عليها فى معركة العلم والتكنولوجيا وبالتالى ازالة آثار العدوان واســترداد الأرض السليبة ٠

ولا خلاف فى أن نكسة ، يونيو هى التى فتحت عيوننا على ما يجرى فى الأرض الســليبة التى اغتصبهـا الصـهاينة بالمكر والخديعة ومســاندة الامبريالية الامريكية بكل ما تحتــاج اليه ابتداء من رغيف العيش الى الفــانتوم ، ولـكن هـذه المســاندة الخارجيــة لا يجب أن تصرفنــا عن الاســتبصار بالقـوى الذاتية لهـذا الشــعب والانجازات التى حققهـــا فى مجـال العـلم والتكنولوجيا نتيجة سياسته العلمية التى وضعها لتخدم المؤسسة العسكرية ، وذلك حتى لانتعرض فى المستقبل لما تنبأ به هذا الكاتب الوقح الذى قال فى احدى الندوات التى عقدتها احدى المجلات الآسيوية لمناقشة الموقف فى الشرق الأوسط بعد رحيل القائد الخالد عنا « ان مصير البلاد العربية رهن بارادة الله أولا وارادة اسرائيل الحسنة أو السيئة ثانيا » ٠

تبادل العلماء والخبراء :

لقد اســتطاعت اسرائيل التى لا يتجاوز عدد سكانها ٢ر٦ مليونا أن ترسى نشــاطها العلمى وسياستها العلمية على أساس وطيد من الروابط القوية التى تربطها بالعمل البحثى الجـارى فى الدول المتقدمـة فى أوروبـا والولايات المتحدة الأمريكيه ، هذه العروة الوثقى التى تربط العمل البحثى « فى الخارج » بالعمل البحثى « فى الداخل » هى التى مكنت دويله الصـهاينه من الحصول على نتائج البحوث بتكاليف اقتصـاديه شبه رمزيه ٠ ويرى المراقبون ان اسرائيل هى وحدهـا التى تنفرد بهـذه المكانه الممتاره بين شعوب العالم الثالث التى لم يقم احدها بايجاد مثل هـذه الفنوات التى تتدفق فيهـا العلاقات العلميه ٠ صـحيح أن العديد من الدول الناميه كالهند وباكســتان وبعض الدول العربيه فى الشرق الأوسط لديها المادة الخام البشريه التى تؤهلها لاقامه مثل هذه القنوات الا أن الافتقار الى المعاهد المتخصصة والمهارات الابداعيه والتنظيميه تقف كلهـا عقبه للاداء فى طريق توثيق صـلاتها وتعميقهـا بالمجتمع الدولى ٠ وقد اســتطاعت اسرائيل أن تقيم هذه الشبكة من العلاقات نتيجه لوعيها الذكى بالدور الهائل الذى يلعبه التعليم فى اقامة الدولة العصريــة المرتكزة على دعامتى العـلم والتكنولوجيـا لذا قدرتهـا الفائقة على التكيف مع التغيرات المستمرة الناجمة عن الطفرات العلمية والتكنولوجية التى يشهدها عصرنا والتى لم تشــهد الانســانية نظائر لهـا فى تاريخها الطويل ٠ وقد تم ذلك كله فى اسرائيل بالرغم من الظروف غير الملائمة تمـاما ٠ فاليــوم يعتبر الصهاينه العـلم هو العنصر المحورى فى التنميه الاقتصادية والتغير التكنولوجى والقوة العسكريه ٠ وفى أغلب الدول الناميه والمتخلفة لا يوضع هذا ابدا موضع التطبيق ٠

ولقد عملت الحركة الصهيونية فى فلســطين منذ البدايه على تطوير العلوم البحته والتطبيقيه بهمة لا تعــرف الكلل ، كمــا اســتوعبت الدور الرئيسى والفعال للعلم فى الحرب والســلم ، والدليل على اهتمــام الحركة الصــهيونية المبكر بالعـلم ان حجر الأســاس للجامعة العبريه فى القدس ارسى فى ٢٤ يوليو سنة ١٩١٨ فى الوقت الذى كانت فيه الحرب العالمية الأولى مشتعلة ، وعلاوة على ذلك كان حاييم وايزمان باحثا كيميائيا كما كان زعيما للحركة الصــهيونية طوال فترة الانتداب البريطانى ، كما كان أول رئيس لدولة اسرائيل وقـد نادى وايزمان بصوت جهير مطالبا بادخال العلم الى كل مستويات التعليم ٠ ومن أهم الظواهر التى تسترعى نظر المراقبين ان العلم فى اسرائيل هو اتجاه ذهنى لكل أفراد الشعب ابتداء من رئيس الدولة الى الفلاح فى الحقل والفنى فى المعمل والمعلم فى المدرســة والجنـدى فى ميدان القتال ٠ ويتعاظم شـعور الصـهاينة بأن العلم

لا ينمو ولا يزدهر الا اذا ارتبط بالحياة اليومية . ومن جهة أخرى يؤمن الاسرائيليون بحقيقة أن العلماء فى أى بلد تواجههم معايير دولية ، وهذا يعنى أن عليهم :

– ان يكونوا على دراية تامة بالبحث الذى يجرى فى الخارج .

٢ – ان يتلقوا العون الملائم لاجراءالبحث ذى الصفة الدولية المعترف بها .

وادراك القادة الصهيونيين لهذه المعايير أثمر ناتجا اقتصاديا عاليا يتمثل فى التطور السريع والمطرد لمعايير الزراعة وخلق الصناعات الأساسيه الضرورية لتصاعد الكفاءة العسكرية الصهيونية.

ان التكنولوجيا وبوجه خاص تكنولوجيا الحرب هى نتيجة العلم ، والتحسينات اليومية التى تطرأ على تكنولوجيا الحرب لا يمكن أن تتم بمعزل عن البحث العلمى وأكبر مثال على ذلك توسع المؤسسة العسكرية فى استخدام الكومبيوتر الالكترونى ويزاك Weizac فى سنة ١٩٥٤ – ١٩٥٥ الذى ظل يعمل حتى سنة ١٩٦٣ عندما استبدل به كومبيوتر كثر تقدما هو جوليم Golem (١٩٦٣) وفى نهاية سنة ١٩٦٧ كان فى اسرائيل نحو ٨١ كومبيوتر .

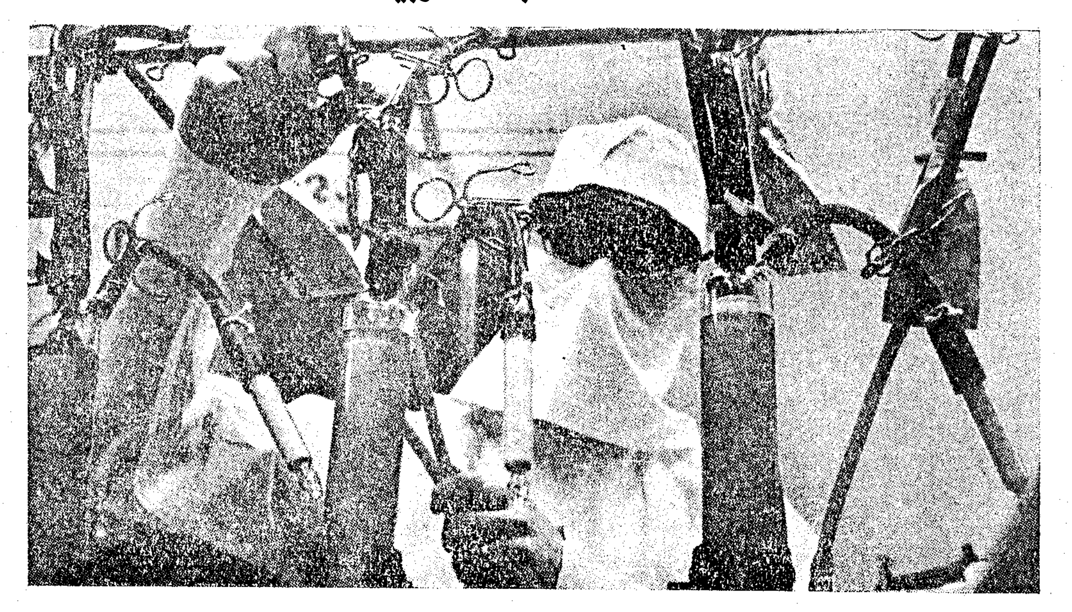
المؤتمرات :

ان مكتسبات العلم لا تعود فقط على الاستخدامات العسكرية بل لها أيضا آثارها السياسية والدعائية . وانطلاقا من هذا المفهوم انتهجت اسرائيل سياسه قوية ترمى الى اقامه المؤتمرات العالميه فى مختلف مناشط العلم ، ففى السنوات ١٩٦٦ – ١٩٦٨ اقيمت فى اسرائيل المؤتمرات التالية : ١٢ مؤتمرا فى التكنولوجيا ، ٥مؤتمرات فى العلوم الزراعية ، ١٢ مؤتمرا فى العلوم الطبية ، ٣ مؤتمرات فى العلوم الاجتماعية ، ٦ مؤتمرات فى العلوم البحتة ، هذه المؤتمرات الثمانية والثلاثون فى العلوم والتكنولوجيا ساعدت على اظهار اسرائيل فى صورة الدولة الجديرة بالاحترام بينما أسفر غياب الجهود المشابهة فى العالم العربى عن اظهار الدول العربية فى صورة الدول المتخلفة التى ترسف فى اغلال الجهالة . وفى سنة ١٩٦٠ أقام معهد وايزمان مؤتمرا عالميا « لدور العلم فى تقدم الدول الحديثة » حضره ١٢٠ مندوبا من ٤٠ دولة منها ١٤ من الدول الأفريقيه ، ٩ من الدول الآسيويه ، وكان ابا ايبان وزير التعليم والثقافة فى ذلك الوقت ورئيس معهد وايزمان المضيف الرسمى للمؤتمر . وفى سنه ١٩٦٨ اقيم مؤتمر فى نيويورك للعلم والتكنولوجيا فى اسرائيل والشرق الاوسط » أوصى بما يلى : تستطيع اسرائيل ان تلعب دورا أساسيا وفعالا فى مساعدة الشعوب النامية وتقدمها باستنباط وسائل توسيع امدادات الطعام وايجاد العمل من خلال الصناعات المرتكزة على العلم . « وفى المؤتمر الدولى السابع للكيمياء الحيوية الذى عقد فى طوكيو من ١٩ – ٢٥ أغسطس سنة ١٩٦٧ قدمت فيه البحوث التالية : ٣٧٣ مجموع البحوث المقدمة منها ٩ قدمتها اسرائيل ، ٢ من العالم العربى (واحد من الجمهورية العربية المتحدةوالاخر من الجامعةالامريكية فى بيروت) ، ٨ بحوث مشتركة أو مقدمة منالبحاث العرب المقيمين فى الولايات المتحدة الامريكية . وطبقا لقائمة الاجتماعات التى نشرتها مكتبة الكونجرس الأمريكية عقدت المؤتمرات التاليه : ١٦ مؤتمرا عالميا فى اسرائيل فى سنة ١٩٦٦ ، ٣٩ مؤتمرا فى سنة ١٩٦٧ ، ١٨ مؤتمرا فى سنة ١٩٦٨ .

المعاهد :

انشئت المعاهد فى فلسطين منذ وقت مبكر من تاريخ الحركه الصهيونية فحتى سنة ١٩٣١ كان العدد الاجمالى للصهاينه فى فلسطين لا يزيد على ٢٠٠ر٠٠٠ نسمة ولكن هذا العدد القليل استطاع أن ينشىء معهدين فى الوقت الذى كان يخطط فيه لانشاء معهد وايزمان .

والمعاهد الاسرائيليه منتشرة فى طول البلاد وعرضها بهدف أن يكون التعليم العالى متاحا فى كل مكان على النحو التالى : الجامعة العبرية فى القدس . معهد اسرائيل للتكنولوجيا فى حيفا . معهد وايزمان فى ريخوفوت . جامعة تل أبيب . ديار – ايلان ، ومعدل الالتحاق بهذه المعاهد بتضاعف كل خمس سنوات ، وتطرد البحوث بنفس المعدل ، والظاهرة اللافتة للنظر ان عدد الطلاب الأسرائيليين الذين يحضرون لدرجة الدكتوراه فى الانسانيات والقانون والعلوم الاجتماعية لا يزيد عن ١٥٪ ، وهذا التحيز للعلوم ليس تعبيرا عن اهتمام الطالب ورغبته بل هو انبثاق من سياسة الدولة الرامية الى التوسع والعدوان ، كما ان التأكيد على العلوم الطبيعية والتطبيقية هو محصلة سياسة اسرائيل العسكرية .



المعاهد غير الأكاديميه :

يضع دليل الاتحاد العلمي والتكنيكي والمعاهد في اسرائيل تحت لفظة معـاهد : ـ المحطات ومعامل البحوث ووضـع تحت عنوان العلوم الطبيعية والتكنولوجيا ٦٨ مركزا كما وضع ٢٠ مركزا آخر تحت عنوان معامل البحث والتنمية الصناعية ومن هذه المعاهد الـ ٥٢ سبع صناعات هي جزء لا يتجزأ من المؤسسة العسكريه ٠

الجامعات :

ان الصفة الأولى للجامعة هي نشاطها البحثي ٠ ذلك أن الجامعة ـ اية جامعة ـ اذا لم تشـتغل بالبـحث فانهـا لا تسـتطيع مواكبة التطورات المستمرة في ميادين المعرفة ، ولقد تقررت طبيعة الجامعات الصهيونية قبل الحرب العالمية الأولى حيث صيغت على مثـال الجامعات الألمانية ٠ وقد كان غرض ووظيفة الجـامعة مدار نقاش لوقت طويل بين وايزمان وجابوتينسـكى وكان الأول واقعا تحت تأثير الجامعات الألمانية لذلك دافع عن فكرة اقامة معاهد البـحوث المتقدمه ضـمن اطار مدرسة الخريجين ٠

أما الثاني فكان يرغب في أن يـرى جامعـة « تعليمية » أكثر منهـا « بحثية » ويتضح من التاريخ المبكر للجامعة اليهودية ان الأولويات لم تكن مؤسسه على ما يسمى اليوم « بالسـياسة العلمية » بل على فهم عميق للدولة العصريـة ٠ وعموما فالسياسـة العلمية للحركة الصـهيونية تستهدف خلق وتطوير الجامعات ومعاهد البحوث كأولويات تحتل مكان القمة ٠

وفي الحوار الذي دار بين وايزمان وجابوتينسكى فيما يختص بنمط المعاهد التي يجب أن تنشأ في فلسطين ، احرز وايزمان نصرا مبينا وتبنت الدولة آراءه ٠ وهذا يعنى أن الجامعة يجب أن تبدأ من القمة ، ولكى تبنى الجامعـة من القمة فان ذلك يستلزم حشد التسهيلات المناسبة والاسـاتذه الضرورين ، وما لم تبدأ الجامعة من القمة فانهـا لا تستطيع أن تحقق أهدافها وفي الطرف الآخر توجد الجامعة التي تبدأ من القاع فتبدأ بالطلبة وتعمل ما في طاقتها في ظل الموارد المحدودة ٠ والبدء من القاع سريعا (خلال سنوات قلائل) يؤدى الى « معهدة » عقليـة وسياسـة جامعية تحتاج الى قرون لتبطل نواقصهـا ٠ والغـالبية العظمى للجامعات في العـالم الثالث بدأت من القـاع وتعتبر البحث يقع خارج نطـاق العمـل الجامعي ٠

الخلاصة :

ان البحث العلمي للعدو الاسرائيلي يتسـم باعطـاء المزيـد من الاهتمـام للعـلوم البحتة والتطبيقية كما يخضع البحث الأكاديمي لمتطلبات المؤسسة العسـكرية وأوضح مظهر لهذه العلاقة هو التأكيد على الطبيعة النوويه في كل المعـاهد الاسرائيلية وفي اسرائيل نحو ٣٥٠٠ عالما يدور انتاجهم العلمي حول نفس الموضـوع ٠ ويمتاز

العلم الاسرائيلى كما قدمنا بالصلة الوثيقة التى تربطه بالمجتمع العلمى والبحثى الدوليين ويتمثل ذلك فى المؤتمرات القوميه والدولية التى تعقد فى اسرائيل و فى خارجها • وفى سنة ١٩٦٨ عدت اسرائيل طبقا لدراسه قام بها معهد الاعلام العلمى بفيلادلفيا الدولة السادسة عشرة فى العالم فى اسهامها فى التأليف العلمى (العلم البحث والتطبيقى فى وقت مما) وتشير كل الدلائل الى أن جهودا جبارة تبذل لتحسين هذا المركز فى السنوات القادمة •

خاتمة

بعد هذا العرض الموضوعى السريع لدور العلم والتكنولوجيا فى الدول النامية وفى بلد صديق هو الاتحاد السوفيتى وعند العدو الاسرائيلى نستطيع تأسيسا على ذلك أن نضع أيدينا على المشكلات التى تعترض تقدم العلم والتكنولوجيا عندنا والتى تتركز فى النقاط التالية :

١ – الافتقار الى النظرة الشاملة التى تربط العلم والتكنولوجيا بالتعليم ابتداء من مراحله الأولى باعتبار أن العلم والتعليم هما وجهان لعملة واحدة •

٢ – الافتقار الى السياسة العلمية المنبثقة من الأحوال والمشاكل القائمة فعلا فى المجتمع والتى تستهدف أغراضه القريبة والبعيدة •

٣ – الافتقار الى خطة للبحث والتنمية •

٤ – الافتقار الى اعداد الأفراد العلميين والبحاث المدربين (لانزال حتى اليوم نبحث عن توصيف دقيق للفرد العلمى والباحث العلمى)

٥ – النقص الكبير فى المعاهد البحثية المنبثقة من الاحتياجات الفعلية للبلاد (تتبع وزارة البحث العلمى ستة معاهد فقط • قارن هذا العدد بالعدد الهائل من المعاهد فى اسرائيل)

٦ – ارتباط البحث العلمى بالتكنولوجيا يستدعى وجود وزارة للعلم والتكنولوجيا وبالتالى يجب ان يستبدل اسم وزارة العلم والتكنولوجيا باسم وزارة البحث العلمى •

٧ – الافتقار الى المجالس القومية والمجالس المتخصصة وجدير بالذكر ان بيان ٣٠ مارس نص فى أكثر من موضع على انشاء هذه المجالس ولكن ذلك لم يخرج ابدا الى حيز التنفيذ وقد جاء برنامج القومية المتخصصة كهيئات استشارية وبحيث العمل الوطنى فأكد على ضرورة تكوين المجالس ترتبط بمراكز البحث العلمى ومعاهده •

٨ – ضرورة تشجيع حركة تبادل العلماء والخبراء بيننا وبين الدول المتقدمه من جهة وبيننا وبين الدول النامية من جهة أخرى •

٩ – ايجاد القنوات التى تحمل الينا انجازات العلم والتكنولوجيا من البلاد المتقدمة ويتخذ ذلك شكل مراكز للاعلام والتوثيق •

١٠ – اقامة المؤتمرات على المستويين المحلى والدولى والاشتراك فيما يعقد منها خارج البلاد •

١١ – انشاء أكاديمية للعلوم ومحطات التجريب •• الخ

١٢ – تطبيق انجازات السيبرناطيقا والأوتومية •

١٣ – بذل المزيد من العناية فى استيراد الأجهزة العلميه بهدف خدمة البحاث فى مراكز البحوث •

١٤ – عدم فصل الانسانيات والعلوم الاجتماعية عن البحث العلمى والخروج على هذا الفصل الذى نتفرد به وحدنا •

وبعد ،

فأننا لا نجد خيرا من اشارة الرئيس أنور السادات التى وردت فى بيانه الذى القاه على الأمة فى ١٠ يونيو الماضى نختتم بها مقالنا :

« لن يكتب للمنطقة السلام الا اذا استطعنا أن نبنى دولة عصرية تتسلح مدنيا وعسكريا بأحدث أسس العلم والتكنولوجيا • ان قيام دولة عصرية فى بلادنا تعتمد على العلم والايمان ليشكل ضرورة بقاء وضرورة حياة » •

---

* والمجلة ماثلة للطبع صدر القرار الجمهورى بانشاء اكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا وتعيين الدكتور مصطفى كمال طلبة وزير الشباب السابق وأحد رواد البحث العلمى فى جمهورية مصر العربية رئيسا لها بدرجة وزير •

1. Report of the Advisory Committee on the application of Science and Technology to Development, U.N.
2. Soviet Research and Development Alexander G. Karol.
3. Science and Higher Education in Israël, Antoine Zahlan.
4. The Scientific Revolution: Challenge and Promise. Edited by Gerarld W. Ebbers and Paul Duncan.
5. Industrial Research and Development. Jacob Schmooker (International Encyclopaedia of the Social Sciences.



فى كل ما قرأت عن التعليم العصرى فى الأشهر الأخيرة ـ ولقد قرأت ما وسعنى ـ لم أجد اشارة الى المكتبة المدرسية ، وكأنها ليست عاملا مهما من عوامل تكوين المواطن المثقف الذى نهدف الى تكوينه من انفاق هذه الملايين الكثيرة من الجنيهات كل عام ٠

وانى اذ أكتب مقالى هذا ، انما اكتبه لأذكر ناسيا أو أبصر غافلا ٠ فما المكتبة بالشىء الهين فى التعليم ، بل لعل أكثر امراضنا الاجتماعية والثقافية راجع الى استهانتنا بالمكتبة فى مدرسة الصغار ٠ فمن الامراض التى ترجع الى هذه الاستهانة انتشار المقاهى المصرية ، والاقبال الشديد عليها من المثقفين ، مع علمنا برسالة متهانا التافهة التى تقتصر على الأكل والشرب ، واللعب الذى لا جدوى منه ، ومسح الاحذية وبيع ورق اليانصيب كل هذا مع الأعراض عن البيوت وتربية والأبناء وملء فراغ النفس والعقل والوجدان فى نفس المثقف وفى نفس زوجه وأبنائه اعراضا يؤدى الى ما نعلم من سيئات اجتماعية يضيق الصدر بها ولايستطيعان ينطلق بها اللسان ٠

ومن هذه الأمراض أيضا ازدياد النسل فى نسبته ، وليس فى عدده وحسب ٠

مع أن القاعدة العامة لتزايد السكان الطبيعى ، أى الزيادة التى ترجع انفرق بين المواليد والوفيات تقرر أن نسبة التزايد تنخفض كلما ارتفعت المستويات الحضارية للمجتمع ، وهى مستويات التعليم والدخل الاقتصادى والحرية السياسية٠ والقاعدة صحيحة ولاشك ، وقد قام عليها الف دليل ، من أدله احصائيه الى ادلة نظريه ، ولكنها تشذ فى بيت المثقف المصرى وحده ، كأنما لكى يثبت للناس أنه ما يزال وريث جيل هيرودوت وأنه ما يزال قادرا على ارتكاب أعجب المفارقات ٠

واتهامنا المكتبة المدرسية والاستهانة بها فى هذه التهمة ليس معناه انها السبب الوحيد ، ولكن معناه أنها السبب الكبير ، فالسبب الحقيقى هو أن مثقفنا حينما يتخرج من الجامعة ، ويستقر فى بيت الزوجية الدافىء ، يعود الى ما كان عليه قبل دخول المدرسة ، أو يعود الى مثل حالة من استقر فى حياته على وضع أخير دون أن يتعلم أو يتثقف من البدايه ويعد من الأميين ٠ فهو فى الحقيقة مثقف ما دام فى مرحله الدراسة ، أما بعد الانتهاء منها فبينه وبين الثقافة ما بين الانسان والسلم من علاقة ، ولن تجد انسانا يرضى أن يعيش عمره على السلم ، وحسبه أن يصل الى أعلا ثم يترك السلم بعد الوصول ٠

وهذا هو ذنب المكتبة المدرسية بغير مراء ، أو قل هو ذنب الاستهانة بها فى عملية التعليم والتثقيف ٠

ومن الأمراض التى تتهم المكتبة بها أننا لا نجد من رجالاتنا وأعلامنا الى يومنا هذا من كتب مذكراته ، الا ما كان فى النادر القليل ، وجدير بالذكر ان هذا النادر القليل لم يكتب ما كتب عن حياته لأنه سياسى أو اقتصادى أو عسكرى

ذو مكانة ومجد وتاريخ ، بل كتب ما كتب لأنه أديب اشتغل بالسياسة أو الحرب أو الاقتصاد ، كالرافعي وهيكل على وجه التمثيل ...هذا بينما تطالعنا المكتبات الغربية بمذكرات رجال لم يبلغوا من الشهرة والمكانة درجة تذكر ، وقصاراهم أنهم كانوا مكلفين بعمل ذى بال ، كسكرتيرة المستر تشرشل ، أو كطبيب البعثة التبشيرية فى كامبوديا فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، أو كحلاق هتلر ، أو عشيقة موسيلينى الى آخر ما هناك .

ومن هذه الامراض كذلك ، ما تعانيه المكتبة العربية نفسها من فقر مدقع مذل مهين .

ان الأحصاء يقول لنا أن الذين يعرفون القراءة والكتابة فى بلادنا يبلغون أكثر من اثنى عشر مليونا من الرجال والنساء . ومع هذا فان

ان الأحصاء يقول لنا ان الذين يعرفون القراءة والكتابة فى بلادنا يبلغون أكثر من اثنى عشر مليونا من الرجال والنساء . ومع هذا فان الكتاب الذى تباع منه ألف نسخة فى العام يعد من السعداء . بل ان الصحيفة اليومية ، على تعدد أنواع الاهتمام بها ، لم تبلغ بعد مرتبة ربع المليون .... فاذا استثنينا من هذا المقدار ما يوزع فى البلاد الخارجية - عربية وغير عربية - طالعتنا الحقيقة المرة وهى أن رجلا واحدا من بين كل خمسة وعشرين رجلا متعلما هو الذى يشترى الصحيفة اليومية ، وهذا معناه أن رجلا واحدا من كل خمسة وسبعين مواطنا هو الذى يهتم بقراءة الصحف .... والصحف فى توزيعها محسودة عند أصحاب الكتب والمجلات . وكم على اهمال المكتبة من أوزار .

هذا قليل من كثير .

ولا اظننى بحاجة الى مزيد من التحليل والتعليل لأبين ذنب المكتبة المدرسية وذنب الاستهانة بها فى احداث هذه الادواء والامراض الاجتماعية والثقافية ، فهو أوضح من أن يحتاج الى بيان . ولهذا فانى اتركه لآخذ فيما أنا بسبيله ، وهو بيان هذه الاستهانة وهذا الاهمال لمرفق من أهم مرافق المدرسة فيما ينبغى أن يكون .

المكتبة مكان وزمان وكتاب ونظام .

فأما عن المكان ، فليست حجرة المكتبة مطلوبة لمجرد الزينة والتباهى والفخفخة الكاذبة ، ولا هى مطلوبة لحفظ العهدة واطمئنان السيد أمين المكتبة على عهدته وتعذر تبديدها ... كلا ، ولا هى حتى للقراءة ، فالقراءة ممكنة على مقاعد التلاميذ فى الفصول ، والقراءة ممكنة على مقاعد الفناء والحديقة والقراءة ممكنة فى المنازل ، والقراءة ممكنة فى الردهات والطرقات وفى كل مكان .

انما المطلوب من حجرة المكتبة أن تكون عادة .. والعادة لا تتكون فى شتيت من الامكنة .

وانما المطلوب أن تبذر فى نفس الطفل وأن تنمى فيها غراس حب الكتاب واحترام الكتاب والحب والاحترام اذا لم يتكونا فى هذه السن فلن يتكونا بعده ...والحب والاحترام لا يتكونان لمنثور من الكتب والاوراق فى كل مكان وفى أى مكان .

لقد رأينا الفلاح الأمى الذى يتصرف على فطرته الدينية يتهيب الدخول على حرم الكتب الا متوضئا وبعد أن يخلع نعليه ، علامة التقديس والهيبة والمحبة والاجلال ، ولكن هذا الفلاح نفسه لا يفعل مثل هذا كلما رأى كتابا أو رف كتب هنا وهناك انما هو حرم العلم .. حرم المكتبة .. وسادتها الراهب القائم فيها بكل جلال القداسة والتبجيل

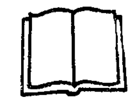
هذا هو معنى المكان ... تكوين عادة وعاطفة وأذهان ... وليس مسألة نفعية ، لحفظ الكتب ، أو لأداء أعمال الاعارة والاستعادة ، أو كائنة النفعية ما تكون .

وهذا هو الدليل الكبير على تهاوننا بالمكتبة المدرسية . فالمكتبة عندنا هى آخر مرفق يخصص له مكان ، وهى أول مرفق يطرد من مكانه اذا تنازعت المرافق الأخرى على المكان .

وقد أخذت وزارة التربية والتعليم فى الزمن الأخير بالاعتناء بالمكتبة فى رسوم مدارسها الجديدة ، فلم تعد تبنى دارا للدراسة الا وفيها حجرة للمكتبة ، وهذا اتجاه محمود ومستزاد . ولعله فى المستقبل أن يزيد .

الا أن المكتبة ما زالت تتبوأ المكان الاخير ، فحجراتها فى الرسوم أبعد الحجرات تطرفا ، لا أوسطها وأقربها الى جميع الطلاب ، وما زالت هى الضحية الأولى كلما ضاقت المدرسة واحتاجت الى مكان .

والمكتبة زمان ... فلا عادة بغير ترداد وتكرار فى زمن واحد وعلى وتيرة واحدة ، ولن تنشأ العاطفة المنظمة ، التى تختلف بنظامها واتساقها



عن الانفعال الجياش المضطرب ، الا فى اطار من النظام والاتساق فى الزمان كما فى المكان .

ولقد سمعنا وقرأنا ورأينا ونفذنا من الآراء والفلسفات فى التربية والتعليم أشكالا وألوانا ومن مختلف الشسيات والجهات ... حصص للهواية ... وحصص للعب ... وحصص للفن والموسيقى ... وحصص وحصص ، ولا آخر لما يتحمله جدول الدراسة على مدى الأسبوع .... كل هذا ، ولا حصة واحدة للمكتبة.... وكل ما يخصص لها أن الطالب الذى يأتى من بيته مقتنعا بالمكتبة وفائدتها ،عميق الحب والايمان بها ، يوضع أمام امتحان عسير فى الفسحة : اما أن يلعب ويترك الكتاب ، واما أن يؤثر الكتاب على نشاط الألعاب .... شىء قد لا يبدو لأول وهلة ، ولكنه اذا بدا ... بدا فى ثوب الخصومة للمكتبة وللكتاب .

***

والمكتبة كتاب ... والكتاب شكل ومضمون، وأسعار . فأما كتب مكتباتنا فهى العجب العجاب، ما دخلت المكتبة فى مدرسة عملت بها ، على امتدادها طولا بين الخرطوم وبورسعيد ، وعرضا بين مدارس البنين ومدارس البنات والمدارس المشتركة بين الجنسين ، وارتفاعا بين المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية والعالية ، الا وأصابنى واحد من اثنين ، اما العطش واما الغثيان .

قد لا تكون المكتبة هى المذنب الأكبر فى هذا الذنب ، وكل ذنبها انها مضطرة للمحافظة على الكتب المقطعة وغير ذات الغلاف أو العنوان أو ذات الغلاف الكابى القاتم المنفر لكل القراء ،ووجه الاضطرار انها لا تستهلك الا حسب قواعد ولوائح ومقتضيات القانون المالى ،عمدة الروتين المشهور.

ولربما خفف من وطأة هذا الذنب أن من الكتب ما هو قيم ، وأن من حقه أن يحب ويحترم على قدمه، بل من حقه أن يحب ويحترم لقدمه ونفاسته ... ولكن أى معنى للمحافظة على قصة من آلاف قصص الأطفال التى لا يزيد ثمن النسخة منها على قرشين بعد أن تهتكت وصارت وريقات هنا وهناك ؟!! ولكن القانون المالى قال ، وقوله الحق لا قانون الا هو ، له الحكم واليه يرجعون .

الا أن هذه المشكلة على تنفيرها بسيطة والتغلب عليها يسير . أما المشكلة الحقيقية فى هذا الصدد فهى جمال العرض وجاذبيته .

ان الطعام غريزة من أهم غرائز المحافظة على الذات وأقواها ، ومع ذلك اذا لم يكن الطعام جميلا منظره ، شهيا طعمه ، زكية رائحته ، لم يجذب اليه الطاعم ولو كان جوعان . فكيف بالكتاب وهو عادة لا غريزة ، وعادة كمالية لا تتوقف عليها الحياة وان كانت تكتمل بها الحياة وزينتها وكرامتها .... أولى لهذا الكتاب أن يكون الجميل المنظر ، الشهى الطعم ، الزكى الرائحة ، فلئن كانت الغريزة تدفع الجائع الى الطعام ، فما يدفعه الى القراءة دافع قط ، واذا لم يجذبه من الكتاب جاذب فلا قراءة ولا قراء .

وجمال العرض فى المكتبة يقوم على اثنين ،على الناشر وعلى أمين المكتبة ، فاذا لم يكن الناشر معنيا بمظهر الكتاب فلا حيلة لأمين المكتبة فيه .

والواقع أن عناية ناشرينا بمظهر الكتاب دون المستوى الواجب بكثير ، وحسبك أن تقارن بينهم وبين ناسجى «الفوط والبشاكير» . نظرة واحدة الى رف الفوط والبشاكير عند أى بائع لها تطلعك على منظر يحبب اليك الشراء منها ... ولكن كم نظرة يا ترى الى أرفف المكتبات تغريك بمحاولة معرفة أسماء هذه الكتب والمطبوعات ؟!! دع عنك أمر الشراء والاقتناء !

على كل حال، ليس موضوعنا اليوم عن الناشرين فلنعد الى أمناء المكتبات فى مدارسهم وبين كتبهم، فنرى أن الكتاب قلما يكون حديثا أو مفيدا الا أن يكون مرجعا من المراجع الخالدة كالمعاجم والأطالس أو أن يكون قصة أو مسلاة لا يهم فيها الحداثة أو تقادم الزمان ، أما كتب العلوم والفنون والآداب ، مما تهم فيه الحداثة والتجديد ، فالأمر فيها صعب ويوشك أن يستحيل والسبب دائما هو القانون المالى ، عمدة الروتين ، الذى نحافظ عليه محافظة تفوق محافظتنا على أعراضنا وأولادنا وتراثنا ومستقبلنا مجتمعين .. ووالله ما أدرى ما السحر والجاذبية فى هذا القانون العتيق العقيم ؟ !

كان الأمر فى الماضى يجرى على النحو التالى:

تشترى الوازرة فى القاهرة ما يعن لها من الكتب للمكتبات كل عام فكان العرف السائد ، والنتيجة الدائمة أن تأتى الكتب كلها مصبوغة

بصبغة السيد المدير العام لشئون المكتبات فى هذا العام ،فان كان منخريجى اكستر بانجلترا، فالكتب كلها انجليزية أدبية ، وان كان من كبار رجال الجغرافيا والتاريخ ، فلا نهاية للأطالس وكتب الرحلات ، وان كان من ابناء دار العلوم، فالكتب كلها نحو وبيان وبديع ٠٠٠٠ وقسعلى ذلك سائر التخصصات ٠

ولما كان المدير العام لا يبقى فى مكانه أكثر من سنتين أو ثلاث ،لأن مرتبةالمدير العام لايمكن أن يصل اليها موظف التربية والتعليم دون السادسة والخمسين من العمر ، وهو ما لايترك له فرصة كبيرة قبل التقاعد ، كان فى هذا رحمة بالمكتبات ، الا أنها رحمة الصدفة ، فلو تصادف أن تتابع أربعة مديرين من مشرب واحد فهناك خمسة عشر عاما من نوع واحد من الكتب ٠٠٠ وخمسة عشر عاما كافية لأن يدخل تلميذ فىأول مرحلة الدراسة وان يتخرج منهامن آخر مراحلها ٠٠ فهى جيل تعليمى كامل لا مجرد حقبة تزول ٠٠

ولا ننسى ـ ونحن بشر ـ ما كان يحدث فى ذلك الزمان ، حينما ينشر ناشر ما كتب السيد الاستاذ المدير العام أو الوكيل العام ، وفى الغالب ما تكون كتباسخيفة لا قيمة لها ، فلا يجد السيد المدير العام ما يكافىء به مجاملة الناشر أحسن من أن ينقل مخازنه الى مخازن التربية والتعليم ، وينقل خزانة التربية والتعليم الى خزانته ٠٠ وعبيد الله اخوان على كل حال ٠ الا أن محتويات مخازن الناشرين ليست هى أحسن الكتب المتيسرة فى الأسواق ٠

فاذا ماجئنا الى توزيع هذه الكتب ، فهناك المفارقات المصرية الصميمة التى تبز أى فكاهة مسرحية عرضت على الخشبة أو على الشاشة أو فى أى مكان ٠٠٠ كتاب فى هندسة التليفزيون مقيد فى مكتبة مدرسة نجع أولاد حسنين الابتدائية للبنين ومجلة الفن البيزنطى فى العمارة « باللغة الايطالية » فى مدرسة ثانوية عامة ، وبحث فى فنون الانحلال فى الدولة الرومانية فى العصر الوسيط فى مكتبة مدرسة اعدادية للبنات ٠٠٠ والاهرام ، موسومة بخاتم «اشتراك» ، ترد للمدرسة بعد ثلاثة أشهر من التاريخ المسجل على صفحتها الأولى ٠٠ الى آخر هذه المضحكات المبكيات ٠٠ ويرحم الله ابا الطيب المتنبى ٠

لم تكن هذه الحالة بالتى يمكن السكوت عليها فتغير الحال منذ سنوات وأصبحت الوزارة ترسل الى كل مديرية نصيبها من ميزانية المكتبات نقودا ، فتقدم المديريات بدورهابتوزيع هذه النقود أو الاعتمادات على الاصح ـ على مدارسها ، لتقوم كل مدرسة بشراء الكتب كما تهوى ٠

والطريقة ولاشك جميلة ومفيدة ، ٠٠ لولا الملعونة فى رقبتها ٠ والملعونة فى رقبتها فى هذه المرة ملعونتان لا واحدة ٠

أما الأولى فهى أن الميزانيات لاتصل الىالمدارس الا بعد شهور وشهور من بدء السنة المالية ، وقد لاتصل الاعتمادات قبل شهر يناير أو فبراير أو ربما مارس فى بعض الاحيان ٠ واللوائح تمنع الشراء والتعاقد وما اليهما من الاجراءات المالية منذ بداية مايو من كل عام ٠ واذن فعلى المكتبات أن تشترى ما يلزمها من الكتب فى خلال شهرى مارس وابريل فقط ٠٠ وهذا شيء ممكن ومعقول فى القاهرة والاسكندرية وربما فى بعض العواصم الكبرى القريبة من القاهرة ، ولكن ما الذى يمكن أن يفعله ناظر مدرسة نجع أولاد حسنين الابتدائيه للبنين ، القابع مع مدرسته فى سفح جبل ما من جبال الصعيد ؟ ! شيء واحد ، هو اعادة الاعتماد الى مصدره دون مساس به بعد انقضاء المدة لتعذر الشراء ، وأراح الله من أراح السيد الناظر من الفواتير واذون الاضافة وكشوف الاستعاضة وعشرات الأوراق التى يسجل فيها هذه الملاليم خوفا على أموال الدولة من الاختلاس ٠

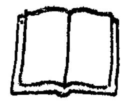
والملعونة الثانية هى أن الاعتماد الكلىللمكتبات لا يزيد على ما تنفقه الوزارة على مدرسة ثانوية واحدة فى العام ولو كانت من أصغر مدارسها ٠ والنتيجة لهذا أن توزع الاعتمادات على المديريات حسب وزنها ، ثم على المدارس حسب أهميتها وكبر حجمها لاحسب حاجتها ، فتكون المبالغ المخصصة لمدرسة فيها أكثر من ألف تلميذ هى عشرة جنيهات فى العام ٠٠٠ نعم فى العام ٠٠ أى ٠٠ عشرة جنيهات فقط ٠٠ لماذا لاتصدق ؟! نعم عشرة جنيهات لشراء كتب لألف تلميذ فى العام ، بواقع قرش صاغ أميرى واحد كامل فى السنة ٠

***

والمكتبة أخيرا نظام ٠

فهارس موضوعات ، وفهارس مؤلفين ، وفهارس كتب ٠

مكتبتنا العربية



ومراجع فى متناول الأيدى ، ودوريات سريعة التناول ، فوائد ثقافية تتحقق ، اجراءات مخزنية تستوفى لتضيف الى هضبة الأوراق التافهة والاضابير التى لايمكن الرجوع اليها حتى لمن اراد ان يرجع اليها مزيدا من الاوراق والاضابير .

وأرفف كتب ، ووسائل لترتيب الكتب وحفظها ، ولتعليم الطالب كيف يتناول الكتاب وكيف يستفيد منه وكيف يحافظ عليه وكيف يعيده الى مكانه وكيف يتعاون مع زملائه على الاستفادة من الكتاب .

ومقاعد ومناضد ، وحوامل للكتب الكبيرة ، وارشاد للطالب كيف يحافظ على صحة رئتيه وأمعائه وعينيه فى أثناء القراءة ، حتى لا نضيف الى مصائبنا الصحية أمراض القولنج وأمراض الصدر وأمراض العيون ، لمجرد اننا نترك التلميذ فى بداية حياته دون ن نعوده القراءة السليمة فى وضع جسمى سليم .

وانارة وتهوية ، وانغام هادئة تشحذ الذهن وتريح الأعصاب وتؤتى حسن الثمار من الوقت المستفاد .

وغير هذا وهذا كثير .

وكل هذا يتلخص فى تعيين أمين للمكتبة ، يمكنه أن يقوم بهذه الرسالة الهائلة ، وان يتحمل هذا العبء الثقيل .

أما أمين مكتبتنا اليوم ، مدرس الجغرافيا أو اللغة الانجليزية الذى يعهد اليه بالمكتبة فى مقابل تخفيض نصابه ثلاث حصص من كل أسبوع أو مدرس اللغة الفرنسية الذى استغنينا عنه بعد الغاء مادته فى المدارس فحولناه الى أمين مكتبة ، أو من كان على مثل هذا النحو أو ذاك فلا فائدة منه ، بل لعله أشد ضررا وأنكى .. ذلك مدرس بدون عمل ، فهو اما صديق للناظر يعينه فى عمله الادارى ، أو عدو له يسبب له المشكلات من جراء فراغه الطويل .

لقد أطلت فى التحليل والوصف ، وعلى عمد ما أطلت ، لكى يبدو الحل من خلال التحليل .

والحل مزيد من المال ..

ومزيد من الامناء الاكفاء ...

ومزيد من الامكان فى الكتب والادوات ..

ومزيد من التحرر من اللوائح الجامدة التى وضعت فى أيام اسماعيل ..

ومزيد من الوقت المخصص للمكتبات .

وأهم من هذا مزيد من العناية بالمدرسة الابتدائية ومكتبتها وحديقتها ، فهناك يتربى الذوق والخلق والعلم المفيد . لست أرى معنى لان أعين خبراء المكتبات فى الجامعات بعد أن تعود الطالب ماتعود وتحجر على عاداته أو كاد ، ولا أعين أحدا منهم فى المدرسة الابتدائية التى تغرس فيها العادات وتنمى من الأساس . كما لا أرى معنى لان تكون حصة التعبير حصة فى الفصل ، يعطى التلميذ فيها موضوعا معينا له عناصر يحددها له الأستاذ ليكتب فيها ، ولاتكون حصة حرة فى المكتبة تحت اشراف بعيد من الاستاذ ، حتى اذا ما وصل التلميذ الى شىء عبر عنه وكتبه وعرضه عليه ، فيقوم الاستاذ ما اعوج من تعبيره هناك .

ومثل هذا يقال فى حصة الرسم والفنون .. ومثله يقال فى حصة التاريخ وبعض حصص الجغرافيا والعلوم .. المهم ان لاتكون المكتبة مكانا منزويا ، قاتما ، لايخصص لها الا المدرس الذى فشل وأعجز رؤساءه أن يصلحوه ، بل أن تكون كما ينبغى لها أن تكون .

وليس معنى هذا أن أمناء المكتبات اليوم — لاكلهم ولا جلهم — مدرسون فاشلون .. كلا ما الى هذا قصدت ولا بمثل هذا الرأى الفج آمنت ولكنى انما أصف حالة سائدة فى وزارتنا تجعلها تنظر الى المكتبة نظرتها الى كائن طفيلى غريب ، هو آخر من يعتنى به ، وأول من تزوى العيون عنه ، وما ذلك هو الذى ينبغى أن يكون . فهل يجب أن نعود الى شرح ما ينبغى أن يكون ؟!



بقلم: ميروزلاف زولافسكى
ترجمة: أحمد محمود سليمان

لامراء أن الظاهرة المعروفة اليوم باسم التبادل الثقافى ترجع نشأتها الى تلك الايام البعيدة التى كانت فيها الجماعات البشرية فى مرحلة التكوين . ان الانسان ليتصور القبائل البدائية التى لم تكن قد تعرفت على بعضها البعض بعد ، تهرع الى الشاطىء بحثا عن الملح ، وهى اذ تفعل ذلك لم تكن تتبادل المواد الخام والمنتجات الانسانية فحسب ، بل كانت تتبادل كذلك عرضا ودون قصد الاغانى والرقصات والطقوس والتقاليد والعقائد ، بعبارة أخرى كل ما يدور بخلدها من تأملات وأفكار . ويحفل تاريخ المدنية الانسانية برمته ، وتاريخ الثقافة والفن والفكر الانسانى بشواهد وآثار عديد تدل على هذا الامتزاج المتبادل . ولقد اتضح لنا بالفعل من هذا الكثير ، ولكن ما زال أمامنا قدر أكبر نسعى الى استجلائه . فمثلا نعرف الكثير عن التفاعل بين الشرق والغرب : فنحن على المام تام بدور الاغريق فى نشر الحضارة الهيلينية فى جميع أرجاء الامبراطورية الرومانية بعد زوال الامبراطورية الاغريقيــة كما اننــا نذكر تلك السياسة الثقافية الواعية ، ولو أنهــا كانت سابقة لأوانها ، للويس الرابع عشر الذى أرسل مدرسين للغة الفرنسية لعديد من الممالك على نفقته الخاصة . وعلى ذلك فان ما ندعوه الآن بالتبادل الثقافى قد وجد ، وتطور ، وكان له أثر بعيد المدى قبل أن تبرز الى حيز الوجــود بوقت طويل أية هيئات قومية أو دولية تعمل على تنظيم هذا المجال القديم من النشاط البشرى والنهوض به .

فى ضوء هذا التراث القديم قد يبدو غريبا أن نقول ان التبادل الثقافى يحتوى على عناصر

جديدة مازالت حتى الآن ناقصة غير واضحة المعالم . ومع ذلك فهذا صحيح لأمرية فيه ، ويستحق منا اهتماما خاصا ، كما سنرى حينما نتحول الى معالجة ذلك السؤال الذى نركز عليه أعظم اهتمامنا فيما يختص بما نرمي اليه حاليا ، الا وهو : متى صار التبادل الثقافى مع البلاد الأخرى أداة فعالة من أدوات السياسة الخارجية وبعبارة أخرى ، منذ متى تطور هذا التبادل الى وسيلة لمباشرة تأثير واع فى الموقف الدولى .

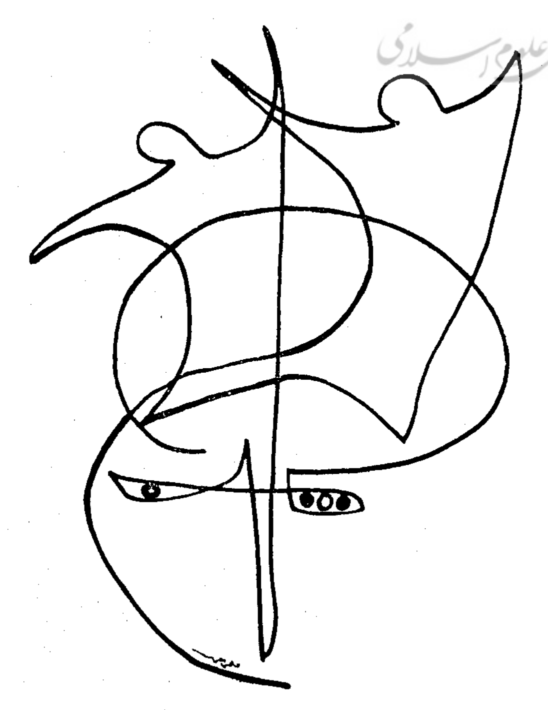
من المؤكد أن هذا حدث من وقت قريب جدا. وفى استطاعة المرء أن يغامر بالقول بأن التبادل الثقافى لم يصبح جزءا من الاسلحة السياسية للدول فى معاملاتها الخارجيه الا بعد أن وضعت الحرب العالمية الاولى أوزارها. ففى القرن السابع عشر تصور كومينيوس ، المربى الكبير الذى ينتمى الى اقليم بوهيميا ، ان المستقبل سيتمخض عن اتساق دولى فى مجال التعليم والثقافة ، ولكن المحاولات الاولى لارساء التعاون الفكرى على أساس منظم لم تبذل الا بعد قيام عصبة الأمم ، ومنظمة اليونسكو هى الآن حاملة لواء هذه الشعلة على نطاق أعظم ، ومدى أوسع بكثير . كما لم تبدأ وظيفة الملحق الثقافى فى الظهور كأحد الوظائف الملحقة بالمفوضيات الا فى عشرينات القرن العشرين ، وكان هذا دليلا واضحا على الحاجة الماسة لجعل التبادل الثقافى جزء لا يتجزأ من السياسة الخارجية . وفى ذلك الوقت أيضا عقدت اتفاقيات ثنائية واتفاقيات بين دول متعددة أدت الى تخطيط التبادل الثقافى . ولكن فى استطاعتنا أن نقول عن يقين ان التبادل والتعاون الثقافى لم يرتبطا ارتباطا نهائيا لا انفصام له بالسياسة الخارجية ، وان أهميتهما فى العلاقات الدوليه لم يبدأ نموها فى الاطراد ، الا بعد الحرب العالمية الثانية .

وفى هذه الفترة الحديثة للغاية اتسع نطاق التبادل الثقافى اتساعا كبيرا جدا فى كل من الناحية الجغرافية ، وفيما يختص بمحتواه ، ومما هو جدير بالذكر أنه افتتحت مجالات كبيرة للتعاون العلمى والتكنولوجى لتساير التوسعات الهائلة فى التجارة العالمية والصناعة .

وينبغى علينا أن نبين هنا أن الهدف من العلاقات الثقافيه الداخلة فى نطاق السياسة الخارجية لبلد من البلاد انما هو هدف لاغموض ولا التواء فيه : هدف يرمى الى النهوض بالعلم ، والتقارب ومن ثم فانه ينمى التعايش السلمى ، ويزيل أسباب التوتر ، ويدعم السلام . فكما أن العلاقات الودية الوثيقة السياسية والاقتصادية تقترن عادة بتعاون ثقافى واسع المدى ، فانه كثيرا ما يحدث أن تكون اقامة العلاقات الثقافية أو دعمها هى فى الغالب أول خطوة فى الطريق صوب وئام سياسى .

ومن سوء الحظ أن العكس قد لوحظ أيضا . وينجم هذا لمدى محدود من نفس طبيعة الأشياء ، اذ أن مهمة السياسة الثقافية الخارجية هى بطبيعتها مهمة تهدف الى الوئام ، كما أن التبادل الثقافى من شأنه زيادة التفهم المشترك مما يؤدى بدوره الى التعايش السلمى ، ولذلك فان أى حد من هذه العلاقات أو قطع لها من شأنه أن يشتم منه رائحة الحرب الباردة . والحقيقة أن محاولات العودة الى أساليب الحرب الباردة قد كانت عادة تبدأ بتصرفات موجهه ضد التبادل الثقافى تهدف بالفعل الى اسباغ قيمة سلبية عليه بدلا من القيمة الايجابية التى يجب أن يتسم بها . وهذه هى الاحداث التى كانت تدور بخلد مؤتمر اليونسكو العام حينما وافق بالاجماع عام ١٩٦٦ على اعلان مبادىء التعاون الثقافى الذى تتضمن بنوده تحذيرا ضد استغلال التبادل الثقافى فى أهداف تتضارب مع مبادئه الاساسية .

واذا كانت العلاقات الثقافية ، كما ذكرنا ، تكون الآن جزءا هاما مطردا من السياسة



الخارجية ، فانها تستمد مقومات حياتها من مجموعة كاملة من الانظمة ، والانشطة ، والمبادىء والاهداف والأساليب التى توجز فى لفظ السياسة الثقافية التى تتكون من مجموعة متلاحمة من الطرق التى تقوم الدولة بتنظيمها وتخطيطها ، ومن أنظمتها السياسية والاجتماعية والثقافية التى تهدف الى توجيه الفنون جهة تعليمية وأيديولوجية خاصة ، والى جعل المجتمع على وعى بتراثه الثقافى . وتركز سياسة الدولة الثقافية على احداث تأثير ايجابى فى مجال اسهام المجتمع فى الحياة الثقافية ، وعلى دعم وتطوير الأوساط الثقافية والقيام بالبحوث فى المجال الثقافى .

وتحدد هذ السياسة بواسطة مبادىء الدولة الأيديولوجية والتعليمية ، ويقوم على تنفيذها شبكة من المؤسسات الثقافية التى تتميز بمواردها المادية ، وأفرادها المدربين .

وفى مؤتمر وزراء الثقافة الذى عقد فى البندقية عام ١٩٧٠ قيل الكثير عن مسئوليات الدولة فى مجال الثقافة ، وعلى الاخص فيما يتعلق برعاية الدولة للفنون لتحل محل موارد المعونات المالية الخاصة الآخذة فى التلاشى بسرعة . كانت هناك آراء متباينة حول هذا الموضوع ، ولكنهم كانوا جميعا متفقين على شىء واحد : **حيث ان التثقف والاسهام فى الحياة الثقافية هما حق مقدس لكل مواطن ، فانه فرض مقدس كذلك على الدولة ان تتكفل بضمان هذا الحق ذلك لان مانسميه بالثقافة لا تتحدد فحسب بالكنوز التى يبتدعها الفنانون ، بل ايضا بالمدى الذى تكون عليه هذه الفنون ميسورة للمجتمع كله ، وكذلك بمدى نجاحنا فى ازالة الحد الفاصل بين الاستهلاك السلبى للثقافة والاسهام النشط فى خلق قيم ثقافية .**

وعلى ذلك ، فبما أن السياسة الثقافية الخارجية هى عنصر هام من عناصر السياسة الخارجية برمتها ، فانها تستمد قوتها من سياسة الدولة الثقافية الداخلية ، بل فى نفس الوقت قد تعكس أوجه ضعفها . ولذلك فان تحويل التعاون والتبادل الثقافيين الى عامل له حسابه فى التقارب والفهم ، والسلام فى الشئون الدولية يتوقف على زيادة الدولة لمسئولياتها تجاه النهوض بالثقافة ، كما كانت الحال قبل ذلك فيما يتعلق بالتعليم . فيجب أن تساير عمومية الثقافة عمومية التعليم ، وشبكة المعاهد الثقافية شبكة المدارس .

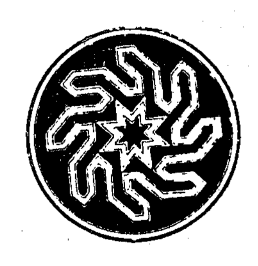
وقد ازدادت أهمية السياسة الثقافية بدرجة كبيرة نتيجة لما حدث من تطور هائل فى الآونة الأخيرة فى وسائل الاتصال التى تجعل فى حيز الامكان اذاعة كل أنواع المعلومات وكذلك الأحداث والظواهر الثقافية على نطاق جماعى . فالراديو والتليفزيون يتسللان الى كل مكان ، أو على الأقل فى استطاعتهما ذلك . ان هذه ثورة حقيقية قادرة على ازالة الحدود الفاصلة بين المراكز الثقافية الكبرى وبين ماكان من قبل غدرانا اقليمية أو حتى صحارى قاحلة . ولو أن الانسان أدخل فى اعتباره عامل التوقع ، لما كان أول هبوط له على القمر مرعاة للدهشة ، فان ويلز ، وفيرن ، وجيرزى زولافسكى تمكنوا جميعا من تصور هذا الحادث وتنبأوا به . ومع ذلك فلم يتنبأ أحد منهم بان اللحظة التى سيضع فيها أول قادم من الأرض قدمه على سطح القمر سيشاهدها مئات الملايين من مشاهدى التليفزيون . واننى لعلى يقين من أن هذه حقيقة ذات أهمية حاسمة فيما يختص بفلسفة الاتصالات . وماذا تكون الثقافة والفن بعد ذلك كله ، ان لم تكن رسالات موجهه الى كل من هو راغب وقادر على تلقيها ؟

ومن الواضح ان السهولة الفنية والسرعة التى هى من خصائص وسائل الأعلام الجماعية يمكن أن تكون عامل اغراء لنقل كل شىء أو أى شىء ولذلك فان أية سياسة ثقافية قائمة على تخطيط جيد ، وتنفيذ سليم يجب أن تركز على ضمان وجود أقصى درجة من المحتوى التثقيفى الحقيقى فى وسائل الأعلام الجماهيرية . واذا لم يحدث هذا فقد تؤدى وسائل الأعلام الجماهيرية الى عزل الناس عن الثقافة بدلا من تقريبهم اليها .

ولقد شاهدنا جميعا أمثلة عديدة من المواد المتلفزة التجارية المجردة من أى قيم تعليمية ، أو انسانية ، أو ثقافية تغزو المجال الذى كانت تشغله الكتب ، والمسارح ، والسينما ، والحفلات الموسيقية ، والمعارض ، محولة اياه الى أرض قاحلة جرداء .

وفى الحالات الأقل تطرفا ، يؤدى سوء استعمال وسائل الأعلام الى أحداث ثقافة بديلة لاتفقر حياة الفرد فحسب ، بل وتفقر كذلك صور الحياة الاجتماعية الاخلاقية والجمالية .

واننا لنسمع اليوم الكثير عن تلوث بيئة الانسان الطبيعية بواسطة فضلات مدنيته . ولقد آن الأوان لبدء الحديث عن تلوث مدنيته عن طريق الثقافة الكاذبة التى تذيعها ما تسمى بصناعة الترفيه التى تعمل من خلال وسائل الاعلام الجماهيرية .



تطور الذوق الجمالى وغياب النظرية العربية

د. عبد الحميد ابراهيم

اذا اردنا ان نتعرف على الذوق الجمالى فى شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام فلن نجد امامنا الا الفن القولى . حقا كانت توجد فى الجزيرة العربية – كما اخبرنا القرآن الكريم – الاصنام ، وهى عبارة عن تماثيل مثل اللات وعزى ومناة كان العرب يعبدونها ويتعلقون بها أشد التعلق ، يحيطونها بالكعبة ويصحبونها فى اسفارهم ويقدمون لها القرابين ، بل ان النحت كان معروفا عند العرب فى فترة موغلة فى القدم وتسبق الفترة التى عرفنا فيها القصائد الجاهلية بكثير ، فيروى أن ابراهيم – عليه السلام – قد دخل معبد قومه وحطم الاصنام الا كبيرهم بعد أن حاورها بطريقة يمتحن فيها قدرتها على النطق والحياة . ولكن الاسلام – لاعتبارات عقائدية لا جمالية – قد أزال الاصنام من الوجود لانها تضل الكثير من الناس فيتخذونها شركاء من دون الله . ومن ثم لا نستطيع أن نحكم على الشكل الجمالى لهذه الاصنام – الا من باب التخمين والرجم – فلعل مثلها مثل المعلقات العربية تهتم بالمظهر الخارجى أكثر من التركيز على المعانى التجريدية والعواطف الداخلية ، ولعلها تخلو من التناسق والانسجام ويقوم كل جزء منها بفردية مستقلة كاجزاء القصيدة العربية المتعددة الموضوعات ، ولعلها اشبه بفن النحت الزنجى والافريقى الذى لا نجد تناسبا بين اجزائه فقد لا يتفق حجم الشفة او العينين مع بقية اجزاء الجسم، ولعلها اشبه بشيخ القبيلة بل ربما تكون تجسيما لصفاته بصورة مثالية لانها الآلهة ولانها تفوق بهذا الاعتبار شيخ القبيلة فى صفاته النموذجية ففيها مظهر البطش والغضب والقوة وسرعة الانتقام ، او لعلها اشبه باله التوراة الذى كان يتراءى لموسى فى شبه جزيرة سيناء – كما جاء فى سفر الخروج – فى صورة نار تبعث فى نفسه الرعب والخوف . واذا كان كل هذا من باب الرجم والتخمين فلا مندوحة من أن نعتمد على الفن القولى فى وصف الذوق الجمالى عند العرب .

الجزيرة العربية هى صحراء مترامية الاطراف متناقضة المناخ ، ففى النهار تشتعل فيها الشمس وتصلى الصحراء شواظا من نار وفى الليل يرق الهواء ويهب النسيم ويحلو السهر ، وهى صحراء بيضاء مكشوفة تعريها الشمس طيلة النهار ويفضحها البدر طيلة الليل ، فلا يتخفى فيها شيء ولا تعرف تداخل الالوان ولا تركيب الضوء والظل ، ان كل شيء واضح وملموس لا يكد الذهن ولا يتعب العقل فى التحليل والتركيب وملء الفجوات الفارغة ، فلا بحر بما فيه من عرائس وحوريات ونباتات عجيبة ، ولا طيور تتستر تحت الاشجار ، ولا غابات ولا ادغال ولا حيوانات غريبة يدور بينها صراع عنيف وقتال وحشى يصل للانسان أصواته وهمهمته وضوضاؤه من داخل الغابات الكثيفة فيفهم القليل ويخمن الكثير . ولا احداث غريبة تحدث بعيدا عن ملتقى النظر وفوق الجبال العالية وتثير فى العربى روح القص والاسطورة . وقد شكل كل ذلك وجدان العربى وحدد نفسيته ، فهو اذا ثار كالشمس فى الظهيرة « ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر » ولكنه سرعان ما يهدأ ويرق كنسمة صحراوية ، وهو يكره الالتواء ويفر من التجريد ويحب الوضوح والشىء الملموس، وهو متناقض ليل الصحراء ونهارها ، ولا يستطيع أن

يلبث على حالة واحدة مدة طويلة ولا ان يقلب الفكرة كثيرا ، ومن ثم كان تفكيره سريعا ولكنه لماح ، ومن ثم كان ينتقل من فكرة الى فكرة ويميل الى الايجاز لا يستطرد مع جوانب الفكرة ولا يسترسل في الحديث النفسي ، ليس في حياته مفاجآت ولا تغيير ، ان الصحراء أمامه تكرر نفسها في كل مكان ، فلا فرق بين سقط اللوى والدخول وحومل الا في الاسم ، ان اسماء الامكنة تتكرر كثيرا في القصيدة العربية فنكاد لا نجد فروقا متميزة بين مكان ومكان ، انها أمكنة متشابهة وروتينية لا تبعث على التغير ولا تثير في النفس التجديد .

وقد لعبت هذه البيئة وذلك الوجدان دورهما في تكوين الفنون العربية وتحديد ملامح الذوق العربي فانعدمت ـ أو كادت ـ الفنون التي تعتمد على ((الدراما)) وعلى محور الصراع وتعدد الشخصيات وتنوع العلاقات فلا ملحمة ولا مأساة ، ولم تكن ((أيام العرب)) ـ التي حفظتها لنا الكتب الادبية ـ الا مجرد مناوشات ومساجلات فردية أو قبلية وبسبب منافع مباشرة أو اندفاعات طارئة . ومن ثم كانت اساطير العرب بسيطة وخالية من التعقيد والتركيب وانما هي مجرد خبر عن هاتف في الصحراء أو جان في وادي عبقر، فلا قصص طويلة تحاك حول هذه الاساطير ولا تداخل في العلاقات بين شخصياتها ، كهذا الذي نراه في الاساطير الاغريقية عن الآلهة التي كانت تتخفى عن أعين الاغريقي اما داخل الغابات الكثيفة أو تحت أمواج البحر اللعين فوق قمم الألب العظيم . ان الخيال العربي هو ابن بيئته ، فليس لنا أن نتساءل لماذا لم يعرف العرب الملحمة أو لماذا لم يترجموا مآسي الاغريق ، ان السؤال هنا في غرابته وسذاجته مساو تماما للسؤال ! لماذا لم يعرف العرب جنيات البحر ولماذا لم يتحدثوا عن الغابات والاشجار . سذاجته مساو تماما للسؤال : لماذا لم يعرف العرب الملاحم والتراجيديات وأن يصبوا كل طاقتهم الفنية في الشعر الغنائي ، لانه هو الذي يمكن أن يعبر عن الفردية وان ينقل الفورة العاطفية تلو الفورة وأن يستجيب لانفعالات الشاعر الطارئة ، ان القصيدة العربية ـ كما تمثلها المعلقات ـ هي المعادل الفني للذوق العربي والتي يمكن أن تشف عن مثله العليا في الجمال ، انها مكونة في موضوعات وكل موضوع مستقل عن الآخر ويعيش حياته الخاصة ولا يجمعه مع الموضوعات الاخرى الا نفس الشاعر ، ان الموضوع قد يثير انفعالات تتناقض مع الموضوع الآخر ولكن لها مبررا من نفس الشاعر ومن واقع بيئته ، ان الغزل في اول القصيدة يختلف عن مشاق الرحلة ويختلف عن وصف الناقة ويختلف عن موضوع المدح أو الفخر ، والشاعر يرسم قصيدته من خارج وفي لوحات مكشوفة ومحسوسة ان معلقة امرىء القيس تمتلىء باللوحات المحسوسة والمرئية عن عرصات الدار وعن مغامراته الحبيبة وعن حركات فرسه ، حتى الهموم الداخلية تتحول عنده الى معادلات خارجية انها تهجم عليه كجمل ((تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل)) . والموسيقى عند الشاعر العربي رتيبة متكررة ومن خلال تفعيلات تتفق في الحركات والسكنات بل وفي العدد ولابد أن تنتهي بايقاع متشابه يشبه خف الناقة وهو يخبط الارض بين الحين والحين ، والخيال عنده يلتمس من واقعه عن طريق التشبيه أو الاستعارة ، انه خيال قريب المأتى لا يعاني الشاعر الجهد في الحصول عليه ، وانما هو شيء يذكره بشيء ، ان ردف الحبيبة مثلا يذكره بكثيب الرمل وعينيها تذكرانه بالبقرة الوحشية ورمشها بالسهم .

وهو ذوق يميل الى الموسيقى الصاخبة الخطابية التي تتأتى من خلال الفاظ مجلجلة ورنانة ويمكن أن تسيطر على السامع ـ وكان الشعر ينشد ـ وتؤثر فيه . وقد ادرك القرآن الكريم باعجازه البليغ نفسية الاعراب وما فيها من جفوة وضراوة في المعاملة حتى مع رسول الله ـ عليه السلام ـ كما جاء في أول سورة الحجرات ، ومن ثم تميز القرآن بالالفاظ القوية والتراكيب الجليلة والمهيبة ، انه يريد ان يهذب نفوسهم وان يسيطر على مشاعرهم ، اننا نقرأ القرآن ونحس انه قد سيطر علينا من اول لحظة وقد استلب منا نفوسنا ، أن صورة الجحيم وصورة العذاب والاهوال التي تحدث يوم القيامة وصورة التهديد والوعيد وصورة الغضب والانتقام تتوالى في جو من الموسيقى القوية والحروف الضخمة تسيطر على نفوس الاعراب وتفسر في الوقت نفسه تاثر العرب بسماع القرآن وخضوعهم له وارغامهم لاوامره ، يكونون في أول الامر معاندين ثم يسمعونه فيسلمون كما فعل عمر بن الخطاب أو على أدنى حد يعترفون بانه ((يعلو ولا يعلى عليه)) كما قال الوليد بن المغيرة .

ـ ٢ ـ

ويظل هذا الذوق الحسي الذي يعبر عن الانسان من الخارج فارضا سطوته ومشكلا ما يمكن أن يسمى ((طبقية فكرية)) هي المقابل الطبيعي للثنائية التي عرفها التاريخ القديم ، فقد كان تاريخ ملوك وحكام وقصود كتب التاريخ تتحدث عن الحاكم وتؤرخ للعصر بأعماله ، أما الطبقة العاملة والواسعة فلم تنل نصيبها من الاهتمام ، اذ كان حظها في الحياة قليلا تحت ظل السلطة وتوارث الاختصاصات . ومن ثم كان هذا الذوق ذوقا خاصا ، فيه التأنق والصناعة ، وفيه الترف والعناية بالزخارف والجمال الخارجي ، يخاطب الاذن أو العين أكثر مما يخاطب العقل او الوجدان ، ان المدح قد استأثر بالنصيب الكبير من الشعر وانطلق النقاد يعلمون الشعراء كيف يمدحون ويدلونهم على الصفات التي ترضى أصحاب الشأن ، يقول ابن رشيق ((فاذا كان الممدوح ملكا لم يبال الشاعر كيف قال فيه ولا كيف أطنب ويجود المديح حينئذ كلما أغرق الشاعر في أوصاف الفضيلة وأتى

بخواصها » واستأثرت الرسائل الديوانية والسلطانية والتوقيعات بجزء كبير من النثر ، اما النقوش والرسوم والفنون التشكيلية فقد كانت نفعية (تطبيقية) الغرض منها تزيين القصور وزخرفتها ، والفسيفساء والسجاجيد والخزف والمرمر والاوانى ونقوش القصور والحمامات كانت جميعها لارضاء السادة المترفين ، يصف البحترى قصرا من قصور السادة فيقدم لنا صورة لهذا الجمال المترف :

وكان حيطان الزجاج بجوه
لجج بمجن على جنوب سواحل
وكان تفويف الرخام اذا التقى
تفويفه بالمنظر المتقابل
حبك الغمام رصفن بين منحر
ومسير ومقارب ومشاكل
لبست من الذهب العقيل سقوفه
نورا يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن فى ذى رونق
ملتهب العالى انيق السافل

وكذلك الغناء والموسيقى ارتبطا بالمواخير والحانات التى تعمل على ترفيه الطبقات وكانت الجوارى المغنيات يسرفن فى الزينة والزخرفة واستخدام الرياش والمراوح والكتابة عليها بماء الذهب وكل ذلك ارضاء للسادة الذين لا يبخلون بشيء ، وقد لعب فن الخط العربى دوره فى تزيين القصور والحمامات والمساجد وكان يكتب بماء الذهب وبطلاوة ورونق . ان الطابع الذوقى لهذا الجمال المترف كان طابعا سكونيا يليق بالقصور ويليق بالمترفين ، وقد خلا من عنصر المعاناة وعنصر الصراع والحركة ، انه جمال نائم يرضي نؤوم الضحى ويشبع حاجته ، يصف امرؤ القيس امرأة فى معلقته فيخلع عليها من الصفات الخارجية ما يجعلها نموذجا للذوق العربى المترف فهى مهفهفة بيضاء وذات جيد كجيد الرئم وفرع اسود فاحم وهى مترفة يغطي المسك فراشها وتنام حتى الضحى .

ولكن بجانب هذا الذوق كان هناك ذوق آخر ينمو بعيدا عن القصور ، وبطريقة بدائية لا تجد عناية النقاد ولا اهتمام اهل الفكر ولكنه كان صادقا فيه حرارة وانفعال ، لانه يعبر عن طبقة كادحة لها امانيها والامها . كان هذا ذوق الطبقة العامة التى نفرت بطبيعتها من ذوق الخاصة ووجدت آدابه بعيدة عن نفسيها ومن ثم لجأت الى نوع من الآداب لا يقف عند المحسنات اللفظية او المعنوية التى حددها علم البديع ولا يقف عند حد ابراز المعنى الواحد بصور متعددة يوضحها علم البيان ، وانما يهتم بالصراع والحركة ، فلجأت الى الملاحم والسير الشعبية تحملها مطامحها واmanaged امانيها وتستعيض بها عن واقعها الكئيب . وهذه الملاحم وان كانت تبتعد عن التأنق والصناعة وتنمو بطريقة بدائية الا انها مليئة بالحركة والحيوية وتختلف كلية عن هذا الجمال النائم الذى كان يزين القصور وهى غنية بالاحاسيس والمشاعر الفياضة ، معبرة بصدق وحرارة عن نفسية الشعب الذى كان يتعلق بها اشد التعلق حتى ان احدهم اصابه الارق لان راوى سيرة عنترة قد وقف به عند حد اسره ولم يهدأ حتى طرق باب الراوى ليكمل له السيرة ويطلق عنترة من سجنه ، وحققت هذه السيرة ما لم يحققه ادب الخاصة ، فهى تميل الى الاستطالة وتعدد الشخصيات واستخدام الاساطير والخيال الخلاق ، واستحدثت الوانا اخرى تساند الفن القولى وتبرز تأثيره مثل الانشاد والايقاع والربابة وحركات الراوى ، وهو يقف حجة ضد من يتهمون العقلية العربية - مثل ارنست رينان - بانها عقلية غير خلاقة تميل الى المحاكاة ولا تجيد التخيل الابتكارى .

وكان لابد أن يحدث انفصال وعداء بين هذين الذوقين ، هو صورة فكرية للعداء بين مصالح الطبقتين ، فالخاصة لا يعترفون بذوق العامة ويرون فيه اسفافا أو كما يقول ابن كثير في تفسيره « واما ما يذكره العامة عن البطال من السيرة المنسوبة الى دلهمة والبطال والامير عبد الوهاب والقاضى عقبة فكذب وافتراء ووضع بارد وجهل وتخبط فاحش لا يروج الا على غبى أو جاهل ردى ، كما تروج عليهم سيرة عنترة العبسى المكذوبة وكذلك سيرة البكرى والدنف وغير ذلك » ، اما العامة فقد ضاقوا بالتكلف وأحبوا حياة الفطرة والطبيعة ، ان زوج معاوية ابن أبى سفيان قد ضاقت حياة القصور والترف وتاقت الى حياة البادية وانشدت فى ذلك قولها :

للبس عباءة وتقر عينى
احب الى من لبس الشفوف
وبيت تخفق الارياح فيه
احب الى من قصر منيف

— ٣ —

وجاء العصر الحديث وحصلت هزة للذوق العربى فى مصر اصابته فى الصميم ، فبعد اتصالنا بالحضارة الاوروبية عن طريق البعثات والكتب أو اتصال الحضارة الاوروبية بنا من طريق الاستعمار والمستشرقين حدث تطور جذرى للذوق العربى وظل هذا التطور ينمو تدريجيا ، بدأ أولا بتخطى نقطة الاسفاف التى وصل عندها فى عهد الاتراك والمماليك حيث اصاب الفن هزال وموات وتكفن فى حلى ميته واشكال ترصيعية لا روح فيها وامتد ذلك الى جميع مظاهره وكان هذا نتيجة لفساد الذوق العام وتدهور

حب الجمال والحياة ، وفد الى مصر الرحالة ابن سعيد المغربى فى القرن السابع الهجرى فساءه فساد الحياة بها فاكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والازبال والمبانى بما عليها من قصب وطين قد ضيقت مسلك الهواء والضوء ويضيق منها الصدور وتدرك النفس وحشة عظيمة. تخطى الذوق الحديث هذه النقطة المسفة وعاد الى المنبع العربى القديم حيث كان الذوق وخاصة فى العصر الجاهلى — ورغم مابه من قصور — ذوقا أصيلا لانه مستمد من البيئة ومن واقع الفنان النفسى ، ولكن الذوق الحديث أخذ يتحرك حتى وصل الى نقطة تجاوز فيها بمراحل كبيرة الذوق العربى كما وضع اصوله الاولى العصر الجاهلى ، حتى ان المقارن بين الذوقين يجد فروقا جذرية ولا يتحرج من الحكم بأن الذوق المعاصر مخالف تماما للذوق القديم ، ان نظرتنا الجمالية الحالية لاتضرب بجذورها الى الذوق العربى وانما الى الحضارة الاوروبية فهناك فنون جديدة — مثل القصة والمسرحية — قد عرفت ومنحتنا نوعا من الخيال المبدع الذى لايقف عند حد التفسير والايضاح والبحث عن تشبيه او كناية وانما يخلق عالما جديدا فيه الحركة وتنوع الشخصيات وثراء العلاقات وفيه الصراع والخط الدرامى الذى ينمو ويتحرك ويخضع لتصرف الفنان وفيه بجانب ذلك اهداف انسانية عامة تتجاوز الاهداف الشخصية والمباشرة ، ان الفكر من خلال هذه الاشكال مال الى الاستطالة وايفاء الموضوع مختلف نواحيه وتتبعه فى مختلف مساريه ، ان اندهاش صاحب المثل السائر امام حكاية وتعليقه على ذلك بقوله «والله ان هذا عى فاحش وتطويل كثير .. والمعنى المقصود يفهم بدونه ، لم يعد مثارا بل أصبح هذا العى وهذا التطويل أمرا مطلوبا . ولم نعد نقف عند حد الجزئية أو حد الانفعال الطارىء أو حد العواطف الفردية المنعزلة ، وحدث اهتمام بمختلف الفنون الاخرى وتزاوج بينها على أساس حقيقة جوهرية ترجع بالفن الى منبع أصلى مشترك وحاجة اساسية فى الانسان يلتقى عندها النحت بالرسم بالادب بالموسيقى بالباليه بالاوبرا ، ومن ثم اخذ اهتمامنا يتزايد بهذه الفنون ولم يعد الفن القولى هو صاحب الساحة ولم يعد الشعر وحده كما كان عند العرب القدامى «ديوانها وسجل ملاحمها» ، فالنحت قد أصبح له متذوقوه وفنانوه الذين تعددت مدارسهم واتجاهاتهم وهناك كلية للفنون الجميلة واخرى للفنون التطبيقية ، والموسيقى أخذت تتطور وتنال احترامها وهناك اكاديمية للفنون تدرس الوسيقى العربية والموسيقى العالمية وتدرس الباليه على الاسس الفنية العالمية ، وبدأ خط جديد فى الموسيقى يقترب من الفن العالمى الذى يميل الى تعدد الالحان واستخدام الهارمونيه والبوليفونيه ولايكتفى بمخاطبة الاذن واحداث الامتاع وكفى وانما يخاطب الوجدان فى منطقة يلتقى فيها بالارواح المرهفة من جميع الاجناس والعقائد ، والشعر ابتعد عن الموسيقى الخليلية التى نشأت على خطوات الابل ومع نشيد الحادى وأخذ يقترب من الذوق المعاصر ويتعامل مع موسيقى مركبة ومتنوعة لاترضى بالبساطة والسذاجة ومع قافية بعيدة عن الايقاع الرتيب وتلعب دورها الحر كجزء فى سيمفونية كبيرة ، ومن ثم أصبح الشاعر فنانا حرا يتعامل مع قصيدته من خلال الموقف والحركة النفسية ويثور على القوالب المسبقة ويتطلع الى رؤية جديدة للعالم ومن خلال فلسفة انسانية عامة . واختفى فى هذا العصر روح العداوة لفكر العامة وذلك بعد استنارة الجماهير وظهور الطبقة الشعبية وانتشار التعليم ونشر الروح الديمقراطية والفلسفة الاشتراكية ، ومن ثم زال الازدراء للفكر الشعبى ونال نصيبه من الدراسة والاهتمام ، فجمعت النصوص الشعبية والفت كتب ونوقشت رسالات جامعية حولها واصبح الادب الشعبى يدرس فى الجامعات وله اساتذته ومتخصصوه وصار الروح الشعبى منطقة جذب والهام لمختلف الفنون فى الاغنية وفى الادب وفى الفن التشكيلى ، يقول بدر الدين ابو غازى فى مجلة الهلال «فى الفنون الشعبية معين لاينضب للآداب والفنون القومية ، فهى تمدها بنسيج يؤكد اصالتها ويمنحها نبضها وطابعها الخاص ، مرور الزمن لايذهب بها وتوافد التيارات لا يطمسها فعرقها السحرى دساس ينساب فى وجدان الشعب وتتوارثه الاجيال ، وظهرت جماعة الشعر العامى وهى تختلف اختلافا جذريا عن الزجل بمفهومه القديم ، فكما أن القصيدة الحديثة قد انقطعت فى نسبتها الى القصيدة العربية القديمة فكذلك الشعر العامى المعاصر لاينتسب الى الزجل القديم ، فهو يستخدم وسائل فنية جديدة ولايقترب من الجمهور باستخدام لغته فحسب بل وبالتعبير عن روحه وامانيه ونظرته للحياة » .

وباختصار فان انفصالا جذريا قد حدث بين الذوق العربى القديم والذوق المصرى المعاصر . فالانسان المعاصر ليس تطويرا للانسان القديم بل هو شىء مختلف عنه فى كل شىء فى زيه وفى ماكله ومشربه وفى مسكنه ناهيك بنظرته للحياة وذوقه الفنى ، ان اتصالنا بالحضارة الاوروبية لم يكن متكافئا بل كان اتصالا مغلوبا بغالب ، فكان ان فقدنا قدرتنا على المراجعة واستيحاء الذات وهضم الجديد ، وبهرنا بما هو اجنبى بهرة انستنا انفسنا وواقعنا (رفاعة الطهطاوى تحت عنوان «عربى تفرغ» يتحدث عن نموذج من المثقفين الذين يأتون من الخارج ويتنكرون للاهل ويكتفون من الحضارة بقشورها) ، أن اليابان كانت أكثر ذكاء منا فى اتصالها بالحضارة فلم تفقد الطعم المحلى وحافظت على جوهر شخصيتها وطورت ماعندها من فنون ومسرح ورقص اننا لم نمتص الحضارة ونعايشها ثم نفرزها خلايا أصيلة كما حدث وقت اتصالنا بالحضارات الاخرى أيام العصر العباسى وحين كانت الدولة العربية فى ابان ازدهارها وقوتها ، اننا نستطيع أن نميز بوضوح ذوقا فرنسيا عند الفنانين الذين تثقفوا ثقافة فرنسية ، وذوقا انجليزيا عند

الذين تثقفوا ثقافة انجليزية ، اما الذوق العربى فقد تجمد عند طائفة من العلماء المحافظين وقفوا عند فترة معينةولم يستطيعوا أن يسايروا الركب المعاصر ، وبذلك أصبحت هناك ثنائية فى الاذواق هى انعكاس لثنائية التعليم ولروح العداوة والريبة بين القديم والجديد ، ومن ثم غابت النظرية العربية الاصيلة التى تقدر على أن تساير الركب المعاصر فى الوقت الذى لا تتنكر فيه لجذورها الاولى ، ان القديم وحده لايصلح اساسا للتطور لان هذا مخالف لسنة الحياة وحركة التاريخ ، والجديد لايصلح وحده اساسا لنظرية أصيلة لان النظرية ليست مجرد كلمات وافكار على الورق بل لابد لكي تصبح ذات فعالية من أن تعيش بين الناس وان تعبر عن فلسفتهم ، ان الجديد يرتكز على القديم وينبثق منه ، فالماضى يحمل الحاضر فى ثناياه والحاضر يتضمن الماضى ، فقلب للاوضاع وتفريق بين شيئين يتكاملان ان تحدث هذه العداوة والانفصال بين القديم والجديد ، فهى عداوة بين الاب وابنه مخالفة لقانون التطور الذى يحرص الاب فيه على ان يعطى ابنه ثمرة تجاربه ويحاول الابن ان يكمل الطريق . ان ذوقنا المعاصر ليس اصيلا اذ هو شىء مجتلب يعتمد على غيره وهذا اسوأ مايصيب الشخصية بالضمور ويقعدها عن الانطلاق والمعايشة ، ومن ثم فكثير من الاعمال الفنيةعندنا اما تقليد خافت للاتجاهات الاوروبية ينقصها طابع التفرد وذلك الشىء الذى يمكن ان ينتسب الى الفنان فيميزه عن غيره ، واما وقوف عند السطح الخارجى للاشياء دون التبطن لجوهرنا ، فليس من التعبير عن شخصيتنا ان نرسم قروية تحمل قمحا أو نؤلف قصة تحمل اسم فلاحة مصرية او نصف شخصية أو حيا شعبياً وانما ان نعبر عن الجوهر عن ذلك الشىء الذى يتخفى وراء كثير من المظاهر ، اننا لو فعلنا ذلك لاقتربنا من الحقيقة حتى ولو لم يكن فى عملنا عنوانا مصريا او حيا شعبيا .

ان عظمة الفن الحقيقى انه يقدم فى لمحة خاطفة الثابت وراء المتغير واللب وراء القشور .

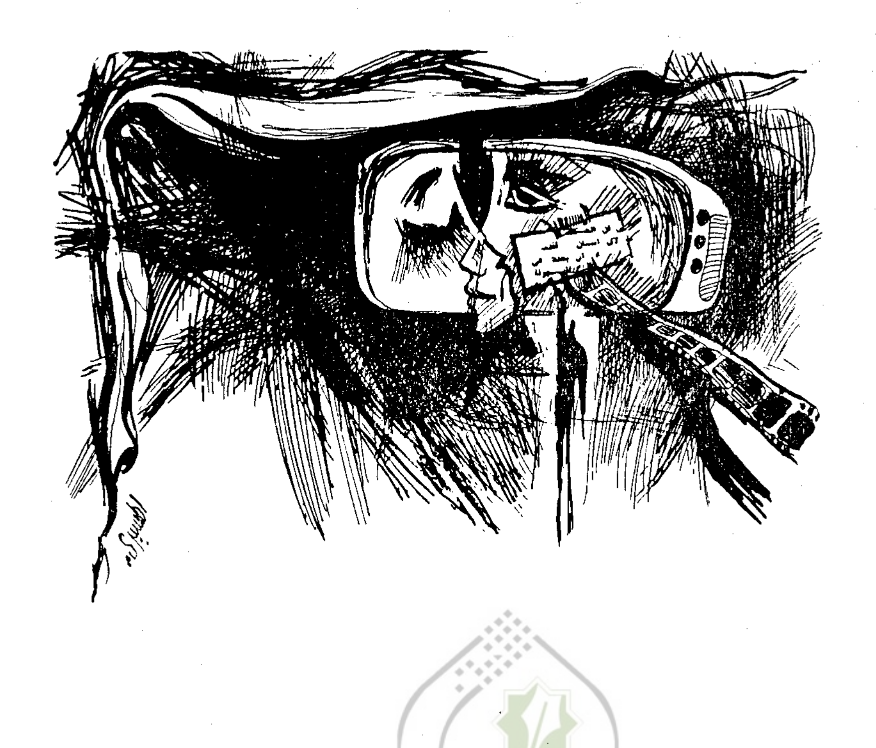
ان جمال صوت الشيخ محمد رفعت يرجع الى انه يلخص فى نبراته جوهر القرآن ، انه ينقل - الينا بطريقة لا يستطيعها الا هو - لب الاسلام ان صوته يشبه نسمة خفيفة تهب عليك فى عصر يوم من ايام رمضان وقد جلست فى واحة ظليلة ومن حولك الصحراء الواسعة من كل مكان . واذا كان ذلك كذلك فاين الفن الذى يعبر عن شمسنا الصافية وميلنا للنكتة والقفشة ويلخص جوهر الشرق وحبه للتوابل والحسيات فى الوقت الذى احتضن فيه الاديان والسماويات ، أين الذوق الذى يعبر عن نوع من الجمال واضح «حريف» ، اين اللوحة أو التمثال الذى يلخص جوهرنا ويظهر طابع التفرد بحيث تقام معارض من انتاجنا فى الخارج ويقبل عليها العالم لانها تمثل شيئا من « الروح الشرقى » بكل ما فى هذه الكلمة من استثارة وجاذبية .

ان المسئول عن غياب النظرية الاصيلة هو روح التقليد الذى يسرى فى نفوسنا وفى مختلف مظاهر سلوكنا، وهى ظاهرة تدرك بوضوح على مدى تاريخنا العربى ، وقد وقفت عقبة كاداء فى سبيل تطور ذوقنا الجمالى ، ان « عمود الشعر » ظل يمثل فى تاريخنا الشعرى منطقة ارهاب واحتذاء القديم ظل شيئا مقدسا عانى من ثقله الادباء ، ان الشاعر القديم يقول « اما عجبت ان الشاعر (يعنى الجاهلى) قال : انبت قيصوما وجثجاثا فاحتمل له ، وقلت : انبت اجاصا وتفاحا فلم يحتمل لى » ، وان الشاعر الحديث يجار بالشكوى :

ونحن كما غنى الاوائل لم نزل
نغنى بارماح وبيض وادرع
عرفنا مدى الشيء القديم فهل مدى
لشيء جديد حاضر النفع ممتع

وحين اتصلنا باوروبا ظل الجانب التقليدى يسيطر علينا ويحرمنا من التفكير والمراجعة ، وتحول الكثير من أسرنا الى صورة باهتة للاسر الغربية ، فالى عهد قريب كانت الفتاة منا تحرص على أن يكون « البيانو » جزءاً مهما فى جهاز عرسها حتى لو لم تعرف استخدامه . انها ظاهرة بلاشك تحتاج الى دراسة ولكنها على اى حال لا ترجع الى تكوين بيولوجى فى العقلية العربية ، فالتقليد عندنا عادة سيئة ليس الا ، وهذا يعنى ان الامل موجود اذا حاولنا ان نعمل جاهدين على ازالتها لان ذلك هو الشرط الاساسى والاولى لكى يتم لنا بناء أصيل وخلاق .

ويلعب غياب الجانب النظرى فى حياتنا دوره الكبير فى القعود عن تكوين ذوق اصيل ، ان فلاسفتنا لا يستوحون الواقع ولا يستلهمون تفكيرهم الخاص ، ومن ثم لم يستطيعوا - رغم اقسام الفلسفة الكثيرة فى كلياتنا - أن يتوصلوا الى فكر اصيل ، فهم اما وجوديون او منطقيون وضعيون أو شارحون لهذا وذاك من الفلاسفة الاجانب ، ولكنهم لما يكونوا هم ولما يحددوا ملامح اصيلة لفكرنا لها جذورها التاريخية ولها واقعها الاجتماعى وتعمل على اشاعة التجدد فى حياتنا ، وان فلسفة عصرية للجمال لما تتم فى حياتنا الفكرية ، ان من المستحيل ان نصل الى ذوق اصيل بعيدا عن الجانب الفلسفى والنظرى ، ان نقادنا القدامى امثال عبد القادر الجرجانى قد قاموا بدورهم - فى حدود وضعهم التاريخى - فى تجديد فكر مهما كان راينا فيه فهو مستمد من واقع الادب العربى ، ولكن نقادنا الحديثين وابتداء من طه حسين والعقاد حتى لويس عوض وعبد القادر القط لم يقدموا الا شرحا للفلسفات الجمالية الاجنبية او تعليقا وتفسيرا لبعض الاعمال الادبية ، ان الثنائية الواضحة بين الجانب الاكاديمى الذى تمثله الجامعة والجانب التطبيقى الذى تمثله الصحافة لا ينبغى لها ان تدوم لانها مخالفة لاى منطق حضارى فى العالم ، فالجانب النظرى دون أن يستند



الى تفهم لما يدور حوله يتحول الى الغاز ويصبح قريبا من لعبة « الكلمات المتقاطعة » ، والجانب التطبيقى اذا لم يستند الى فكر نظرى يضل طريقه ولا يصل الى مرحلة الاضافة ، ان علم النفس الابداعى الذى أخذت طلائعه تظهر فى جامعاتنا ينبغى له الا يكرر الخطا نفسه فيعتمد على تعريب الجداول وتحوير الاختبارات النفسية والمقاييس الاجنبية ، ان دوره خطير اذا اتجه الى الحقل الميدانى وقدم لنا بمنهجه العلمى السليم ملامح الذوق العربى وقام باستطلاعات واسعة يمكن من خلالها تحديد النظرة الجمالية ، ثم قام بعد ذلك بدراسة نظرية فى تحليل النتائج وبيان الاسباب والكشف عن الجانب الاصيل الذى يمكن « تطعيمه » أو اثراؤه . وان الامل معقود على معهد « النقد الفنى » الجديد الذى انشاته «أكاديمية الفنون» فى تخريج نقاد طليعيين يعملون على تأصيل الذوق وتوجيهه، اننا لا نريد له أن يكون تكرارا للمعاهد الفنية الاخرى لا نريد لقسم الجماليات به أن يكون تكرارا لكليات الآداب ، ولا لقسم الموسيقى أن يكون تكرارا للمعاهد الموسيقية ، ولا لقسم الفن التشكيلى أن يكون تكرارا لكلية الفنون الجميلة او كلية الفنون التطبيقية ، وانما نريد له أن يتجاوز رسالة هذه المعاهد ويقوم بدور الفلسفة الجمالية وتقعيد الجانب النظرى وتخريج نقاد فى مختلف الفنون قد تثقفوا ثقافة عالية ويعملون فى الوقت نفسه على تطوير ذوقنا الجمالى والبحث عن أصالة شخصيتنا .

حقا .. هناك اتجاه يتزايد هذه الايام ويبحث عن الشكل الاصيل لمجتمعنا ، فلا ننسى تمصير الشركات وتاميم المؤسسات والاهتمام بالعنصر المصرى الاصيل ممثلا فى العمال والفلاحين ، وفى الجانب النظرى نذكر دعوة الدكتور على سامى النشار فى البحث عن طريقة التفكير العربية لا فى كتابات الفلاسفة أمثال الكندى والفارابى المتأثرة بالتفكير الاغريقى وانما فى كتب الاصول والفقه التى تتحقق فيها أصالة العرب وطرق تفكيرهم الخاصة وفى الجانب التعبيرى نذكر دعوة الدكتور يوسف أدريس الى خلق قالب مسرحى مستمد منا ويسميه « مسرح الفرافير » ونذكر دعوة الدكتور على الراعى الى احياء «الكوميديا المرتجلة» التى يشترك الجمهور مع المؤلف ومع الممثل فى اخراجها بحيث يتم تاليفها كل ليلة .

ولكن كل هذا يظل مجرد اهتمامات فردية لماحة تحتاج الى المناقشة والاهتمام ، وهو الدور المنتظر من مجلة مثل « الفكر المعاصر » تولى هذه القضية العناية ، بتشجيع الدراسات الميدانية والدراسات ذات الطابع الفكرى الاصيل ، والدعوة الى اجراء حوار حى على صفحاتها يرتفع بهذه القضية من الاهتمام الفردى الى المشاركة العامة .

علم الأسلوبيات ومشاكل التحليل اللغوى

د. على عزت

يعد علم الأسلوبيات stylistics أحد الفروع التطبيقية لعلم اللغويات الحديث ، وهو علم مازال يتحسس طريقه الى النور ، ذلك أن دراسة أسلوب ما بطريقة علمية منهجية تحتاج بالضرورة الى وجود مناهج لغوية متكاملة ، واطار نظرى شامل تستند اليه ، وتكنيك محدد تتوخاه فى الوصف والتحليل ، وهى أمور لم تستوف دراستها بعد . والصعوبات التى يقابلها عالم الأسلوبيات أو المحلل اللغوى صعوبات جمة أولها تعريف كلمة «**الأسلوب**» التى يستمد منها العلم تسميته ، ذلك أن القول بأن علم الأسلوبيات يقوم بدراسة « الأسلوب » لا يوضح الأمور كثيرا نظرا لتعدد التعريفات الشائعة لهذه الكلمة من بينها ـ فيما يتعلق بدراسة اللغة :

١ ـ العادات والسمات اللغوية التى تميز شخصا ما ، وبخاصة كاتبا من الكتاب ، فحين نقول أسلوب العقاد أو طه حسين مثلا تقفز الى أذهاننا بعض السمات التى ينفرد بها العقاد أو طه حسين ، لا كل العادات اللغوية التى يتميزان بها .

٢ ـ كل أو بعض الصفات اللغوية التى تتسم بها حقبة ما أو جماعة ما من الكتاب ، مثلما نتحدث عن خصائص العصر الكلاسيكى (الأوجسطى) أو العصر الرومانتيكى فى انجلترا سواء فى الشعر أو فى النثر .

٣ ـ تستخدم كلمة الاسلوب ، بطريقة أكثر تحديدا بمعنى تقييم وسيلة او أكثر من وسائل التعبير ، وبخاصة حينما نصدر حكما على لغة كاتب ما ، فنقول انه يتميز بأسلوب « رصين » أو « جزل » أو « مؤثر » أو « جميل » أو «فخم» أو « ردىء » الى آخر هذه الصفات ، أى اننا نصدر حكما على الانطباع أو التأثير الكلى الذى تخلفه فى نفوسنا لغة كاتب من الكتاب دون أن نشير الى خصائص معينة نبنى عليها حكمنا هذا . والملاحظ هنا أن هذا التعريف لكلمة الاسلوب لا يقوم على أساس علمى أو موضوعى أو وصفى أو منهجى ، كما هو الحال بالنسبة للتعريفين السابقين ، مما يذكرنا بما كنا نتلقاه ولا يزال يتلقاه طلابنا من أن أسلوب هذا الكاتب أو ذاك « حسن الجرس » « رصين الألفاظ » « حلو الديباجة » .. الى آخر هذه العبارات التى ليس لها مدلول خاص فى ذهن الطلاب فيرددونها دون فهم أو وعى ، ولا تربى فيهم ملكات النقد الواعى السليم .

ومهما يكن من أمر هذه التعريفات فانه يمكن القول بأن **الهدف من وراء علم الأسلوبيات هو دراسة الأساليب اللغوية المختلفة بحيث نشير الى الملامح اللغوية التى تميز الصيغ الشائعة فى كل أسلوب من الأساليب ، والى الصلة ـ ما أمكن ـ بين هذه الصيغ وبين وظائفها اللغوية من ناحية ، وبين هذه الصيغ وبين المواقف الاجتماعية التى تستخدم فيها من ناحية أخرى** ، كما نفسر ، كلما أمكن ذلك ، العله فى استخدام هذه الملامح ونقابلها بالملامح البديلة فى الأنماط اللغوية الأخرى . ثم نصنف هذه السمات الى فصائل تبوب اما على أساس مميزاتها اللغويه من نحويه وصوتيه ولفظيه أو على أساس وظيفتها فى السياق الاجتماعى (١) أو على أساس العلاقه بين الاثنين معا .

والمقصود هنا بالأساليب اللغوية المختلفة كل ما يتسع له هذا المدلول ، وهو يشمل على وجه التحديد :

(أ) أساليب الكلام العادى مثل :

١ ـ الأسلوب الدارج
٢ ـ الأسلوب الفصيح
٣ ـ الأسلوب البلدى
٤ ـ أسلوب اللهجات المختلفة

(ب) أساليب الكتابة العلمية والأدبيه والفنية بأنواعها المختلفة مثل :

١ ـ لغة الأدب
٢ ـ لغة العلم
٣ ـ لغة القانون
٤ ـ لغة الصحافة
٥ ـ لغة الاعلانات
٦ ـ لغة الدين .. الخ .

(حـ) الأساليب الفردية لكل كاتب من الكتاب على حدة وبخاصة فى لغة الأدب من شعورواية ومسرحية .. الخ حيث يتفاوت الأسلوب من كاتب الى آخر تفاوتا كبيرا .

أما موضوع البحث الذى تتناوله الدراسة الأسلوبية فهو أى شريحة من الكلام المنطوق أو اللغة المكتوبة التى يمكن للمحلل اللغوى أن يعزلها من الفيض اللغوى المتدفق ثم يخضعها لمعايير البحث والتحليل ، سواء كانت هذه الشريحة عبارة أو جملة أو فقرة أو نصا بأكمله ، وهنا تثار عدة مشاكل فى ذهن الباحث نطرحها فيما يلى :

أولا : هل من الممكن فعلا أن نؤسس او نستكشف صلة ما بين الصيغ اللغوية وبين وظائفها فى أسلوب ما ، أى هل ثمة علاقة مميزة بين الصيغ اللفظية أو النحوية أو الصوتية فى أسلوب ما ، وبين الوظائف التى تؤديها هذه الصيغ فى السياق الاجتماعى الذى تستخدم فيه ؟

الملاحظ أنه يمكن استكشاف هذه العلاقة فى كثير من الأحيان ، فمثلا فى الأسلوب العامى المصرى نجد أن التعبير عن اليأس أو الاستسلام ـ وهى وظيفة لغوية تستخدم فى السياق الاجتماعى المصرى ـ يرتبط فى أغلب الأحيان ببعض أو بكل الملامح اللغوية التالية :

(أ) استخدام اداة أو أكثر من أدوات الاستفهام : ايه ، فين ، مين ، منين .

(ب) استخدام **صيغة الفعل الناقص للمفرد المتكلم** مثل : أعمل ، أروح ، أقول ، آجى .

(حـ) مصاحبة هذه الصيغ بلفظ من الألفاظ التى يمكن أن نطلق عليها اسم ألفاظ الحشو expletives نظراً لأنها لا تضيف كثيرا الى المعنى مثل : بس ، يعنى ، بقى .

(د) استخدام واحدة من مجموعة محددة من عبارات التخاطب addressive phrases مسبوقة بالأداة (يا) مثل : ياربى ، ياعالم ، ياخواتى ، ياهو .

(هـ) استخدام نغمة كلامية معينة تميزها عن غيرها من الصيغ المرتبطة بوظائف لغويه أخرى مثل الاستفهام عن شىء أو التعبير عن الغضب أو اللوم أو السب .. الخ . وتتضح هذه الملامح السابقة من الأمثلة الشائعة التالية التى تستخدم فى مواقف اليأس والاستسلام فى اللهجة المصرية : أعمل ايه بس ياربى ! ، يعنى اعمل ايه ياخواتى! أروح منه فين ! ، أروح لمين ! ، أعمل ايه بس ياعالم ! ، أروح فين وآجى منين ! .. الخ .

ثانيا : هل يتعين علينا أن نفرق فى الوظيفة اللغوية بين ما يمكن أن نسميه بالأسلوب المحايد أو المتعادل neutral style **وبين ما يمكن أن نسميه بالأسلوب الانفعالى** Emotive style وبتعبير آخر هل هناك فائدة ترجى فى دراسة الأسلوب من وراء التمييز بين الأسلوب المتعادل الذى يتضمن الوظائف اللغويه العادية مثل الاخبار أو التقرير أو الاستفهام أو الأمر ، وبين الأسلوب الانفعالى المختلفه مثل الدهشة والتعجب والأسى والغضب الذى يرتبط بوظائف لغوية تعبر عن الانفعالات والندبة والندم والتهكم والاحتجاج والسب والمجامله .. الخ ؟ الرأى عندى أنه ينبغى فى

(١) انظر مقال « اللغة ونظرية السياق » ، الفكر المعاصر ، العدد ٧٦ ، ص ١٩ .

دراستنا لأسلوب ما أن نميز بين هذين النوعين من الأساليب طالما أن الفروق بين الأسلوبين تتعلق بمظاهر لغوية مختلفة نذكر من بينها :

(أ) استخدام صيغ وتراكيب نحوية معينة ٠

(ب) الانحراف أحيانا عن الوظائف المألوفة لأجزاء الكلام أو للصيغ النحوية المختلفة مثل استخدام المذكر للاشارة الى المؤنث أو العكس

(ح) اختلاف وضع أو موقع أو ترتيب الكلمات أو العبارات فى الجملة ٠

(د) استخدام الألفاظ أو العبارات أو المصاحبات اللغوية بطريقة مجازيه ٠

(هـ) استخدام سمات فونولوجية (صوتيه) مميزة مثل النغمة الكلامية ، وارتفاع أو انخفاض طبقة الصوت ، والايقاع ، وتطويل أو تقصير بعض المقاطع أو الأصوات المتحركه أو الساكنه ، واختلاف درجة النبر وغيرها ؛ فهناك فارق مثلا بين نطق كلمة (فين) فى اللغة العاميه فى الجملة الاستفهامية « رايح فين ؟ » أو « حتروح فين ؟ » حين تستفسر من صديقك عن المكان الذى هو ذاهب اليه ، وبين نطق نفس الكلمه فى جمله الترحيب التى تلقاه بها ، خاصه اذا لم تكن قد التقيت به منذ أمد طويل : « فينك يا راجل من زمان ؟ » وحتى الألفاظ المصاحبة للجمله الأولى قد تختلف عنها فى الجملة الثانية ، فقد تتبع الأولى بجملة مثل «حتروح النادى ولا السينما ؟» على حين قد تتبع الجملة الثانية بعبارة مثل « عاش من شافك ! » وهى معايير لفظيه تفرق بين الوظيفتين ٠

ثالثا : هل من الأفضل دراسة الملامح اللغوية فى أسلوب كاتب ما لذاتها ، بصفتها سمات تميزه عن أسلوب غيره من الكتاب ؟ أو الأجدى أن نتقدم خطوة عبر حدود النقد الأدبى **ونحاول** أن نتبين ، ما وسعنا الجهد ، دلالات هذه السمات اللغوية وآثارها ، سواء من وجهة نظر الكاتب أو من ناحية تأثيرها على القارىء فنيا أو جماليا أو اجتماعيا أو سياسيا أو عاطفيا ٠٠ الخ ؟ الواقع أنه لما كنا حريصين فى المقام الأول - من وجهة نظر علم اللغويات على الأقل - على ألا نعرض مقاييسنا ومعاييرنا فى دراسة الأسلوب لأى من عوامل الافتراض والحدس والتخمين أو الاجتهاد القائم على غير أصول علمية ، أى بغير شواهد ملحوظة يمكن اخضاعها للتحليل الدقيق، فانه ينبغى أن نحترس فى محاولتنا هذه ، وأن نكون صادقين دائما مع أنفسنا ، فلا نتعرض لهذه الدلالة أو تلك ما لم تكن مشفوعة بأدلة وبراهين ملموسة ومدعمة بالأسانيد التى نلحظها فى النص نفسه أى دون أن نفرض على هذا النص معايير من خارجه ، والا وقعنا فى نفس الفخ الذى وقعت فيه مدارس الأسلوبيات التقليدية التى لازلنا نعانى منها فى حياتنا الأدبية والفنية ، وهو التخبط فى متاهات الاجتهادات الذاتية وعدم توخى الحياد والموضوعية فى الأحكام النقديه ، مما يترك المجال مفتوحا لعوامل شخصية أخرى بعيدة كل البعد عن النقد العلمى مثل التحزب والتعصب وتزييف **الحقائق وغيرها** ٠ ولذ نرى أن محاوله اجتياز علم الأسلوبيات لحدود النقد الادبى هى محاولة جديرة بان نبذل فى سبيلها كل جهد ، اذ أنها محاوله الغرض منها التزاوج ما أمكن بين الأدب من ناحيه وبين اكتشافات علم اللغويات الحديث من ناحيه أخرى سواء فى مجال علم المفردات lexicoloy أو النحو grammar أو الصوتيات phonology الى جانب أنها محاولة لتنقيه علم النقد من شوائب الذاتيه والعشوائية ٠ فاذا قلنا على سبيل المثال أن **أحد الملامح اللغوية التى تميز شعر عبد الوهاب البياتى هو كثره استخدام الجمل الاستفهامية البلاغيه أى التى لا نتوقع اجابه من المخاطب فانه يمكننا أن نتجاوز حدود هذا الوصف الى التفسير القائم على شواهد من شعره فنقول انه يلجأ الى هذه الوسيلة حين يستبد به اليأس ويحس أن المعانى والقيم الشريفة قد أهدرت ،** ذلك أن المتطفلين قد أقحموا أنفسهم على ميدان الشعر الطاهر المنيع ، والرفعة وعلو الهمه أصبحتا غير ذى جدوى فى زماننا هذا ، والحب يبدو أبعد ما يكون كلما دنا منه الشاعر ، أما الموت وأرزاء الزمان فهى تلاحق الشاعر وحبيبته وتطاردهما فى كل مكان حتى فى عقر وطنهما فلم يعد لهما حبيب فيه أو ولد ٠ وقصائده تزخر بهذه الجمل الاستفهامية الصيغه التى تشيع فيها رنة الأسى والشجن **اذ يقول فى قصيدة (شعرى):**

ماذا على الشعراء لو قطعوا يد المتطفلين ؟

ماذا على الشعراء لو بصقوا على هذى النعوش ؟

ويقول فى قصيدة (**القتلة**) :

ماذا سيجدى السنا ؟

من بعد أن سمموا

فى حقدهم خبزنا

ويقول فى قصيدة (الموت والزمان) :

ولم نجد هناك من يعرفنا
ماذا تقولين ؟
أيا عصفورة الشجن

ثم يقول فى قصيدة (الجدار) :

فأين يا حبيبتى الفرار !

وفى قصيدة (قيس) :

يانجم وثبتنا الشهيد
لم الرحيل ؟
يا قيس يا ولدى
ويا حبى الأخير ، متى تعود ؟

●

عالم الأسلوبيات أو المحلل اللغوى

يتضح مما سبق أن عالم الأسلوبيات ينبغى أن يكون على المام كاف بتراكيب اللغة وأنماطها وخاصة التراكيب والأنماط العميقة لا السطحية منها فحسب ، وأن تكون لديه القدرة على انتقاء تلك التراكيب التى لها أهمية خاصة من الناحية الأسلوبية ، كما يكون قادرا على تحليل العلاقة الوثيقه بين الملامح اللغوية وبين الظواهر الاجتماعية المرتبطة بها ، ذلك أن السمات اللفظية والنحويه والفونولوجيه انما تكتسب دلالتها من السياق الاجتماعى والبيئة الثقافية – بمفهومها الواسع – التى تستخدم فيها وتكون جزءا لا يتجزأ منها ، ولذا فهى تختلف عبر الثقافات المتباينة حتى ولو كانت هذه الألفاظ والتراكيب متماثلة من حيث الصيغة ، فمثلا لفظة (با !) فى الانجليزيه تعد صيغة تعبر عن الازدراء والاحتقار ، بينما يعبر نفس اللفظ عن الدهشة والتعجب فى الروسية ، وعلى حين أنها تعبر عن الريبة أو عدم المعرفة فى اليونانية . ولذا كان لزاما على المحلل اللغوى أن يكون على دراية بفروع علم اللغويات المستحدثة مثل علم اللغويات الاجتماعية socio-linguistics وعلم اللغويات النفسية psycho-linguistics والأنثولوجية ethno-linguistics زد على ذلك أن المحلل الأسلوبى لابد وأن يتوخى تكنكا معينا يضمن له وضع هذه الملامح فى اطار لغوى مناسب يوضح فيه التنظيم الداخلى للغة أو الأسلوب الذى يفحصه الى أقصى حد ممكن . ولابد من الاعتراف هنا بأن عملية انتقاء الملامح هى عملية تخضع للشعور الداخلى أو الالهام الى حد كبير ، أى أن عملية اختيار الملامح التى نخضعها للبحث والتحليل هى عملية شخصية لا موضوعيه ، ولكن يمكن الاعتذار عن هذا بأن عالم الأسلوبيات أقدر من غيره على الانتقاء بعينه الفاحصة وبشعوره الداخلى الذى يستطيع أن يميز بين ما هو ذات أهمية وبين ما ليس له أهمية كبيرة من الناحية الأسلوبية ، فهو يعلم أن الملامح الجديرة بالتحليل فى أسلوب كاتب ما مثلا هى الملامح التى يتفرد بها الكاتب ويتميز بها عن غيره ، وبخاصة تلك الملامح المبتكرة التى تغلب على أسلوبه والتى تتكرر بالقدر الذى يجعل من هذه الملامح أنماطا مميزة تشيع فى هذا الأسلوب، فاذا قمنا بتحليل أسلوب الشاعر صلاح عبد الصبور أو البياتى مثلا تعين علينا أن نستطلع الوسائل الأسلوبية التى تغلب على شعر كل منهما ، فنجد مثلا أن التقديم والتأخير فى شعر صلاح عبد الصبور ظاهرة شائعة ، وبخاصة فى الجمل الفعلية ، فهو يقدم شبه الجملة عن الفعل والفاعل ، اذ يقول فى ديوانه الأخير (رحلة فى الليل) :

وفى ليلة عاد من حقله
وفى حفرة من حفار الطريق

●

وهبناه للأرض باسم النبى
ومن موته انبثقت صحوتى (١)

على حين أن البياتى يندر أن يقدم أو يؤخر فى أسلوبه ، اذ يلتزم فى شعره فى كثير من الأحيان بالترتيب العادى لأجزاء الكلام فى الجملة ، فيقول مثلا فى قصيدة (فارس الحزن) :

عاد من عالمه الموحش مقرورا
للصوص الشعر

●

ويقول فى قصيدة (شعرى) :

شعرى جواد جامح ، يعدو بفارسه الحزين
نحو الينابيع البعيدة

واذا أردنا أن نجمل ، على سبيل المثال ، أهم وسائل أسلوب البياتى كما نستقرأها من نموذج محدد من شعره ، قل فى ديوان (كلمات لا تموت) نجدها :

١ – استخدام صيغة التعجب (ما + أفعل التفضيل مضاف الى معرفة أو واو الندبة + عبارة معرفة) مثل :

---

(١) انظر كذلك مقال « النقد الأدبى وعلم اللغويات الحديث » ، مجلة المجلة ، العدد ١٦٨ ، ديسمبر ١٩٧٠ ، ص ٣١ .

ما أبعد الطريق
ما أقل الزاد

●

واحسرة الشاعر فى خريفه يهان

●

واحسرة الشاعر فى خريفه تهصره الأشجان

٢ ـ كثرة ايراد الجمل الندائية (حرف النداء (يا) أو (أيا) متبوعا بعبارة اسمية معرفة تشير فى الغالب الى الحب أو الى عنصر من عناصر الطبيعة أو الى الشعر) مثل :

ياحبى المخضب بالدماء ، ياحبى المغامر ، ياحبى الأخير ، يابرد الصحارى ، ياخيط الضياء، يافجر وثبتنا الشهيد ، ياربة الشعر الكذوب ، أيا فارس حزنى ، أيا عصفورة الشجن ٠

٣ ـ شيوع الاستهلال فى أبياته الشعرية بشبه جملة مكونة من حرف جر + اسم معرفة ، مثل :

الى وحشة سجنى ، للصوص الشعر ، بحروف منشوراتك الخضراء ، نحو الينابيع البعيدة ، بفارس الأمل الحزين ، عبر ليل مشانق السجن الكبير ٠٠ الخ ٠

٤ ـ تعريف البياتى لمراميه ومواقفه ومشاعره وسجاياه بطريقة سلبية لا ايجابية ، ولذا تتكرر فى شعره أدوات النهى والنفى والنسخ ، فهو يخاطب قلبه بقوله :

يا قلب لا تهرم !

ويتجه الى فارس حزنه بالخطاب :

لا تدعنى

●

لا تدعنى فى الصقيع

ويقول عن موقفه من قضية الانسان :

انى لن أخون

قضية الانسان ، انى لن أخون

وفى قصيدة (المسيح الذى أعيد صلبه) يعدد الصفات التي يربأ بنفسه أن يتصف بها لما فيها من مخالفة لمبادئه :

وأنا لست سياسيا
خطيبا ،
فالمنابر
طردتنى منذ أن صحت بوجه الناس
(كلا ! أنا ثائر ٠٠)

●

وأنا لست بتاجر
يتغنى بعذاب البشرية

وجدير بالملاحظة هنا أنه لما كان علم الأسلوبيات ـ وعلم اللغويات بوجه عام ـ مازال فى طور مبكر فان المناهج الحالية لا يمكن أن تدعى أنها مناهج متكاملة أو شاملة كغيرها من مناهج العلوم التى سبقتها ، وكل ما يستطيع أن يفعله المحلل فى هذه المرحلة ، وفى ضوء النظريات اللغوية الحالية ، هو أن يشير بطريقة منتظمة الى بعض الحقائق اللغوية فى أسلوب كاتب ما ، أو فى لهجة ما ، والعلاقة بين هذه الحقائق وبين الوظائف اللغوية المرتبطة بها ، ثم يحاول وضعها جميعاً فى اطار نظرى مناسب مستمد من واحدة أو أكثر من المدارس اللغوية ، كما يقترح خطوات العمل التى يتبعها أو التكنيك الذى يستخدمه فى الوصف والتحليل ، وغالبا ما يكون التكنيك نابعا من العمل نفسه ويختلف كثيرا من عمل الى آخر أو من محلل الى آخر ٠ ولكن يمكن القول بوجه عام بأن المحلل يقترب من النص من جهة واحدة أو من عدة جهات تعرف باسم مستويات التحليل اللغوى levels of linguistic Analysis لا يهم تناولها بتسلسل معين ، بل يمكن للمحلل أن يبدأ بأى منها ، ونتعرض فيما يلى لكل منها بايجاز ٠

مستويات التحليل اللغوى

١ ـ المستوى الصوتى phonological level يعنى بدراسة الأنماط الصوتية التى تميز أو تعين على تمييز الأساليب المختلفة مثل تكرار أصوات بعينها فى توزيع معين ، وطول المقاطع ، والايقاع، والنبر ، وطبقة الصوت ، والنغمة الكلامية ٠

٢ ـ دراسة الوحدات التركيبية المعقدة التى قوامها الأصوات أو الحروف ، وهذا هو المستوى النحوى grammatical level ويصبح الهدف الأساسى ، من وجهة النظر النحوية ، هو تحليل التركيب الداخلى للوحدات التى يطلق عليها اسم الجمل أو العبارات فى أسلوب معين ، وكذا الطريقة التى يوظف بها الكاتب هذه الجمل فى تسلسلها أو تعاقبها ٠

٣ ـ تحليل المفردات اللغوية أو المستوى اللفظى lexicological level يميل علماء اللغويات حاليا الى توسيع مفهوم كلمة المفردات اللغوية فيدرجون تحتها ، الى جانب الألفاظ المنفردة ، الوحدات اللفظية التى ترتبط ببعضها البعض ارتباطا وثيقا من حيث التركيب والمعنى مثل العبارات الاصطلاحية idioms كقولنا على سبيل

المثال (فى المشمشى) أو عبارة (بيض وشنا) فى الجملة (الواد بيض وشنا فى الامتحان) ، وكذا المصاحبات اللغوية collocations مثل لفظى (ناقة ... جمل) فى جملة (لا ناقة لى فيها ولا جمل) ، أو كلمتى (الحابل ... النابل) فى عبارة (واختلط الحابل بالنابل) ، ذلك أن هذه الألفاظ ملازمة لبعضها البعض بمعنى أنها ترى عادة فى رفقتها أو فى محيطها اللغوى ، وإذا ما ذكر أحدها تنبأ القارىء باللفظ أو الألفاظ الأخرى المصاحبة لها فى بيئتها اللغوية ، ويتبين هذا من العبارات التالية التى يمكن لأى قارىء مصرى أن يكمل الفراغات فى يسر :

(لا لى فى الطور ولا ...)
(لا له شغلة ولا ...)
(لا يرحم ولا يخلى ...)
(لا احم ولا ...)
(لا شفع ولا ...) ... الخ

وعلى كل ، فان ما يهمنا هنا هو أن المحلل اللغوى يستطيع ابداء ملاحظاته على الطريقة التى تميل بها المفردات (سواء ألفاظ منفردة أو عبارات اصطلاحية أو مصاحبات لغوية معينة) الى الانتظام فى أسلوب كاتب ما ، أى الانماط التى تنتظم فيها الوحدات اللفظية فى أسلوب هذا الكاتب ، وهل هى أنماط عادية مألوفة ، كما هو الحال فى لغة الكلام أو الكتابة العادية ، أم ثمة أنماط غير عادية يتفرد بها الكاتب مثل المصاحبات غير العادية التى تزخر بها أساليب الشعراء والكتاب المحدثين فتصبح نوعا من المجاز كثيرا ما يغلق على فهم القارىء ويركز من حدة الابهام والغموض اللذين يتميز بهما الأدب المعاصر ، وثم نظرة واحدة نلقيها على بعض أشعار الغرب الحديثة مثل قصائد **و٠هـ٠ اودن ،** ل ٠ **ماكنيس وديلان توماس** تطلعنا على تلك المصاحبات اللغوية غير المألوفة والتى يصوغونها أحيانا فى قوالب نحوية غير مألوفة كذلك ٠ خذ مثلا بعض أبيات ديلان توماس فى قصيدة **(الرؤيا والصلاة :**

فى الغرفة
الجد مرتفعة الصوت لغرفتى

•

بصمة قلب الرجل

•

النخاع الباطن
لعظمة قلبى

حيث يحاول الشاعر توصيل أثر معين الى نفس القارىء عن طريق اصطناع مثل هذه المصاحبات اللغوية غير العادية ٠

والملاحظ أنه من الممكن دراسة الألفاظ فى استقلال تام عن التراكيب النحوية واعتبارها مستوى تحليلى مستقل بذاته مثل دراسة استخدام ألفاظ بعينها فى أسلوب ما ، أو تكرار مفردات بعينها فى نص من النصوص عدد معين من المرات ، أو استخدام كاتب لألفاظ فى غير معناها الأصلى أو الى جوار كلمات لا تلازمها فى الأساليب العادية ، كما أنه من الممكن دراسة الألفاظ داخل اطار نحوى واعتبارها جزءا من التراكيب النحوية ، اذ لا يمكن ــ فى نظر بعض علماء اللغويات ــ التغاضى عن العلاقة المتبادلة بين المفردات والنحو ، فكلمة (خيول) أو (مناضد) مثلا تدل على **وحدة لفظية** من ناحية لأنها تدل على حيوان أو على شىء معين ، كما تدل على **صيغة الجمع** من ناحية أخرى ، والأولى خاصة بعلم المفردات والثانية خاصة بعلم النحو ، وكذا اذا تناولنا عبارة مثل (لا ناقة لى فيها ولا جمل) فان الوحدة اللفظة (المصاحبة اللغوية) « **ناقة ٠٠ جمل** » لا يمكن فصلها عن **نوع الجملة** التى تقع فيها ، فلا يمكن مثلا أن تستخدم هذه الوحدة بنفس المعنى فى جملة مثبتة فتقول (لى فيها ناقة وجمل) أى أنه لا يمكن فصل المصاحبة اللغوية « **ناقة ٠٠ جمل** » عن أداتى النفى « **لا ٠٠ ولا** » واللذين يعتبران فى حد ذاتهما مصاحبة لغوية أخرى فى هذا النوع من الجمل ٠

ومهما يكن من أمر فان التحليل اللغوى لا ينبغى أن يكون من الصرامة بحيث يقتصر على نوع واحد من الدراسة دون النوع الآخر ، أو أن يلتزم بمدرسة لغوية واحدة دون الانتفاع بالأسلحة والأدوات التى فى جعبة مدرسة أخرى فى مهاجمة النص موضوع التحليل من جميع جوانبه ٠ أما ما يتعدى التحليل من تفسير نقدى وتقييم فنى وجمالى فهو **لا يدخل بالقطع فى اختصاص عالم الأساليب ، بل هو من اختصاص الناقد الأدبى أو الفنى أو عالم الجمال** ، ويبقى السؤال الذى يلح دائما على خاطرى : هل من الممكن أن نتعدى حدود الوصف والتحليل الى التفسير والتقويم ، دون أن نقع تحت طائلة التفسير الذاتى والتقويم الذاتى بل والأهواء الذاتية ؟ ! سؤال لم يجد له علم الأسلوبيات حتى الآن جوابا شافيا ، وما زال بحثه يتطلب الجهد الدائب والعمل الكثير ٠

الحركة والوهج فى لوحات أحمد ابراهيم

د. نعيم عطية

كانت الحركة فى التصوير والنحت تتوقف الى وقت ليس ببعيد على مجرد الصدفة . وحتى أشكال الكسندر كالدير المعتمدة على نسمات الهواء لا تخلو حركتها من عامل الصدفة . أما فى أعمال الفنان المصور أحمد ابراهيم الحديثة المعروضة فى المعرض العام الثالث للفنون التشكيلية (يونيو ١٩٧١) ومن قبل بقاعة اخناتون بالقاهرة فى الثلث الأول من شهر فبراير عام ١٩٧٠ فان الحركة متحكم فيها تحكما مبناه القوانين العلمية .

والحركة التى سعى اليها المصورأحمد ابراهيم هى الحركة التى تواكب انسان القرن العشرين ، الحركة التى يحياها فى الشارع ، فى المصعد ، فى الطائرة ، فى شتى نواحى الحياة العصريه . لم تعد الصورة ذات الأبعاد المكانية الثابتة تشجى فى نظر الفنان أحمد ابراهيم انسان القرن العشرين ، اذ كيف يكون قلقا دائب الحركة ثم يقف أمام صور ذات أبعاد ساكنة ؟ لابد اذن أن يبطىء من حركته . وهذا مناف لتيار العصر . اللوحة اذن ذات الأبعاد الثابتة تعطيل للانسان المعاصر الذى يجب أن يكون أنفعاله حركة ، واستمتاعه موازيا لحركة .

والحركة عند أحمد ابراهيم حركة ديناميكية أخرجت اللوحة التقليدية من مجال الحركة الموحى بها الى الحركة الفعلية التى يستطيع المشاهد معايشتها . وهذه الحركة التى تستحق أن يطلق عليها البعد الرابع للعمل التشكيلى أضافت الى اللوحة اضافة كانت مفتقدة من قبل ، هى « الزمن » ، بمعنى ان اللوحة أصبحت تقدر وتقاس طولا وعرضا وعمقا بالزمن . ومن ثم قادت الحركة وهى البعد - كما قلنا - فى هذه الأعمال التى أطلق عليها صاحبها أحمد ابراهيم اسم « التياترواما » - قادت الى قيمة تبعية جوهرية هى الزمن .

لقد كانت الحركة فى العمل الفنى مثار اهتمام وانشغال المصورين والمثالين على ممر العصور . وقد أسهمت التكعيبية والمستقبلية فى مجال التصوير والنحت الحديث بحلول جديرة بالاعتبار فى صدد تحريك الأشكال الفنية . بل أن الحركة كانت مثار اهتمام قديم أيضا . واذا رجعنا الى التراث الفرعونى على الأخص وجدنا هذا الاهتمام بالحركة رغم التسطيح الذى امتاز به النمط الفرعونى . ونجد الأمثلة البارعة جدا على ما أتاه

المصور الفرعونى من حلول للحركة التشكيلية فى تصويره صفوف الجند المتراصة وحفلات الرقص ومشاهد تقديم القرابين للآلهة · لكن كل هذا قديما وحديثا كان ايحاء بالحركة فحسب ، **أما عند أحمد ابراهيم فان « التياترووراما » هى « حركة معاشة » وليست مجرد حركة موحى بها · ان معرض أحمد ابراهيم كان قادرا على امتصاص المتفرج والاستحواذ عليه ، ومن ثم ادخاله الى قلب التجربة** · ولما كان المتفرج انسانا أى كائنا متحركا بطبعه مستجيبا للحركة بطبعه ، وكانت اللوحات المعروضة من حوله متحركة بدورها ، فهى قادرة أيضا على أن تضبط حركة المتفرج وتشده اليها تبعا لايقاعها الزمنى· فاذا تصورنا متفرجا دخل المعرض لاهثا مندفعا وتوقف أمام لوحات التياترووراما ذات الأشكال السيالة فانه يحس بعد لحظة قصيرة ان حركته النفسية والذهنية قد ابطأت وانسابت فى هدوء مع التكوين الذى أمامها · فهذه الأعمال بفضل البعد الرابع على الأخص ذات قدرة ضخمة على الايحاء ، ويمكن من خلاله أيضا الارتداد الى الماضى بفضل استرجاع الذكريات أو الانتقال الى المستقبل بفضل اثارة الخيال · وهذه كلها نتائج تدخل فى الامكانيات الأولية للتياترووراما·· ويجب أن نسجل هنا ان البعد الرابع فى هذه اللوحات خاضع لتحكم الفنان حسب الاحتياجات والظروف ، بل انه يستطيع أن يوقف الحركة أيضا أى يلغى ذلك البعد الاضافى فتبقى اللوحة استاتيكية سكونية شبيهة باللوحة التقليدية من هذه الناحية·

وبالاضافة الى الحركة فان لدى الفنان المصور أحمد ابراهيم غرام شديد بشعاع الضوء ، ملك عليه تفكيره منذ سنوات ، وقد أوصلته دراسته له وتتبعه لآثاره على الأجسام التى تمتصه وتعكسه وتلك التى تسمح بمروره خلالها الى اليقين بأن الضوء هو الحياة ذاتها ، هو جوهر الحياة وعصبها فلابد من الضوء للحياة والنماء أما اللاضوء فهو موت وفناء ·

وتختلف لوحات التياترووراما عن اللوحات التقليدية باضافة ثابتة هى « الضوء » فبدلا من الاعتماد على الألوان التقليدية مثل الجواش والزيت والباستيل والخامات المختلفة كوسيلة لونية ، اعتمد الفنان أحمد ابراهيم على الألوان الضوئية بصفتها المصدر الأساسى والأشمل للالوان فى العالم · وبعبارة أخرى فانه فى اطار اللوحة التياترورامية اختلفت الوسيلة اللونية من مادة ترسم بها بالفرشة مثلا أو خامات تقطع وتلصق الى الوان ضوئية تعطى القيم اللونية المطلوبة أو النتائج اللونية المطلوبة · فان اللوحات التقليدية تحتاج الى ضوء الخارج ينعكس اليها أو يسقط عليها حتى تراها العين ، سواء كان هذا الضوء اصطناعيا أو طبيعيا ، أما أعمال أحمد ابراهيم فاضاءتها ذاتية نابعة من داخلها ·

وبالضوء وهو الاضافة الثانية كما قلنا أمكن للمصور أن يضيف قيمة هامة فى الفن الحديث وهو « الوهج » الذى يعبر تعبيرا كبيرا عن مدى حيوية اللون · وقد أمكن اعطاء درجات لونية هائلة عديدة لا يمكن الحصول عليها بالالوان العادية · كما أضاف الضوء قيمة « النقاء » و « الصفاء » حتى ان اللوحات المعروضة امتازت ببلورية يحتاج اليها الانسان الحديث وهو يحيا ساعات بين دخان المصانع وتراب المدينة المكتظة وضوضاء الحياة المحيطة به ·

ومثل التصوير العادى الذى استطاع أن ينفذ الى داخل الفنون التعبيرية الأخرى كالمسرح من أوسع أبوابه ويستمر مسيطرا مدة طويلة فان هذا التكنيك الجديد بأبعاده التشكيلية الجديدة يستطيع أن يخدم المسرح بشكل أوقع وأوسع وأكثر فعالية اذ أنه قائم على الكثير من صلاحيات المسرح · فالمصادر الضوئية الملونة من أهم عوامل انجاح العرض المسرحى وأشدها تأثيرا · ولن يكون ثمة تعارض ـ كما هو الحال عندما تقوم بعمل ديكورات ملونة بالطرق التقليدية ـ بين الوانها وبين الألوان الضوئية ·

وقد كان مصمم الديكور أحمد ابراهيم قد نفذ بعض لحظات ضوئية فى مسرحية « آه يا ليل يا قمر » وهى لحظة حريق القاهرة ، واللحظة التى ينتهى بها الفصل الثالث ، وهى حلم بالمستقبل · ولم تكن التكنيكيات التى استخدمت آنذاك على هذه الدرجة من التطور التى وصل اليه « التياترووراما » الآن ، على ما تجلى فى أعمال الفنان الأخيرة ·· وقد أعطى أحمد ابراهيم فى تلك المسرحية بعض المطلوب نتيجة مصادر ضوئية لكن هذا التكنيك

الجديد يستطيع أن يعطى أضعاف ما أعطـــاه فى العمل المذكور لونيا وحركيا ·

ويدعونا هذا الى أن نتساءل عن الفـــارق بين « التياتروراما » والسينما اذ توجد بطبيعة الحـال قرابة بين بعض ما تعطيه «لوحة التياتروراما» وبين ما تعطيه الصورة السينمائية · على أن الفرق يظل قائما بين هذين الضربين من الفن ممثلا فى أن تلك لوحة بذاتها ولذاتها ، وهذه شاشة تحتاج الى آلة عرض تعكس عليها صورة · ولما كانت الصورة السينمائية تحتاج الى اعداد سابق بمراعاة متطلبات معقدة صارمة تقتضيها مثلا المسافة التى تقطعها أشعة ضوئية مرئية منبعثة من آلة ميكانيكية مصنوعة بحساب تكنولوجى دقيق ، وذلك بعد أن يمر اعداد تلك الصورة المنعكسة بمراحل لا تقل بل تزيد مشقة وعناء ـ لما كان ذلك فقد فقدت الصورة السينمائية الكثير من التلقائية والحرية التى تبقى التياتروراما محتفظة بها · الصـورة السينمائية اذن صورة منعكسة على شاشة · أما الصورة التياتروراميـة فهى نتيجـة توفيق بين مقومات ثلاثة هى الشكل والحركة والضوء تتفاعل مع بعضها بعضا فتعطى الصورة من خلف اللوحة ·

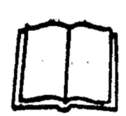
ولكن هل نفهـم من ذلك أن ثمة صلـة بين التياتروراما وخيال الظل ؟ لاشك فى ذلك ، بل يمكن أن نؤكد أن هـذا الذى قدمه أحمد ابراهيم انما هو تطوير تشكيلى حديث لخيال الظل المصرى القديم · ويتمنى المصور الفنان أن تتاح له الفرصة قريبا لأن يقدم فى هذا الاطـار الحديث بابة من بابات ابن دانيال ·

وفى هذا المقام يجب أن نلاحظ أن الأشـكال التياتروراميه التى نخصها بالحديث فى هـذه الصفحات ولئن كانت أشكالا تجريدية الا أن هذه الأشكال لا تعدو أن تمثل الاتجاه الخاص بالفنان أحمد ابراهيم ، والذى يحبه ويفضله على غيره من الاتجاهات التشكيلية ، وتستطيع التجربة المعروضة أن تقـدم أيضا كل ما هو تشخيصى ووصـفى وتسجيلى من الصور ، بمعنى انها تستطيع أن تعطى أشكالا مألوفة معروفة ذات صـفات محـددة كالأشخاص والمبانى والحيوان والشجر وغير ذلك من الأشكال الموضوعية التى تبنى منهـا القصص المسرودة · ومن ثم تستطيع هذه التجربة أن تعطى ـ ضمن ما يمكن أن تعطيه ـ خيال الظل فى عروض حديثة تمكن من احياء هذا الفن الشعبى ، وربطه بعجلة التقدم العصرى ، وتدفـع به الى مستقبل زاخر بالاحتمالات ·

ويجب أن نضع فى الاعتبار أيضا ونحن نواجه الامكـانات التطبيقية لهـذه التجربة الجـديدة ـ والجدة هنا على أى حال نسبية تماما ـ يجب أن نضع فى الاعتبار أن الخامات التى تستعين بهـا تمتاز بأنها اقتصادية ومتوافرة محليا الى حد بعيد كما أنها سهلة النقل والتركيب ولا تحتـاج الى المعـاناة الجثمانية التى تحتاج اليها الديـكورات التقليدية مثـلا فى تركيبهـا ولـكنها ، وبذلك توفر التجربة الجديدة الجهد والوقت ، وتتيح وسطا هادئا لطيفا للمتفرج وعامل المسرح والممثـل على السواء · وكثيرا ما لمسنا المضايقـات عند تغيير المناظر بين المشاهد والفصول وذلك فى أعمال الديكور التقليدية ·

ويمكن أن تتنوع تطبيقات التجربة التى قدمها الينا أحمد ابراهيم على نحو لايمكن حصره مقدما ، ولكن يمكن أن نتصور لها فائدة سيكلوجية أيضا حيث انها تنقل المشاهد حقيقـة الى عالم خاص يمكن تحديده باتفاق مع الطبيب المعـالج حسب الحالة المعروضة ولخدمة الأغاض الطبية · كمـا يمكن أن تستخدم التجربة فى الحياة البيتية فتطعم بها الغرف لتكسبها الايقـاعات النفسية المطلوبة والمتدرجة من السكون والهدوء المطبق الى العنف والحركة التى لا يهدأ لها قرار · كمـا يمكن أن تدخل الى قاعات الانتظار والأماكن العـامة التى يتوافد اليها ويجتمع فيها جمهور قلق مما يمكن أن يعينهم على تحمل عناء الانتظار والتخفيف من ضغط القلق ، ذلك أن اللوحات التياتروامية قادرة بحق على اخراج المشـاهد وانتزاعه من داخله الى عالم اللوحة المتجدد الأضواء والألوان والمتحكم فيه الى ما لا نهاية ·

ندوة القراء



تقديم : عبد السلام رضوان

أزمه واحدة أم أزمتان ؟

مهمـا اختلف المرء مع الدكتـور فؤاد زكريا فى مقالته «أزمة واحدة أز أزمتان ؟» (مجلة الفكر المعاصر، سـبتمبر) فانه لا يجد مفرا من الاقرار لهذا الكاتب بفضيلة نادرة بين كتابنا : هى نصاعة الفكر الذى يجد مساوقا له فى وضوح التعبير . انه لمن المطمئن حقا – فى خضم ما نراه حولنا من فوضى الاذهان واساءة استخدام الالفاظ – ان نجد قلة من الكتاب (اغلبهـا من المشتغلين بالفلسفة ، كما هو طبيعى) تحترم عقلهـا مثلما تحترم عقل القارىء ، وتحترم لغتهـا مثلمـا يحترم الغربيـون لغاتهم . ان هذا الحرص فى التفكير وهـذا الانضباط فى التعبير دليل عقل متمدين وهما بمثابة الزام أدبى لكل معاق ان يحاول الارتفاع الى مثل هذا الافق ، وتوخى الجلاء قدر المستطاع ، حتى ولو كان مفتقرا – كالمعلق الحالى – الى المران الفلسفى . ولولا ان لمقـالة الكاتب – الفلسفية أساسا – صلات بالادب ، وان هناك نقاطا للتلاقى بين هذين النسقين ، لما أبحت لنفسى أن أناقش الكاتب فى موضـوع هو به أعلم وأخبر .

يرى الدكتـور فؤاد – وهو عقـلانى المنزع – أن « من يعيش طيلة حيـاته فى اللامعقـول لا يملك ترف التفلسف أو التفنن على أساس من اللامعقـول » ويوجه خطابه الى « أولئك الذين يتصورون امكان قيام فلسفة، أو فن ، أو أدب للعبث فى المجتمع الذى نعيش فيه » . وفى هذه الصدد اقدم الملاحظات الآتية :

١ – ان الكاتب – باعتباره مفكرا فلسفيا – يميل (كما هو محتوم) الى تطبيق معايير الفلسفة على نشاط فنى لا جدال فى ان له أبعادا فكرية ولكنه – قبل ذلك – مختلف عن النشاط الفلسفى وهو بالتأكيد مختلف عن المذهب الفكرى الذى يدين به الكاتب . فى الادب عنصر عقلى لا شك فيه . وهو ثمرة جهد فكرى واع . انه اداة معرفية نتوسل بها الى فهم العالم ولكنه أيضـا يمتاح من أعمق ينابيع اللاشعور ويجد له مرتعا خصبا فى ظلال اللا عقل والخيال والسحر والحلم والاسطورة . واذا كان لى أن استعير تفرقة أ . أ رتشاردز المشهـورة بين العلم والفن فسأقول : ان الفلسفة تطمح الى وضـع العلم ، حيث تستخدم الالفاظ بمعناها الاشارى ، دون ايحاءات عاطفية ، قدر المستطاع ، بينما الادب ايحائى يقوم على الاسـتخدام الانفعالى للغة . **والخلاصـة هى ان المفكر الفلسفى ليس اصلـح الناس للحكم على الأدب .** حقا انه افضل ، عادة ، من عالم الاجتماع أو عالم النفس أو اللاهوتى أو المؤرخ أو صاحب الايديولوجية السياسية ، ولكن هؤلاء الرجال جميعا لا ينتجون الا فلسفة أو علم اجتماع أو علم نفس أو لاهوتا أو تاريخا أو سياسـة ، ولا ينتجون نقدا أدبيا . لا ريب فى أهمية هذه المساهمات، ولا فى أن النقد الادبى خليق ان يضمر ويجدب اذا هو لم يرتو منها . ولكن هذا الانساق جميعـا لا تنفعنا الا فى دراسة ما حول النص الادبى : عصره وينابيعه وتاريخ حياة مؤلفـة وسيكولوجيتـه وآثاره الإجتماعيـة المحتملة . أما دراسة النص نفسـه – من حيث هو نسـق رمزى من الفاظ – فلا يقدر عليها سوى الناقد الأدبى : أى ذلك الوسيط بين الادب وعلم الجمال . وبهذا ننتهى الى ان الدكتور فؤاد – وان يكن أقرب هؤلاء الرجال الى النقد الادبى ، باعتباره أعرفهم بعلم الجمال – ليس بالدليل الأمثل فى « وصف » ظاهرة أدبية كأدب اللامعقول ، دع عنك « التشريع » لها .

٢ – يلوح ان الكاتب يعتبر الادب مجرد نتـاج للحضارة التى ظهر فى ظلها وتعبير عن نظرتها الى الوجود والانسـان . ورغم تسـليمنا بأن هـذا صحيح من حيث الاسـاس ، فاننا نرى ان فى الادب عنصرا يجاوز معطيات عصره ويعلـو على كل الازمان ، ليست هـذه تهويمات مثالية ، لا سند لها من الواقع ، وانما هى حقائق يشهد بصحتها ان عناصر اللامعقول الاوربى الأمريكى المعاصر تضرب بجذورها فى الآداب الاغريقيـة واللاتينيـة ، وهى نتـاج حضارات مختلفة تمام الاختلاف عن الحضارات المعاصرة . ان عرق الفانتازيا سرى فى الادب منذ القدم ، لانه جزء

لا يتجزأ من تكوين المخيلة وتلاعبها بالموجودات . وهو ليس آية تخلف عقلي ولا حيلة هروبية من ضغوط الواقع – رغم انه يمكن أن يكون كذلك – قدر ما هو تحرير للخيال ومجاوزة لحدود الواقع الذي لا يرضي أشواق الانسان وطموحه الى أفق من الرؤية أوسع وأرحب والى تركيب للوجود أعمق وأرسخ . ان اللامعقول – الذي ليس ، في التحليل الاخير ، سوى دفع للمعقول الى آخر حدوده – هو نتاج الخيال الذي يعيد تركيب الاشياء ، ويحيل أحلام اليوم الى حقائق الغد ، بل انه – وهنا مكمن المفارقة – اقرار ضمني بعظمة العقل وقدرته على مجاوزة ذاته ، على نحو لم يصل اليه العقلانيون أنفسهم .

٣ – ليس العقل – رغم كل احترامنا له – كافيا للاحاطة بسر الوجود ، وانما هو أداة من الادوات التي نسعى بها الى حل شفرته . ان صمت الآماد اللانهائية مازال مرعبا اليوم مثلما كان في عصر بسكال . ونحن حين نعلن قصور العقل عن الاحاطة بالكل لا نهيب بأي وحي ديني ولا دوافع غريزية ولا تحيزات عاطفية . وانما نقتصر على تقرير حقيقة مؤسفة هي ان العقل – وان يكن أجدر ما لدينا بالثقة – مازال محدود الآفاق ، وما زالت سيطرته على العالم الفيزيقي محدودة . ولهذا نتردد كثيرا قبل أن نوافق الدكتور فؤاد على جعله فيصلا فيما هو أعقد من العالم الفيزيقي ، عالم الروح المبدعة للآداب والفنون ، وهي التي تتخذ من التجربة الانسانية بكل وسائطها وأنواعها ميدانا لها وتتلبس فيها الحقيقة بألف وجه ووجه ، وكلها – مع ذلك – صادق ، لانها ليست كالمنطق الذي تفسر فيه قضية بصحة ما يناقضها . ان للأدب منطقا خاصا به يشترك في قواعده الاساسية مع منطق الفلسفة – من ينكر هذا ؟ – ولكنه يجاوزها الى آفاق أبعد مدى . ليس هذا تفضيلا عاطفيا للأدب على الفلسفة ، ولا ادعاء بأنه « أسمى » منها وانما هو ببساطة تقرير للفروق بين منشطين مختلفين : أحدهما يعتمد العقل وحده (أو هذا هو المفروض) معيارا للرفض والقبول ، والآخر يعتمد العقل والوجدان معا . وربما أربى فيه نصيب الوجدان على نصيب العقل .

٤ – ليس اللامعقول – بمعناه الادبي عند بيكيت ويونسكو وغيرهما – معادلا لـ « الخرافة وحرفية النص » وانما هو – كما يقول الكاتب نفسه – يمثل « مرحلة ما بعد العقل » . وعلى هذا لا يجوز النظر اليه على انه عون على تأكيد النظرة الغيبية ، أو أنه مناف للعقل ، وانما ينبغي أن يفهم على وجهه الصحيح ، باعتباره معايشة لاحدث ما وصلت اليه أزمة العقل الانساني في الغرب ، ومواكبة لها في سيرها الحثيث . ان أشباح اللامعقول التي تتخايل من وراء أعمال بعض كتابنا أدوار الخراط ، نعيم عطية ، شفيق مقار ، فتحي غانم ، (توفيق الحكيم ، نجيب محفوظ ، يوسف الشاروني ، كامل زهيري ، بدر الديب ، محمد منير رمزي ، عباس أحمد ، محمد حافظ رجب) وبعض فنانينا (رمسيس يونان ، فؤاد كامل ، أحمد مرسي) ليست « محاكاة ببغائية تفتقر الى الاصالة » وانما هي تعبير عن أزمة العقل في أقصى توتراته ، وتجسيد للمعاناة الفكرية التي يمر بها كتاب أجسادهم في الشرق ، ولكن أرواحهم قد اكتوت بنيران الغرب : حضارة وفلسفة وفنا . ومرة أخرة ينزع الادباء الى الثورة على طغيان المشرعين ، سواء كانوا مفكرين فلسفيين أو مصلحين اجتماعيين ، ويقولون لهم : اننا لسنا مجرد كائنات اجتماعية ، أو محاذين لخطو مجتمعاتنا لا أمامها ولا خلفها ، وانما نحن « أفراد » – بالحرف الكبير – متفردون لا نعرف معنى التفرقة بين الشرق والغرب ، وانما نستمد الهامنا من أي مصدر يوافق طبعنا ورؤيانا ، سواء كان مصدره احراش افريقيا أو صحارى آسيا أو سهوب استراليا أو ثلوج الشمال . استلهام انسان الكهف والفراعنة والعبرانيين والاشوريين . والبابليين والعرب والبراهمة . ومن هذه المؤثرات المتباينة ولنا في ذلك أسوة بكتاب الغرب الذين لم يجدوا حرجا في – الى جانب تراثهم المنسوج من حضارة الاغريق ، والمسيحية ، والعلم – شادوا هذه الحضارة الغربية السامقة التي لا ينكر الا مكابر انها أمل الانسانية اليوم في التقدم ، ويتضاءل أمام منجزاتها أي حديث عن « الاصالة » أو استيحاء الواقع القومي .

٥ – ليس اللامعقول « ترفا » كما يصفه الكاتب وانما هو آية التمزق الانساني بين العقل والوجود ، بين القوة والفعل ، بين الصدفة والقانون ، بين المفاجأة والتوقع . وليس هناك ما هو أروح للنفس من الاطمئنان البورجوازي الذي يسير في حياته على نسق معلوم . وبالبرجوازي هنا أعني كل متقولب في نمط حياته وأفكاره ، سواء كان رأسماليا ، أو مؤمنا بالغيبيات ، أو بروليتاريا مطمئنا الى ان الفردوس الارضي سوف يتحقق يوما (والبركة في حتمية التاريخ) على هذه الارض . ان الانسان اللامعقول – وقد وصفه البير كامو بما لا مزيد عليه – انزه فكرا من أن يتقبل أيا من هذه الحلول الجاهزة ، وانما حياته – المعذبة بالضرورة – توتر دائم بين لا معقولية الوجود وتوق العقل الى النظام والقانون .

ماهر شفيق فريد

مدرس لغة بكلية الآداب جامعة القاهرة

●

تعليق :

كان جميلا من الاستاذ ماهر شفيق فريد أن يتفضل بنقد جانب من مقالي السابق « أزمة واحدة أم أزمتان »

واعتقد اننا متفقان فى مسائل كثيرة ، ولكنى اود ، تعليقا على رده ، أن انبه الى النقاط الآتية :

١ ـ لم احاول فى مقالى أن أصدر حكما على الادب بوصفى اديبا او ناقدا أدبيا . ولكن التحليل الفلسفى والجمالى لبعض جوانب الادب أمر لا يستطيع أن ينكر اهميته أحد . وقد استخدمت فى انجزء الاخير من مقالى هذا الحق ، وأعتقد أنه مما يثرى الادب أن يتناوله المفكرون والباحثون كل من زاويته الخاصة .

٢ ـ لم أحاول على الاطلاق أن احط من شأن اللامعقول فى الادب ، وكل ما فى الامر اننى اكدت استحالة ظهور نظرة لا معقولة الى العالم الا فى حضارة مارست من قبل تجربة العقل . ومن الممكن تماما أن تظهر عناصر لا معقولة ((غير واعية)) فى أعمال أدبية تنتمى الى حضارة لم تمارس هذه التجربة بما فيه الكفاية ، ولكن هذه الاعمال لن تستطيع أن تحكم على العالم ((عن وعى)) بانه لا معقول ما لم تفترض مقدما أن العالم ((كان يجب أن يكون معقولا)) .

٣ ـ تعد الأمثلة التى ضربها الزميل ماهر لادباء وفنانين مصريين عاشوا تجربة اللامعقول ، تأييد واضحا للموقف الذى اتخذته فى المقال المذكور ، بدليل أنه حكم على هؤلاء الادباء والفنانين بأنهم ((كتاب أجسادهم فى الشرق ، ولكن أرواحهم قد اكتوت بنيران الغرب ، حضارة وفلسفة وفنا)) . وهذا بالضبط ما كنت أعنيه حين قلت ان الكاتب المندمج فى حضارة لم تعش حياتها العقلية كاملة بعد ، لن يمكنه أن يحكم على الوجود بانه ، لا معقول ما لم يكن محاكيا للآخرين .

رئيس التحرير

فلسفة الحرية والعبودية

ان ظهور الانسان يمثل فكرة الكون المشتملة على الوعى واللا وعى ، على الروح والمادة ، على المقاومة السلبية والايجابية ، على الخير والشر . لقد عاد الانسان ليكرر ما قام به الكون . لكن الفرق واضح بين العمليتين : ففى الانسان يعيد الكون ذاته الى نقطة انطلاقه ، أى التغلف على ذاته من الخلية لينطلق الى الانسان وينفتح عليه فى وعى وحرية ، وفى المادة ينفتح الكون ذاته لينفض عنه قيود مادته دون معرفة ما يفعل . لذلك يكون صعود الكون الى الانسان عملية داخلية اتسمت بتوجيه داخلى لطاقة مكنونة تفصح عن ذاتها ، لتعى ذاتها . ومتى وعت ذاتها يتحقق الانسان .

ويعود الانسان ليمثل فكرة كمال المادة أى الوجود المادى ، لكنه لا يمثل كمال الروح والكيان والحقيقة والمطلق الا فى الامكان . لذلك ، فهو يجمع العاملين فى وجوده ، المادى والروحى ، فى اتحاد عجيب يعرف بالكينونة أو بالكيان . فكلما تسامت الفكرة وانطلقت ، أى كلما تحررت فى عبوديتها ، أى فى مقاومتها المادية السلبية ، استطاعت أن تسجل نقطة هامة جديدة فى التطور والحرية .

ان انطلاق الانسان من الخلية ، فى رحم الام ، دليل على تغلفه فى لا وعى يبدأ بالكشف عن ذاته فى سلسلة من الوجودات والتطورات يتحرر ضمن كل واحدة من انغلاق سابق وعبودية سابقة لينفتح الى خليقة جديدة . وهكذا تكون حياة الانسان رحلة تبدأ باللا وعى وتنتهى بالوعى ، تبدأ بجهل الوعى القائم فيه وتنتهى بادراكه ، أو تستمر بالوعى الى أن تحقق الفكرة المطلقة ، أى صورة المطلق فيها . وعلى هذا الاساس يكون الانسان هو الكائن الوحيد المسئول لانه يعى .

ولما كان الانسان يحمل فى كيانه العالمين ، الروحى والمادى فانه يعمل جاهدا على رفع هذا الاخير الى درجة الفكرة . ويتطلب هذا الفعل طاقة خلاقة تحرره من كل مقاومة سلبية أو ارادة سلبية ، تجذبه الى الاسفل . وهكذا يكون تطور الانسان فى انه يرفع الكون الى نقطة انطلاقه الاولى ، فيتروض الكون ويعود الى سابق عهده .

عند هذه النقطة من الموضوع نسال أنفسنا السؤال التالى : ما الحرية وما العبودية ؟

يطرح الموضوع ذاته علينا فى صورة أولية هى : مقاومة سلبية ومقاومة ايجابية ، أو ارادة سلبية وأخرى ايجابية . هنالك السلب وهنالك الايجاب . ويتمثل الايجاب فى القيم التى ترفع الانسان الى الاعلى ، كالمحبة والتضحية والمعرفة . ويتمثل السلب فى القيم التى تجذب الانسان الى الاسفل : كالكره ولانانية والجهل . وبكلمة موجزة ، يتمثل الايجاب بالخير ، ويتمثل السلب بالشر .

أن المقاومة الايجابية تؤثر فى الانسان لترفعه ، وهى مظهر روحى للطاقة ، هى الحرية . وان المقاومة السلبية التى تجذب الانسان الى الاسفل لتقيده بعالم المادة ، وهى مظهر للطاقة ، هى العبودية : فالعبودية هى كل ما يتمثل فى القيم التى تسيطر على الانسان لتبقيه فى عالم لاوعيه ، ليبقى منفيا فى عالم غربته ، وتبدو بالمظاهر التالية : الملكية والشهوات والكره والحقد والشراعة والكبرياء والانانية وانحطاط الخلق والطمع والحسد والتسلط والاستغلال لخ . والحرية هى كل ما يتمثل بالقيم التى يتبناها الانسان لترفعه الى عالم وعيه وحقيقته : كالتجرد من الملكية التى تعوق تقدم الروح فى سيرها ، والمحبة والتضحية والتواضع والترفع الخلقى والتسامح والمعرفة الخ . وهكذا تعوق العبودية كل تقدم أى كل تحرر .